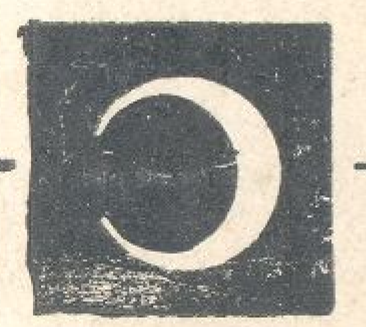


كتاب الهلال

١٠ قروش

سلسلة ثقافية شهرية

مختارات من برنارد شو

الدكتور عمر مكاوى

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
0188281

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العــدد ١٧٠ ـ محرم ١٣٨٥ ـ مايو ١٩٦٥

No. 170 — Mai 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

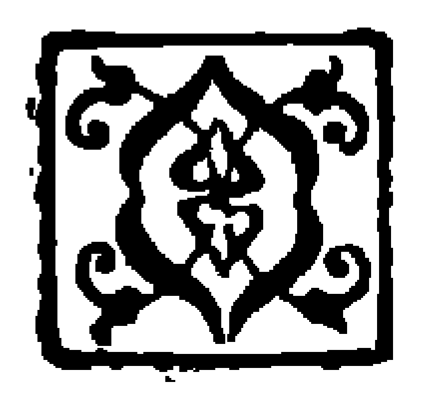
قيمة **الاشتراك السنوى** : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى الســـــودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشــا ســوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنــة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ن

مكتبة الإسكندرية

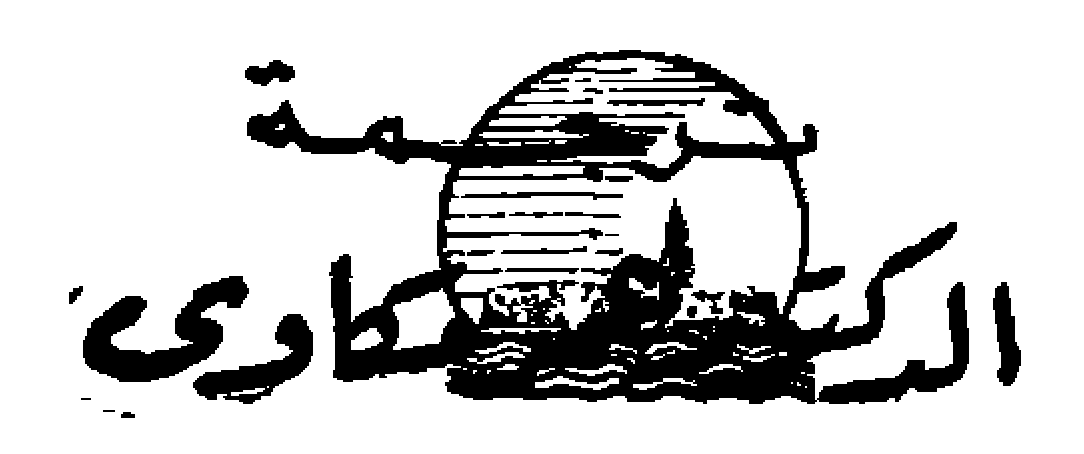
كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

مختارات
من برنارد شو
في السياسة والنقد

ترجمة



الدكتور [illegible] مكاوي

دار الهلال

مقـــدمـة

لم أعرف أن الاختيار من « شو » الكاتب الموسوعى الذى احاط ـ أو كاد ـ بمعارف عصره ، وبلغت مؤلفاته نحو ٣٤ مجلدا منها ١٥ مجلدا مسرحيات عدا رســـائله التى نشر بعضها فى عامنا هذا ، فبلغت عدة مجلدات اخرى ـ لم اعرف ان الاختيار منه مشكلة صعبة بل ورطة محيرة الا بعد ان كابدته . . انها اشبه بالمشكلة التى تعترض كتاب الموسوعات ودوائر المعارف ، وكلهم يجمعون على انهـــا ليست فى ماذا تختار بل فى ماذا تدع . وقد ترجم الى العربية من مسرحيات شو ومؤلفاته حتى الآن عدد كبير ، وان كان متناثرا ، فى فترة تزيد على ثلث قرن . ولكن ما بقى من شو غير مترجم لا يزال كثيرا وهاما جدا . . فكان أول حرصى على أن تكون « المختارات » ـ أو اكثرها ـ مما لم تسبق ترجمته ، ثم أن تكون مطابقة لمقتضى الحال

وفى رأيى ان من أهم ما كتب شو ـ عدا المسرحيات ومقدماتها ـ هو كتابه « جوهر الابسنية » الذى لم يترجم بعد الى العربية ـ للاسف ـ والذى ينبغى ان يترجم بلا ابطاء بعد دراسة كافية ، وبيد اكثر تخصصا واشد تمكنا ، أسوة « بكانديد » فولتير و « حرية » ستيوارت مل . ومن ثم كان اول ماتبـــادر الى ذهنى عنـــدما عرضت فكرة

« المختارات » من شو ان انقل أكبر قدر مستطاع من « جوهر الابسنية » فأخذت منه ثلاثة فصول كاملة . وانصح القارىء العربى المثقف ان يبدأ بقراءة مسرحيات ابسن المترجمة ــ على الاقل ــ وهى نحو عشر مسرحيات من أهم مسرحياته حتى لا يفوته الكثير من اشارات شو وتعليقاته على شخصيات المسرحيات

يقول برتولد برخت عن شوفى «مقالاتهعنالمسرح» (١) : « كلنا نصور المرابى فى صورة الجبان واللص والمتوحش، ولا يخطر ببالنا لحظة أن نسمح له وبأى حال من الاحوال أن يكون شجاعا ــ ولكن شو يفعل ذلك » . واحسب أن برخت قد اصاب بعبارته هذه المرمى تماما وفتح مغاليق شخصية شو ومسرحه بضربة واحدة ..

فالواقع ان « جوهر الشوئية » على وزن « جوهر الابسنية » هو ان شو انسان متمرد يريد التغيير ، تغيير المجتمع وتغيير الانسان . ولا يقف تمرده على التقاليد المحافظة فى السياسة والاجتماع والدين والاخلاق والفن والعلم وكل ما هو « جاهز » سلفا ، بل يتجاوز ذلك الى ما يسميه البورجوازيون « مثلا عليا » اىالقضايا الاخلاقية المسلم بها ، والتى لا تقبل الجدل أو الامتحان فضلا عن الخروج عليها أو الانحراف عنها . ان خصوم شو الالداء هم القطيع السائرون فى الحياة كالهائمين على وجوههم ، الذين يطفون على سطح الحياة كالقش الذى يطفو على سطح التيار بلا وعى ولا ارادة ولا حياة ــ يفعلون ما يفعله كل شخص آخر ويتركون ما يتركه كل شخص اخر بلا وعى ولا ارادة ولا حياة ، لان الحياة

---

(١) Brecht on Theatre اختيار وترجمة John Willet
الناشر Methuen لندن سنة ١٩٦٤

عنده ارادة .. وارادة تغيير وتطور الى ما هو ارقى وانضج واحسن .. فالتقليديون والروتينيون الجامدون أموات أموات وان لم يدفنوا بعد ، أما أبطال الحياة الحقيقيون فهم ابطال التغيير ، أبطال التمرد على التقاليد المتعفنة والروتين الجامد والقضايا « الجاهزة »

وشو عندما يظهر الجانب الشجاع فى المرابى ، والناحية الاصيلة فى تاجر الموت ، وموضع القوة فى العاهرة وزير النساء والنصاب والبورجوازى النفعى انما يريد ان يحقق من الناحية الفنية « انفصـــالا » عمليا فى ذهن ووجدان القارىء أو المشاهد عن المثل العليا السائدة ، مهما كانت هذه المثل حميمة الى النفس قريبة اليها قرابة الرحم .. يريد أن يحقق هذا « الانفصال » لكى تتضح وتبرز ارادة الانسان حرة متحررة من كافة الارتباطات الادبية والمادية بكل ما ورثه عن اجداده وما وجد عليه آباءه الاولين ــ هذا التحرر من الارتباط هو الشرط الجوهرى لحـــرية الارادة ، أى للالتزام ..

ولكن شو ــ مثل ابسن ــ لا يريد التحرر من اجل التحرر والا أصبح « نهلستيا » عدميا يريد الهدم للهدم ، أو ميتافيزيقيا يريد الفن للفن ، أو أبيقـــــــــوريا يريد المتعة للمتعة ، بل يريد للانسان أن يحقق ارادته فى الانفصال لكى يجد حريته فى الاختيار .. اختيار ما يشاء من العقائد ، والالتزام بما يشاء من اخلاق وقيم حتى وان كانت هى العقائد والاخلاق والقيم التى تمرد عليها وانفصل عنها من قبل . فاذا قال قوم ــ بل اذا قالت الدنيا كلها ــ ان المرابى جبان ولص ومتوحش ، لم يأخذ هذا القـــول على عواهنه بديهية لا تقبل المناقشة ، بل نظر فيه خاليا من كل فكرة سابقة ومن كل تقليد سائد ومن كل التزام

موروث ليصدر حكمه عليه بارادته الحرة الحية الواعية . ولا تتأثر هذه الارادة بشيء الا بالظروف الموضوعية المباشرة — كما لا تتأثر ارادة الانسان الواعى الا بالظروف الموضوعية المباشرة عندما ينزل من بيته الى الشارع فيقرر هل يسير على قدميه أم يستدعى « تاكسيا » ..

ان شو — مثل ابسن — يريد انسانا جديدا متجددا سواء فى نظرته للامور أم فى تصرفاته قبلها ، يريد انسانا حرا بمعنى الكلمة أصيلا بمعنى الاصالة ، انسانا يستمد انسانيته رأسا من قوة الحياة المتطورة المتغيرة التى هى كل يوم فى شأن ..

هذا هو جوهر شو ، وهذا هو جوهر ابسن ، وهو جوهر كل انسان متحرر . وهذا — فى رأيى — هو جوهر الانسان العربى فى هذه الحقبة من تاريخنا بعد ان قطعنا هذا الشوط الرائع المجيد فى طريق تحررنا السياسى والاقتصادى والعسكرى والاجتماعى . فان احوج ما نحتاج اليه فى مرحلتنا هذه أن نتحرر نفسيا بمعنى أن نعود الى انفسنا والى تراثنا العظيم والى تاريخنا القريب والبعيد — وأن ننظر الى هذا كله كما ننظر الى حاضرنا ومستقبلنا بعيون جديدة ، وقلوب جديدة ، وعزم جديد . ولهذا اخترت من كتاب « جوهر الابسنية » على صغره ثلاثة فصول كاملة ، ولو اتسع الحيز لزدت ..

ومن العجيب ان شو على معرفة قراء العربية به — كناقد موسيقى — ، لم يكن يقرأ له أحد مقالا واحدا فى الموسيقى فضلا عن كتابه الشهير « الفاجنرى الكامل ». ومقالات شو فى النقد الموسيقى جمعت فملأت ثلاثة مجلدات . وكان شو يفخر بأنه كان فى صباه المبكر يستطيع ان يميز اى لحن فى اية حركة من اية سيمفونية مشهورة

بمجرد السماع ، بل كان يصفر هذه الالحان بفمه ، وظل يعزفها على معزفه حتى قبل مماته فى سن الرابعة والتسعين . وظل يعمل ناقدا موسيقيا فى مجلتى «ستار» و « وورلد » اكثر من ست سنوات ، وبلغت مقالاته من الحيوية ما جعل بعض النقاد يقولون انها تجعلك ـ تسمع ـ الموسيقيين انعظام وهم يقدمون روائعهم بمجرد قراءتك لسطورها . وكان شو يردد دائما قول شكسبير : ان الشخص الذى لا تملأ الموسيقى وجدانه لهو شخص غير جدير بالثقة . وعلى هذا ـ وعلى الرغم من ان معرفتى بالموسيقى لا تتجاوز معرفة المستمع العادى ـ بدا لى أن من غير الممكن ان تخلو « مختارات من شو » من شيء ولو قليل من نقده الموسيقى . وكان الذى استرعى نظرى على الفور مقاله : « فاجنر الشورى » الذى اضافه إلى كتابه الفاجنرى الكامل كرد على الذين انتقدوه لانه أقحم السياسة ومبادئه الاشتراكية على الموسيقى ، وفن الموسيقى هو الفن المجرد الكامل كما يقولون ..

وكان لابد من أن يسبق هذا المقال ، الموضوع الذى دعا اليه وهو عرض شو للحلقة الاولى من رباعية فاجنر الخالدة اوبرا « خاتم النبلونج » وهى حلقة « كنز الراين » كما اخترت مقالا عن بتهوفن كتب بمناسبة مرور مائة عام على وفاته ، ولم يخل أيضا من ذلك العنصر السياسى نفسه ولعل فى المقالات الثلاث ما يردع دعاة ـ أو ادعياء ـ الفن للفن ، واللامعقول ، واللامنتمى فى بلدنا ، الذى يبنى الاشتراكية . اما مافيها من قصور واضح ـ وخاصة فى المصطلحات الموسيقية الفنية ـ فانى آمل أن يستفز نقادنا المتخصصين فى الموسيقى أن يبدأوا ويعيدوا ترجمة النقد الموسيقى لشو وخاصة كتابه الباقى عن فاجنر

وبالنسبة لشو وشكسبير ، اخترت أجزاء من مقالات ومقدمات متفرقة . وهذه هى المرة الوحيدة ـ عدا خطاب شو الطويل فى أمريكا ـ التى اقتطفت فيها أجزاء من المقالات ولم اترجمها كاملة . وسبب ذلك ان شـــو كان يدخل فى تفاصيل خاصة بالمناظر وبالموسيقى المصاحبة وبتمثيل الممثلين واخراج المخرجين مما لا يعنى القارىء العصرى فى شىء خاصة وقد مضى وقت طويل على عرض المسرحيات التى تناولها شو بالنقد .. غير أن أهم مايلفت النظر فى نقد شو لشكسبير انه لا يغض من قدر الشاعر العظيم بقدر ما يغض من قدر عباده ومقلديه الذين يؤلهونه تأليها بلا وعى ولا تفكير . فهو يعرف ويؤكد عظمة شكسبير حتى فى أقذع مقالات الهجاء التى كالها له ، ولكنه كان يؤكد أيضا ان شكسبير لم تكن له فلسفة واضحة اومفيدة لنا لانه كان يقف على رأس حقبة معينة من التاريخ ، تاريخ الفن المسرحى المتطور .. وهذه الحقبة انتهت ، وانعصرنا يطالب بشكسبير آخر جديد . أما من هو هذا الشكسبير الجديد فقد يكون ابسن أو سترندبرج أو شو نفسه . وقد وصف كلا منهم بأنه شكسبيرى حقيقى . وهو فى هذا امين مع نفسه صادق مع فلسفته فى التطور الخلاق وحسبه معرفة بفضـــل شكســـبير انه كان يحج الى ستراتفوزد ـ أون ـ آفون حتى ليقول انهـــا اصبحت مسقط رأس ثان له ، وانه يعرف شخصيات شكسبير الثانوية ـ من صفره ـ كما لو كانوا من معارفه الاحيـاء الذين يلقاهم فى الطريق

***

وحديث شو عنداروين يكشف ضعف شو وقوته معا .. ضعف حجته كلما هاجم العلم والعلماء ، وقوة حجتـــيه

كفنان اصيل . ولذلك فالجزء الخاص بالتطور وعلاقته بالمسرح ، فيه من القوة والاصـــالة والتمكن ماليس فى هجومه بل فى هجائه لداروين والداروينيين ، كما ان فيه عرضا تمهيديا لديانته الجديدة التى بلورها فى مسرحية « عودة الى متوشالح »

***

اما عن المقالات السياسية فقد اخترت مقالة المساواة التى كتبها سنة ١٩٤٤ ، وجعلتها فاتحة المختارات لعلها تساهم فى حسم البلبلة أو ـ على أحسن الفروض ـ عدم الوضوح ـ الذى نعانى منه بشأن قضية المساواة فى الدخل وهو فى هذه المقالة يعالج هذه القضية الحيوية معالجة واضحة ومركزة ، ويلم بها من جميع أطرافها ، ثم يضعها فى موضعها الحقيقى .. وهى ان مشكلة المساواة ليست مساواة فى الفرصة ولا هى مساواة رقمية فى الدخل بين الناس بل هى مشكلة الحد الاعلى للاجور وللدخل المسموح به فى مجتمع يبنى الاشتراكية

واخترت مقالة « عن الفقر » آملا ان يصدر عنـــدنا تشريع او ما يقوم مقام التشريع يحرم الدعوة الى الفقر او استحسانه أو الصبر عليه ، بل يضعها فى مرتبـــة الخيانة لقضية الاشتراكية والحضارة . أقول هذا لانه يحز فى نفسى اننا ما زلنا نسمع مثل هذه الدعوة تتعالى من فوق بعض المنابر كأنها المرض المتوطن ..

ومقال « مشكلة الارض » نموذج لاســـلوب شـــو الاستطرادى المحبب الذى ينتقل برشاقة خطو وخفة روح من اخطر القضايا الى مشكلة شخصية يشرح من خلالها هذه القضايا الخطيرة بوضوح ووفاء . وهى مقالة مفيدة فى وقت يدور فيه سباق غير عادل بين مدينتنا وقريتنا ..

المدينة تركض وتستأثر بكل شيء أو بأحسن الاشـــياء والقرية وراءها تلهث زاحفة لا تنال الا القليل . واحسب ان هذا السباق سيظل فترة طويلة يمثل اخطر مشاكل تطورنا الاقتصـــادي والنفسي ، فبعد ان حقق انتاجنا الصناعي (انتاج المدينة) تفوقه الحاسم على انتاجنـــا الزراعي (انتاج القرية) باستكمال ثورتنا الصناعية الاولى بقيادة القطاع العام ، وبعد زوال الآثار النفسية والاقتصادية والسياسية لعقدة اننا بلد زراعي لا نحسن لابرة تشكيلا ، بعد هذا ستعود مشكلة الارض ـ وهى فى جوهرها مشكلة الملكيـــة الفردية لها ـ لتحتل مكانها الطبيعي وهى مركز الصدارة من حياتنا ، بانعكاس اثر الثورة الصناعية نفسها على الارض وعلى مشكلة الارض . وسوف يتضح هـذا خاصة عندما نشرع فى « مكننة » الزراعة وكهربة الريف كله .. فان اراضي وادى النيل الخالد كانت وما زالت وستظل من اخصب واسخى اراضى الدنيا

وفى مقاله الفساد فى الدولة « تنبيه وتحـذير الى ان الايمـان بالاشـــتراكية ضرورى لتطبيقها ، وأنه لا اشتراكية بدون اشتراكيين ، وان التنظيم السياسى الذى عقدنا العزم على تشكيله ـ حكومة وشعبا ـ هـو الضمان الحقيقى لتثبيت دعائم انتصاراتنا الاشتراكية

ويحتوى المقتطف من خطابه الطويل فى امريكا على نقد لاذع للنظام الرأسمالى الاحتكارى هناك ، واجه به شـو الامريكان مواجهة فى عقر دارهم وفى خلال أسوأ ازماتهم الاقتصادية الدورية ، فضـــلا عن انه يشتمل على بعض التنبؤات الطريفة فى السياســـة الدولية عامة ، وعن الصين بصفة خاصـــة ..

أما مقالاه عن نيتشه وتولستوى ، ففيهما رأى ناضج واصيل وغزير عن الفيلسوف والكاتب الـــكبير اللذين

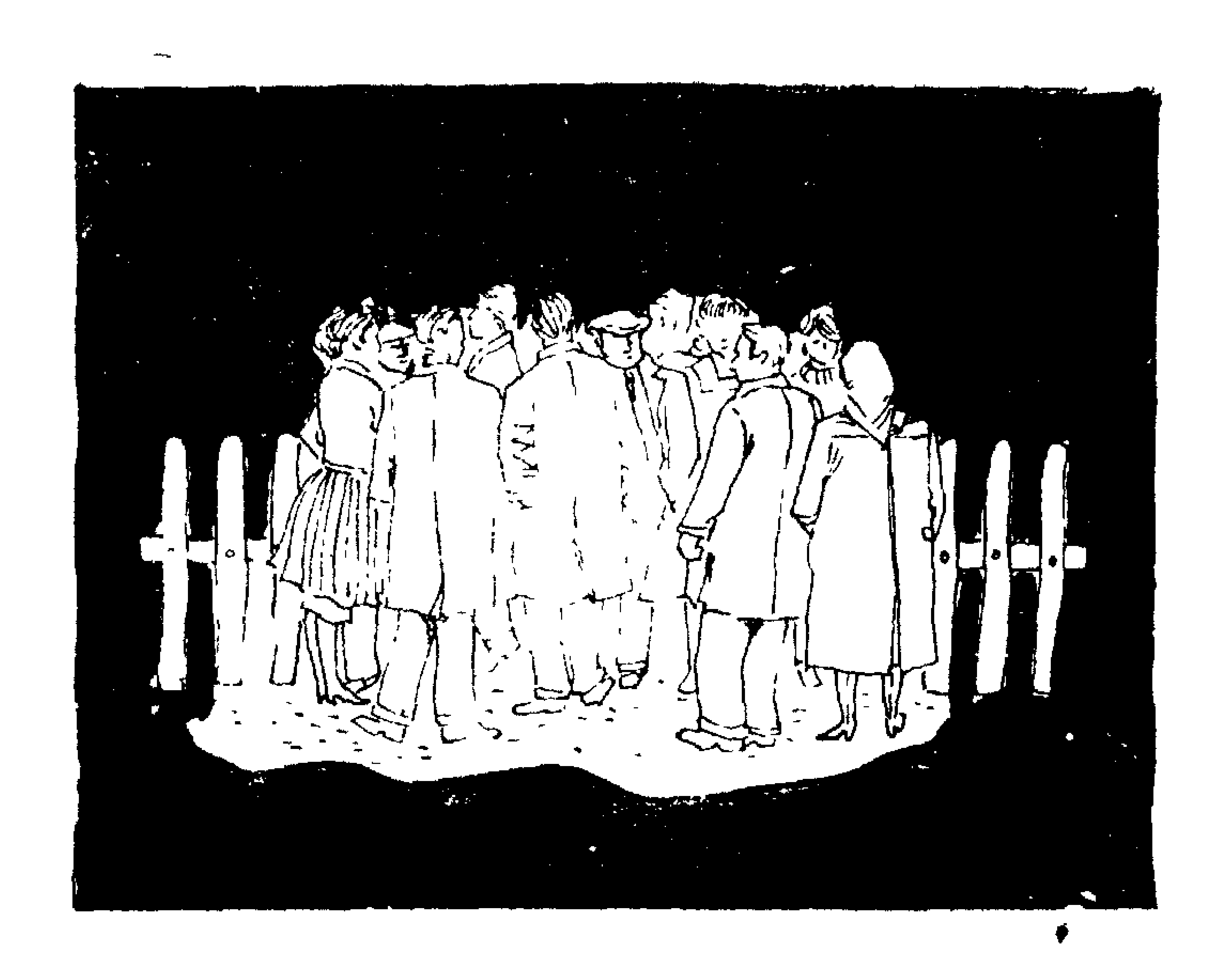
ترجمت أكثر اعمالهما الى العربية والفت عنهما الكتب ويعرفهما المثقفون العرب كل المعرفة ..

بقيت كلمة عن الهوامش .. فقد احتاجت هذه « المختارات » على صغرها الى اكثر من ثلثمائة هامش وتعليق واشارة .. ولكنها مع ذلك لاتفى ولا يمكن ان تفى بالغرض منها . فمازلت اعترف بأن هناك اسماء وأشياء لم أستطع - رغم جهدى الفردى - معرفة مرمى الكاتب منها .. فلعل الترجمة الوافية الكاملة لشو تحتاج ممن هو أولى بها ، لا الى أن يقرأ ويدرس ماكتب شو وماكتبه الناس عن شو بل ان يقرأ ماقرأه شو أيضا وهو شيء مستحيل على شخص بمفرده . وانى اترك هذا النقص لخبراء الموسيقى والمسرح والادب العربى والانجليزى أن يستروه وان يرأبوه . ولا شك انه مما يزيد مكتبتنا العربية الاشتراكية ثراء ان تعاد ترجمة أعمال شو : مسرحيات ومقالات وكتب وكل شيء لا مرة بل مرات .. فاذا نجحت هذه المختارات - على علاتها - فى حث اقلام جديدة متجددة على تناول شو بالترجمة والتعليق والبحث فانها تكون قد حققت اكثر من الغرض منها

دكتور عمر مكاوى

الفصل الأول

- المساواة .
- مشكلة الأرض .
- شو يتحدث عن الفقر .
- الفساد في الدولة .



المســـــاواة

الديموقراطية معناها المساواة ، ولكن ما معنى المساواة ؟ •• واضح أنها لا تعنى أننا سواء كلنـــــــا فى الموهبة السياسية أو ــ والحق يقــال ــ فى أى موهبـــة أخرى : فالطبيعة تقسمنا بقسوة لا ترحم وعناد لا يلين الى خليط مختلط من البشر المختلفين فى الموهبة والقدرة والاستعداد: فيهم نسبة من البلهاء ونسبة من العباقرة • ولكن لما كانت احتياجات هؤلاء الناس الجسدية متساوية ، فمن الممكن تقسيم الطعام والملبس والمأوى بينهم بالتساوى • كمـا أن كلهم ــ على السواء ــ لا غنى عنهم فراش الكابينة مثلا ، على ظهر المركب يحتاج الى قدر اكبر من الطعام ، وملابسه تبلى بسرعة أكبر من أميرال الاسطول الطاعن فى السن : على أننا لو اعطينا كلا منهما دخلا متساويا فسوف تكفل لهما احتياجاتهما لان كلا منهما لا غنى عنه للاسطول على حد سواء ــ وحياتهما المشتركة المتمدنة جزء لا غنى عنه لحياة الامة وتمدنها بل والحق يقال لحياة العالم وتمدنه • ونحن ندفع لامراء الاسطول الذين هم من نفس الرتبة ،

(*) الفصل السـابع من الدليـــل السياسى للجميع طبعـة كونستابل سـنة ١٩٤٥ لندن

مرتبات متساوية سواء كانوا أمراء من طراز بنج (١) أم من طراز نلسون ، وندفع لفراشى الكباين أجورا متساوية أيضا سواء كانوا سراعا خفافا أم بلداء ثقلاء ، وكل المجتمعات المتمدنة تتألف فى الغالب من طبقات من الناس تتساوى كل طبقة فيما بينها فى الاجوروالمرتبات،وتتفاوت هذه من طبقة الى أخرى بحسب المستوى المألوف فىالمعيشة ولا تتفاوت من فرد الى آخر مهما اختلفت شخصيات الافراد ومواهبهم،والواقع اننا لايمكننا تقدير الفروق فىالشخصية وفى الموهبة بحساب النقود : فلا يسع أى شخص مثلا أن يقر الاوضاع التى تتيح لمستر جوزيف لويس (٢) أن يكسب فى خمس عشرة جولة ، مدةكل منها ثلاث دقائق، أكثر مما يكسبه أنيشتين (٣) فى خمسة عشر عاما أو أن يصدق أن ما بذله جو من جهة يفوق ما بذله انيشتين بمائة وثمانين ألف مرة ، لمجرد أنه بطل العالم فى الملاكمة . ويستحيل على أى شخص أن يحدد دخل الاثنين بحسب مزايا كل منهما .. فذلك أشبه بأن يتفرغ شخص لاحدى الاسر ويحسب لها الفرق بالقروش والملاليم بين قيمة القلاية وقيمة الانجيل

وتتحدد أسعار القلايات والاناجيل ، لا على أساس مزاياها بل على أساس التكاليف الحقيقية لانتاج القلايات والاناجيل ، أى لانتاجها فى أسوأ الظروف وأقلها ملاءمة . وعلى هذا نجد أن الاناجيل أرخص من زجاجات البراندى ،

---

(١) J. Byng ١٧٠٤ — ١٧٥٧ اميرال بريطانى أرسل لنجدة الحامية البريطانية فى مينوركا فهزمه الفرنسيون واعتزل وظيفته وحوكم واعدم رميا بالرصاص . وهو على نحو ما نقيض نلسون

(٢) جو لويس بطل العالم فى الملاكمة

(٣) A. Einstein ١٨٧٩ — ١٩٥٥ صاحب النظرية النسبية التى تنهض عليها نظرية انشطار الذرة ويعد أعظم علماء هذا العصر . نال جائزة نوبل سنة ١٩٢١

والبذلات أرخص من خواتم الماس مع أن قيمتها الاستعمالية ـ أى منفعتها ـ أكبر الى حد غير محدود • والحل أن تسيطر الحكومة على الانتاج وتتحكم فيه بحيث تخضعه لنظام الاسبقية : تبدأ أولا فى انتاج الاشياء المرغوب فيها اجتماعيا بحيث لا يتمكن أى انسان من شراء خاتم من الماس فى الوقت الذى يمشى فيه أطفال الامة عراة أو فى خرق مهلهلة، وأن تعمل الحكومة على ألا يدفع المواطنون فى السلع التى يشترونها أكثر من متوسط تكاليف انتاجها • وتلك ذروة عالية من ذرى الاشتراكية أو من المدنية الرفيعة أو من الانسانية العلمية أو أيا ما تكون التسمية التى نختارها لها • وقبل بلوغ هذه الذروة يتعين على الحكومة أن توفر للبلاد فراشين للكباين وأمراء للبحار ، ومن ثم عليها أن تحدد أجورهم ••

وهنا ما أيسر على أى سياسى ديموقراطى أن يقفز الى النتيجة التالية : حيث أن أسعارنا جميعا متساوية لاننا نتساوى جميعا فى تكاليف طعامنا وكسائنا ومأوانا بصورة لائقة مهما اختلفت قدراتنا ومواهبنا ، فالحل البسيط المباشر هو أن نمنح جميعا نفس النصيب المتساوى من الدخل القومى • غير أن هذه النتيجة ستأخذ بتلابيبه ليواجه حقيقة أخرى ثابتة هى أن تكاليف انتاج أمير من أمراء البحر أكبر من تكاليف انتاج فراش الكابينة ، وان كانت احتياجاتهما كبشر متساوية • فلو اننا نزلنا بهما معا الى مستوى أقل التكاليف ، توفر لدينا فائض من فراشى الكباين ولا شىء من أمراء البحر لان تكاليف انتاج العامل بصفته عاملا تختلف باختلاف نوع العامل المطلوب• ففى اليابان تبلغ تكاليف عامل القطن بنسا فى الساعة ، وتبلغ فى لانكشاير عشرين بنسا • وفى روسيا القيصرية

كانت تكاليف انتاج عامل عادى ٢٤ شلنا فى الشهر ، ولدينا فى الكومونولث البريطانى عمال افريقيون سود الوجوه ينتظر منهم المستوطنون حمر الوجوه أن يشكروهم ويسبحوا بحمدهم لانهم وفروا لهم اكواخا يأوون اليها وشرائط نحيلة من الارض يزرعونها حدائق ومنوا عليهم بالرعوية البريطانية وبتعليم مسيحى على أيدى المبشرين وبثمانية شلنات فى الشهر كمصروف جيب

والان اقول انه لا سبيل لتوفير العدد اللازم من المشرعين والقانونيين ورؤساء الاعمال والاداريين والاساتذة الجامعيين والمحامين والاطباء ورجال الدين والفنانين والفلاسفة فى مثل هذه الظروف : فهؤلاء يتكلفون تعليما وتدريبا وتثقيفا وحدا أدنى من المعيشة الخصوصية والدماثة والحس المرهف ، وشيئا من الفراغ ، وعندما انتوت الحكومة السوفييتية فى روسيا منح جميع العمال نصيبا متساويا من الدخل القومى الذى ينتجونه بعملهم ، تبين لها أنهم لا ينتجون ما يكفى لمنح كل منهم ما يزيد كثيرا عن خبز الكفاف الذى كان يكسبه أرخص عامل فى عهد القيصرية . وواجهت أحد أمرين : اما أن تضاعف الدخل القومى بنسبة هائلة بحيث تتمكن من منح كل عامل أجرا يهيىء له معيشة فى مستوى أرباب المهن الفنية المذكورة سابقا، وهو أمر يستحيل تحقيقه فى التو والساعة ، واما أن تستغنى تماما عن أرباب المهن هؤلاء من موظفى الخدمة العامة من المتعلمين وهو بمثابة نزع مسمار الدنجل من عربة النظام الشيوعى ، وبالتالى انهياره وسقوطه فى هوة سحيقة لا أمل له فى الخروج منها . واضطرت الحكومة السوفييتية اذن ، الى طرح شعار المساواة فى الدخل جانبا ، واسقاطه من حسابها مؤقتا ، الى أن يزيد النصيب القومى المعد للتوزيع ويزيد

ويزيد ، حتى يصل الى مستوى نصيب أرباب المهن الفنية • ومن الممكن بلوغ هذا المستوى ، بل ان بلوغه قريب وعلى مرمى البصر • ولكن الى أن يتحقق هذا الهدف ، تكونت فى روسيا السوفييتية طبقة بيروقراطية وطبقة أرباب المهن الفنية ويتمتع أبناء الطبقتين بايرادات ودخول تبلغ عشرة أضعاف ايرادات ودخول الحطابين والسقايين

وما أسرع ما يتبين رجل الدولة الذى يهدف الى تحقيق شعار المساواة فى توزيع الدخل ، أن عليه أولا وقبل كل شيء أن يحدد حدا أقصى للاجور يكفى لصيانة الموهبة الفنية ولا يسمح بتبديد أية عبقرية ادارية بحيث لا ينقص هذه ولا تلك وسيلة من وسائل استثمارها وتنميتها الى أقصى حد ممكن لصالح المجتمع • ولما كان هذا الحد الاقصى للاجور يزيد فى أول الامر عن الرقم الذى توصل اليه عندما قسم جملة الدخل القومى على عدد السكان فى البلاد بالتساوى ـ فقد تعين عليه أن يبقى دخول البيروقراطيين والمهنيين والفنيين عند الحد الاقصى المحدد ، على أن يتحمله الدخل القومى أولا ، وبعدذلك يوزع الباقى بأحسن طريقة ممكنة جاعلا نصب عينيه تحقيق المساواة فى الدخل مع الحرص على استخدام كل خطة فى متناول يده لمضاعفة الدخل القومى ومضاعفته باستمرار وعلى شريطة أن يستخدم كل زيادة جديدة فى الدخل القومى لرفع الحد الادنى للاجور الى المرتبة التى تعلوه ثم الى المرتبة التى تعلوها حتى تتساوى جميع المراتب عند الحد الاقصى المحدد فى أول الامر ـ أى الى أن تتحقق المساواة فى الدخل عمليا ، وان لم يتحقق حسابيا • ذلك أن المساواة الحسابية أو الرقمية فى الدخل ليست هدفا فى حد ذاتها • فقد سبق أن ضاق صدر ستالين بالسياسيين

الذين لم يتعجلوا فقط تطبيق شعار المساواة قبل أن يصبح فى حيز الامكان فحسب ، بل لانهم فشلوا فى أن يتبينوا أن هذه المساواة عندما تتحقق عمليا ، ستكون قد فقدت صفة الاستعجال التى تتصف بها فى الوقت الحاضر • وهكذا ضاق صدر ستالين بهم واحتقرهم ووصفهم بأنهم « تجار مساواة » .

وحتى اذا نحن ألقينا نظرة على المجتمع الرأسمالى ، لرأينا أن هناك مستوى معينا لا تكون فيه للمســـاواة الرقمية أية أهمية • حقا ان الفرق الطبقى بين صــاحب ايراد مائتى جنيه فى السنة أو أقل ، وبين صاحب ايراد ألفى جنيه أو أكثر هو فرق شاسع ، بل هوة ســـحيقة مدمرة ــ لان طبقة أصحاب المائتين تتمتع بعنفوان بدنى هائل وشبق شديد للحياة ، وتتميز بالجد والمثابرة ــ اعتادت عليهما منذ نعومة الاظافر ومع ذلك فالفقر قـــد حرمها من استثمار وتنمية طاقاتها الطبيعية فى مجــال القيادة والموهبة ، أما طبقة أصحاب الالوف فقد أنهكهــا كسلها وتطفلها وحرمها ثراؤها ــ بنفس الدرجــة ــ من التزاوج الصحى مع العمال • هذا مع ملاحظة أنه لاوجود لمثل هذا الحـــرمان من التزاوج أى الحرمان من فرحة اختيار الازواج الصالحين ــ بين طبقة أصحاب الالوف • ويتمتع أبناء طبقــة أصـــحاب الخمسين ألف جنيه فى السنة (أى طبقة المليـــونيرين) بنفس التعليم ونفس التربية ونفس النشأة ، كما أن المستقبل مفتــوح أمامهم على قدم المساواة ، وهم يختلطون ويتزاوجون فيما بينهم على قدم المساواة : فهم منضـــمون الى نفس النـــوادى ويأكلون نفس الطعام ويرتدون نفس الازياء ويقطنـــون نفس الاحياء ونفس الشوارع فى نفس الضواحى العصرية للمدن والعواصم • حقا ، قد يملك بعضهم خمسة بيوت

ولا يملك آخرون سوى بيتين لكل منهم ٠٠ ولكن الواحد منهم لا يمكنه أن يسكن الا فى بيت واحد فى المرة الواحدة ، وهم يتعاملون مع نفس المحامين ونفس الاطباء ويشترون من نفس المحلات • وبالاختصار هم مختلطون متزاوجون فيما بينهم • اذن ، ليست هناك غير مزية تافهة جدا فى أن يكون المرء أغنى من جاره عشر مرات ، ويتضح هذا عندما نرى مليونيرين من أمثال كارنيجى وبييرمونت مورجان وفورد وموريس يتنازلون طوعا عن فائض أموالهم ويؤسسون مراكز ومؤسسات روكفلر وادارات للحجاج وما شاكل ذلك للتخلص من أموالهم التى لا يحتاجون اليها ، وليؤدوا بها عملا صالحا

ان الحلم الذهبى للرجل الفقير هو أن تؤول اليه تركة تبلغ قيمتها عشرين ألف جنيه • ولكن هذه العشرين ألفا تجعل الرجل الغنى يسب ويلعن لانها تثقله بمتاعب المطالبة بها واستثمارها • وعلى هذا فالمجتمع كله ـ عندماينشأ سائر أبنائه ويتربون فى مستوى خمسة آلاف جنيه فى السنة كحد أدنى للدخل ، سوف يحقق ويثبت الاهداف الرئيسية لمبدأ المساواة فى الدخل ، وشعار المساواة فى الدخل • وحتى فى هذه الحالة ، فسيبقى على الحكومة واجب أساسى ، أن تعمل على ألا تنزلق طبقة من الناس أو طائفة من المواطنين مرة أخرى الى هوة الفقر أى الى مستوى أدنى من الحد الادنى المقرر، وهذا لا يستلزم منها أن تمنع أى فرد من أن يصبح أثرى من ذلك ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما دام راغبا فى الثراء ويعتقد أن الثراء يستحق التعب والازعاج ، بل لعل الدولة أن ترى تشجيع مثل هذه المطامح كحافز لزيادة الانتاج • وقد وجد الاتحاد السوفييتى أن من المستحيل زيادة الانتاج، أو حتى المحافظة على مستواه الا بعد تطبيق نظام العمل

بالقطعة وتحديد الاجر على أساس انتاج العمل ، على الرغم من أنف « تجار المساواة »

وعندما تبلغ الاشتراكية الديموقراطية حد الاكتفاء فى أدوات الانتاج ، والمساواة فى الفرصة ، وتوفر امكانية التزاوج الصحى بين جميع أفراد الامة على المستوى القومى — مع الاحتفاظ بالانتاج فى سيره الطبيعى بادئا بالضروريات ومنتهيا بالكماليات ، وتختفى من البلاد أحكام القضاء الظالمة بسبب نشاط مرتزقة المحامين ، فان الاشتراكية الديموقراطية تكون قد أنجزت مهمتها . فتلك هى أهدافها الحقيقية ، وليس من بينها ذلك الهدف الرقمى التجريدى الذى يقصده شعار المساواة المطلقة فى الدخل . عندئذ ستتم تسويةالفوارق الطبقية القائمة فى المجتمع ، فلا تحرم أعظم الامكانيات الفطرية فى الانسان من ضروريات الحياة وأسباب الانطلاق — ولكنها مع ذلك ستبقى محتفظة بطبيعتها الانسانية بكل ما فيها من ابتكار وطموح ومنافسة . بل ان الطبيعة الانسانية ستكون فى أكمل حالاتها ، وسيتوفر لها الرواد الممتازون وفرسان الحلبة الافذاذ كما سيكون فيها أيضاالمتوسطون والتقليديون والمتخلفون نسبيا ، كل فى مكانه الطبيعى ، وكل يأكل ملء بطنه ، ويتعلم ملء طاقته ، ويبلغ أقصى ذروة تحمله اليها استعداداته والجميع قادرون على التزاوج الصحى فيما بينهم بلا حائل او عائق

ان المساواة ، لا يمكن أن تذهب الى أبعد من ذلك

شـو يتحدّث عن الفقر

صورت فى شخصية المليونير آندر شافت رجـــلا بات يدرك بعقله وروحه ، ومن واقع تجربته العملية ايضا تلك الحقيقة الفطرية التى لا يمكن ان تقاوم ، والتى نستبشعها كلنا ونرفضها : الا وهى أن أعظم شرورنا هو الفقر ٠٠وأن اسوأ واخبث جرائمنا هى جريمة الفقر ، وأن أول واجب ينبغى التضحية بكل اعتبار اخر فى سبيله هو اولا وقبل كل شىء ، الا نكون فقراء ٠ « فقراء لكن شرفاء » ،«فقراء محترمون » : يالها من عبارات لا يمكن احتمـــالها او السكوت عليها ! فضلا عن انها منافية للاخلاق الكريمة ٠ انها تشبه تماما أن نقول : هو «سكير لكنه لطيف المعشر» او هو « نصاب لكنه متحدث لبق بعد العشاء » او هو « مجرم رائع فى اجرامه » أو ما الى ذلك من العبارات٠ان اهم شيئين زعمت الحضارة انها وفرتهما وهيأتهما للناس هما الامن والطمأنينة ولا يمكن أن يتوافر أمن أوطمأنينةفى ظل اسوأ الاخطار على الاطلاق : خطر الفقر ، عندمايتسلط

(*) من مقدمة مسرحية « ميجور باربارا » بعنوان انجيل آندر شافت طبعة بنجوين سنة ١٩٦٠ ـ ترجمت المسرحيـــة فى بيروت ، وعرضـــت فى البرنامج الثانى للاذاعة العربية ولكن النص لم ينشر مطبوعا »

على رأس كل انسان، وحيث لا تعد الحماية المزعومة التي توفرها الحضارة لنا ولاشخاصنا من اعمال العنف والعدوان ، الا نتيجة عرضية لوجود قوة بوليسية مدججة بالسلاح ، بينما المهمة الحقيقية الملقاة على عاتق هذه القوة ليست الا ارغام الرجل الفقير على أن يبقى ناظرا الى اطفاله الصغار وهم يتضاغون من الجوع ، وناظرا فى الوقت نفسه الى الكسالى العاطلين وهم يتخمون كلابهم المدللة بطعام قد يطعم اطفاله من جوعهم وينفقون عليها أموالا قد يكسوهم من عرى

والعجيب ان من اشق الامور على الاطلاق ، أن تحمل الناس على أن يدركوا أن الشر شر • مثال ذلك أن نلقى القبض على أحد الرجال ، فنوقع عليه عامدين متعمدين ، جزاء منكرا وضررا بالغا بالزج به فى السجن سنوات مثلا والمفروض أن هذا الضرر البالغ المتعمد يعد من قبيل القسوة الشيطانية وان الاعتراف بذلك لا يحتاج الى درجة غير عادية من جلاء الذهن ووضوح الرؤية • ولكننا فى انجلترا نلاحظ ان مثل هذا الاعتراف البديهى ، يثير حملقة الدهشة والاستغراب يتلوها تبرير بان الضرر الذى أوقعناه بالرجل ، انما هو جزاء وفاق او حكم عادل او اى شيء اخر لا غبار عليه ، وقد تتلو هذا التبرير محاولة حماسية للادعاء باننا اذا لم نرتكب يوميا أمثال هذه الافعال الضارة الغبية بمن نسميهم لصوصا ومجرمين ، اى بتوقيع احكام السجن والحبس عليهم ، فسوف نسلب وننهب ونذبح ذبحا فى مضاجعنا ونحن نيام • وحتى لو كان هذا صحيحا ــ وهو ليس بصحيح ــ فلا فائدة من انكار اننا باستبدال جرائم نرتكبها نحن بجرائم نعانى منها ، انما تستسلم للاهر الواقع ونعترف على انفسنا بالعجز وقلة الحيلة

ومثال آخر : مرض الجدرى شر منكر ، ولـــكن اذا قلت اننا بازاء مرض الجدرى مخيرون بين أحـــد امرين أحلاهما مر : اما ان نخضع ونستسلم للمرض واما ان نقضى عليه بحزم ، وذلك بالقاء القبض على جميع المصابين بالمرض ومعاقبتهم بالتطعيم الواقى منه ، اذا قلت هذا ضحك الناس منى ، لانه لا يوجد من يستطيع ان ينكر ان النتيجة ستكون وقف انتشار الجدرى الى حد ما لاننى حملت الناس على تجنبه بزيادة عنايتهم بانفســـهم وبمن حولهم ، وستزداد ايضا نسبة الوقاية الظـــاهرية من المرض لاننى ارغمت الناس على اخفائه بلهفة شديدة خوفا من العقاب . ومع ذلك فسوف يتوفر لدى الناس ـ يوما ما ـ من الحكمة والبصيرة ما يجعلهم يدركـــون ان نشر الجديرى عن عمد عن طريق التطعيم ـ هو عمـــل شرير ومنكر ينبغى صرف النظر عنه والبحث عن غـــيره من الاجراءات الصحية ذات الطابع الانسانى الخالص (١) .

والحالة التى تقابل هذه ، حالة الرجل يقتحم على بيتى ويسرق مأسات زوجتى : المنتظر منى بداهة ، ان اسرق من عمره عشر سنوات وأن اذيقه طوال هذه السنوات العشر صنوف العذاب . فاذا حاول الرجل ان يفلت من انتقامى البشع باطلاق الرصاص على ، شنقه خلفائى من بعدى . وخلاصة النتائج التى توحى بها احصـــائيات البوليس تشير الى اننا نوقع اشنع الاضرار باللصـــوص الذين نقبض عليهم لا لشىء الا لندفع بقيتهم الى اتخـــاذ كافة الاحتياطات الفعالة حتى لا ينكشف امرهم ويقعوا فى

---

(١) ينقد شو هنا بالتطعيم الاجبارى ومضاره المحتملة على اســـاس انه عدوان غاشم على حرية الانسان لانه كان من كبار أنصار الرفق بالانسان وبالحيوان ومن كبار خصوم لتشريح الكائنات الحية . وله فى مقدمة مسرحية « حيرة الطبيب » الفصول الضافية عن ذلك

ايدينا ، وهكذا بدلا من انقاذ ماسات زوجاتنا ، اذا بنا ننقص كثيرا احتمالات استردادها هذا اذا كنا سنستردها على الاطلاق ، ونزيد احتمالات اطلاق الرصاص علينا اذا دفعنا حظنا العاثر لازعاج اللص اثناء تأدية عمله

ما اكثر ما نبعثر احكام السجن والتعـذيب بالحبس الانفرادى وعلى السرير الخشبى (١) ،وبالجلد،ذاتاليمين وذات الشمال فى نزق اجرامى على المرضى المصابين بعجز خلقى او بنشاط عصيانى . ولكن هذا النزق الاجرامى ليس شيئا اذا قيس بالسفاهة التى نحتمل بها الفقـر ونصبر عليه ونطيق وجوده بيننا كما لو كان الفقر دواء صحيا مقويا للكسالى ، او فضيلة ينبغى التحلى بها كما كان يتحلى بها القديس فرانسيس (٢) ، اذا كان الرجل بليدا ، فليبق فقيرا ، واذا كان سكيرا فليبق فقيرا واذا لم يكن جنتلمانا فليبق فقيرا ، واذا كان يتعاطى الفنون الجميلة او العلوم البحتة بدلا من تعاطى التجارة والمال فليبق فقيرا ، واذا اختار ان ينفق شلناته الثمانية عشرة التى يكسبها فى المدينة كل اسبوع او شلناته الثلاثـة عشرة التى يكسبها فى الريف كل أسبوع ، على بيرتـه واسرته بدلا من ادخارها لشيخوخته ، فليبق فقـيرا . الشخص الذى لا يستحق ، لا يأخذ شيئا ، وليبق فقيرا ان الفقر جزاؤه العادل ، وهنا يمكن القول ايضا ـ وان خرج الكلام عن الموضوع الى حد ما ـ طوبى للفقراء !

والان ، لننظر فى عبارة «فليبق فقيرا» وماذا تعنى . ان معناها ان يبقى الرجل ضعيفا ، وان يبقى جاهلا وان يبقى نواة للامراض وبؤرة للاوبئة ، معناها ان يبقى معرضـا

---

(١) يقابله « البرش » فى سجوننا

(٢) القـديس المتقشف مؤسس مذهب الفرنسسكان

قائما لا تغلق ابوابه ، للقذارة والدمامة ، معناها أن يبقى اطفاله مرضى بالكساح من سوء التغذية وان يبقى هو لئيما دنيئا رخيصا يجر وراءه رفاقه فى الفقر الى مستواه اللئيم الدنىء ، ببيع نفسه بثمن بخس ليخطف منهم عملهم ويؤديه بدلا منهم ، معناها ان تبقى بيوته عششا من الصفيح تحول مدائننا الى اكوام مسمومة من القمامة الكريهة ، معناها أن تبقى بناته مريضات بأمراض الشوارع يعدين بها شبابنا ، وان يبقى ابناؤه موغرة صدورهم لينتقموا من الامة كلها بتحويل رجالها الى خنازير وضعاء وقساة ومنافقين وبلهاء ومرضى بالعقم السياسى أى يجنون كافة الثمار الاخرى الوبيلة للاضطهاد والظلم وسوء التغذية ، معناها ان يبقى « الذى لا يستحق » لكى يصبح اقل استحقاقا ، وان يبقى المستحق ليكدس لنفسه لا كنوزا فى الجنة بل فظائع وأهوالا فى جهنم على ظهر هذه الارض . فاذا كان الامر كذلك ، فهل من الحكمة والعقل حقا ، ان يبقى انسان ، انسان واحد فقيرا ؟ ولو كان الانسان لصا ناجحا او مقتحما للبيوت او منتهكا للحرمات او قاتلا سفاكا الى اقصى الحدود التى تسعها بواعثه الانسانية ـ وهى حدود مهما تراءت فلا قيمة لها نسبيا فى هذه الاتجاهات ـ الا يكون اذاه وضرره اقل من ذلك بعشر مرات ؟ لنفرض اننا الغينا جميع العقوبات المفروضة على مثل هذه الجرائم ، وقررنا اعتبار الفقر كبيرة الكبائر ، والجريمة الوحيدة التى لا نطيق وجودها بيننا ، ثم قررنا قتل كل شخص بالغ يقل دخله السنوى مثلا عن ٣٦٥ جنيها قتلا هادئا بلا ألم ولكن بلا تردد ، وقررنا تغذية وتسمين وكساء وعلاج كل طفل جائع نصف عارى بالقوة الجبرية، الا يعتبر هذا خطوة جبارة نحو تحسين وتقدم نظامنا

القائم الذى ذمر حتى الان هذا العدد العديد من الحضارات والمدنيات ، ويقوم الان كما هو واضح ـ بتدمير حضارتنا هذه بنفس الطريقة وبنفس الاسلوب ؟

ترى هل هناك اصول لمثل هذا التشريع فى نظامنا البرلمانى الحالى ؟ اقول ان هناك تشريعين من هذا القبيل يمدان جذورهما فى التربة السياسية وقد ينموان ويستويان بشكل ظاهر الى شىء له قيمة : احدهما تشريع قانونى ينص على وضع حد ادنى للاجور والاخر خاص بمعاشات الشيخوخة · ولكن هناك خطة افضل من الاثنين واحسن : منذ وقت مضى ، ذكرت موضوع معاشات الشيخوخة وضرورة التوسع فيها حتى تشمل الجميع بلا استثناء ، أمام احد زملائى الاشتراكيين هوكوبدن ـ ساندرسون الفنان الشهير فى فن تجليد الكتب والطباعة قال كوبدن ـ ساندرسون : « ولماذا لا تكون المعاشات للجميع وطول العمر ؟ » وهكذا بضربة معلم واحدة ، وضع الحل للمشكلة الصناعية كلها · نحن فى وقتنا هذا نقول للمواطن بصراحة فظة : « اذا اردت الحصول على مال ، فاذهب واكتسبه · » كأن الحصول على المال او عدم الحصول عليه مسألة خاصة به وتعنيه وحده بينما لا نقدم له اية ضمانات حتى ولا فرصة اكتساب المال : على العكس نحن قد نظمنا صناعتنا بطريقة جعلناها تعتمد اعتمادا مكشوفا ومفضوحا على جيش احتياطى من العمال المتعطلين ، ليكفلوا لسوق العمل « المرونة اللازمة » ان طريق العقل والحكمة ينبغى ان يكون طريق كوبدن ـ ساندرسون : اى ان نعطى كل رجل ما يكفيه ليعيش عيشة طيبة من اجل تأمين المجتمع ضد أى أحتمال لظهور حالة واحدة مصابة بذلك المرض الخبيث ـ مرض الفقر ، ومن ثم نضمن لكل رجل

بالضرورة أن يكسب ما يكفيه

اما اندر شافت ـ بطل مسرحية ميجور باربارا ـ فهو ببساطة انسان عرف حقيقة الفقر وادرك انه كبيرة الكبائر وجريمة الجرائم ، وعرف بعد ذلك عن يقين ، أن المجتمع قد خيره بين أحد أمرين : اما ان تبتليه بالفقر ، واما أن يمارس تجارة مربحة فى أدوات الموت والدمار . وعلى الفور ، فطن اندرشافت الى ان المجتمع فى الواقع لم يخيره بين ممارسة رذيلة مربحة مدرة للمال ، وبين التخلق بفضيلة التواضع والقناعة ، بل جعله يختار بين عمل تجارى مزدهر ، وعار يضع صاحبه فى صفوف الجبناء . وهكذا سلك اندرشافت سلوكا يصمد بجدارة للاختبار « الكانتى » (١) ، الذى لم يصمد له سلوك بيتر شيرلى (٢) ، الذى هو من نطلق عليه اسم الفقير الشريف . أما اندرشافت فهو ما نسميه الغنى الوغد . شيرلى هو عازر واندرشافت هو دايفز (٣)

ومهما قيل من قول ، فان ما فى العالم من شقاء انما يرجع الى ان الاكثرية الساحقة من الناس يفعلون مثلما يفعل بيتر شيرلى «عازر» ويؤمنون بما يؤمن به . ولو أنهم فعلوا مثلما يفعل اندرشافت «دايفز» وآمنوا بما يؤمن به ، لاندلعت ثورة انسانية خيرة ، لا يمكن تقدير مدى ما تنطوى عليه من خير . فيقول اندرشافت انسعى المرء وراء الثراء ، هو عندى مسألة شرف ، وانا على استعداد للقتل فى سبيلها وللمخاطرة بحياتى نفسها من اجلها . هذا الاستعداد لان تقتل وتقتل « يا قاتل يا

---

(١) سيوضح شو كنه هذا الاختبار فى موضع تال من المقال

(٢) الشخصية المثالية فى المسرحية : الفقير الشريف

(٣) Lazavus and Dives شخصيتان فى انجيل لوقا الاصحاح ١٥ يمثلان الشحاذ والغنى

مقتول » كما يقول اندرشافت ، هو الاختبار النهائي للاخلاص • ان اندرشافت هو من طراز فراوسارت (١) مؤرخ القرون الوسطى الذى كان يرى فى حياة السلب والنهب حياة طيبة بل هى النموذج الامثل للحياة الطيبة ، ولم تتخدر أوصاله بمشاعر الجمهور التى تستنكر القتل والنهب ، لان هذه المشاعر يغذيها ويحملها اناس قد يقتلون هم اذا لم يقتلوا ، ولا يخدعون بالمديح الزائف الذى يكيله الاغنياء للفقراء وقناعة الفقراء لانه مديح لا يتجاوز اطراف الالسنة ، فهم الاغنياء الذين يمتدحون الفقر وهم العصاة الذين يستحثون الفقراء على طاعة اولى الامر ، وهم العاطلون الطفيليون الذين يسرقون الفقراء بدون شجاعة ، ويأمرونهم بدون تفوق • لقد وضع فراوسارت نصب عينيه أن يحيا حياة طيبة ، وجعل ذلك واجبه الاول الذى يأتى قبل الواجبات الاخرى جميعا والتى هى فى رأيه ليست واجبات على الاطلاق بل شرور محضة اذا ما تعارضت مع هدف بلوغ الحياة الطيبة • وهو عندما فعل ذلك ، كان سلوكه يتسم بالشجاعة ويستحق الاعجاب ، فاذا ما حللناه التحليل النهائى ، أمكن اعتباره سلوكا انسانيا مشربا بحب المجموع ومتفقا مع الصالح العام • أما مجتمع العصور الوسطى فكان من الناحية الاخرى يسلك سلوكا سيئا بالغ السوء عندما نظم اموره بهذا الغباء الشديد أى عندما جعل من الممكن فراغ الحياة الطيبة عن طريق السطو والسلب والنهب • ولو كان جميع معاصرى الفارس يتمتعون بما كان يتمتع به من شجاعة وحزم وارادة قوية ، لكان طريق السطو والسلب والنهب هو اقصر طريق الى حبل المشنقة • وهذا ينطبق

(١) J. Froissrt ١٣٣٧ ـ ١٤٠٥ الكاتب الفرنسى الذى سجل أحداث وأحوال أوروبا فى القرن الرابع عشر فى يومياته Chronique

غلينا تماماً فى وقتنا الحاضر : فلو كنا نتمتع بما يتمتع به اندرشافت من شجاعة وحزم ووضـــوح فى الرؤية لكانت أية محــاولة يبــذلها اى شخص للعيش مما يسمى « الايراد المستقل » هى اقصر الطـــرق الى غرفة الاعدام • ولكن شكرا لبلاهتنا السياسية وجبننـــا الشخصى « وكلتا الخصلتين من ثمرات الفقر الوبيلـــة ، ان قضت تقاليدنا المثلى بان اول شرط للحياة الطيبة ، هو ان يكون للانسان « ايراد مستقل » يعيش منه دون ان يعمل • ومن ثم يهدف جميع العقلاء الى أن يكون لهم مثل هذا « الايراد المستقل » حريصين بالطبع على اضـــفاء الصفة الشرعية والاخلاقية والقانونية عليه ، وعلى سائر التصرفات والافعال التى تؤدى اليه ، والمشـــاعر والاحاسيس والافعال التى تدور حوله ، حريصين على مساندته والدفاع عنه باعتباره احد الدعائم الاسـاسية التى نهض عليها بناء المجتمع • والا ، فماذا يمكنهم ان يفعلوا غير ذلك ؟ انهم يعرفون بالطبع انهم لم يصبحوا ولم يكونوا اغنياء الا لان الاخرين فقراء • ولكن لا حيلة لهم فى الامر : فالواجب على الفقراء أن يرفضوا الفقـــر عندما يكرعون منه كفايتهم • وفى وسعهم ان يرفضوه بسهولة : أما مظاهرات الدعاية القائلة بغير ذلك ، والتى يشنها الاقتصاديون والقانونيون والاخلاقيون والمتبعـــون أهواءهم من الذين استأجرهم الاغنياء للدفاع عنهم او من الذين يتبرعون بها مجانا بدافع من سفاهة مجردة او دناءة صرفة ، هذه المظاهرات لا تنطلى الا على الذين يريدون أن تنطلى عليهم ، ولا تخدع الا الذين يلذ لهم أن يخدعوا

ثم ان طبقة اصحاب « الايراد المستقل » ليست بالطبقة المتماسكة الثابتة فى الدفاع عن قواعدها • وسـبب ذلك اننا لسنا عصابات من قطاع الطرق كالتى كانت تسرح

وتمرح فى العصور الوسطى فى بقاع شبه خالية يقطنها سكان متفرقون • فان الفقراء الذين ننهبهم ونسطو عليهم كثيرون منتشرون ، وفقرهم منتشر كالوباء يحول بيننا وبين الحياة الطيبة التى نضحى بهم من أجلها • فنجـــد اغنياء وارستقراطيين يتمتعون بادراك متطور للحياة ، رجالا من أمثال راســـكين (١) ، ووليم موريس (٢) ، وكروبوتكين (٣) ولديهم شهية اجتمـاعية هائلة وآمال شخصية من العسير اشباعها ، فهم لا يقنعون بمنـــازل جميلة يسكنونها ، بل يريدون مدنا جميلة ، ولا يرضيهم أن تتحلى زوجاتهم بالماسات والجواهر وأن تكون لهم بنات يانعات كالزهر ، بل يشكون مر الشكوى لان الخادمة ليست مهندمة الثياب ، ولان الغسالة تفوح منها رائحة الخمر ، والخياطة مصابة بالانيميا ، ولان كل رجـــل يلقونه ليس صديقا ، بل كل امرأة ليست بطلة فى قصة غرامية • انهم يشمخون بأنوفهم اشمئزازا من مجـــارى الجيران العطنة ، وتجيش نفوسهم بغضا لهندسة البيوت المجاورة لبيوتهم ، ولا تسرهم النماذج التجارية التى صممت لترضى أذواق الاجلاف «ولا يسعهم هم أن يحصلوا على غيرها » ، ولا يستطيعون النوم أو الجلوس فى راحة على أثاث خرطه النجارون كما لو كانوا قد ذبحوه ذبحا ، الهواء نفسه لا يطيب لهم تماما ففيـــه الكثير من دخان المصانع ، ثم انهم يطالبون بعد ذلك ، بأشياء تجريدية

(١) J. Raskin ١٨١٩ ـ ١٩٠٠ كاتب وناقد بريطانى تقدمى

(٢) W. Morris ١٨٣٤ ـ ١٨٩٦ شاعر انجليزى ورجل اعمـــال ناجح • واشتراكى ومصلح اجتماعى له شأن • وان كان شـــو يدرجه تجاوزا ـ فى صفوف الشيوعيين « انظر الفصل الثانى »

(٣) Prince. P. Kropotkin ١٨٤٢ ـ ١٩٢١ الامير الروسى والزعيم الفوضوى الكبير • آراؤه الفوضوية أمعن فى التطرف من « تجار المساواة » الاشتراكيين

كالعدالة والشرف والوسط الاخلاقى النبيل ، وأن تجمع الناس علاقة صوفية بدلا من علاقة الدرهم والدينار • ثم يعلنون فى نهاية المطاف أنك اذا سطوت وسلبت ونهبت بيديك وعلى صهوة جوادك وأنت لابس زردك الحديدى ، فقد تعتبر حياتك فى وقت من الاوقات حياة طيبة ، أما السطو والسلب والنهب بأيدى رجل البوليس والمدعى العمومى والجندى ، ونقدهم على ذلك أجرا شحيحا ، فليس من الحياة الطيبة فى شىء ، بل انه ليقضى على كل امكانية لاية حياة يحتملها أو يتسع لها صدر انسان • ثم انهم يهيبون بالفقراء أن يثوروا، وما أن يتبينوا أن الفقراء قد فوجئوا بل صدموا بدعوتهم هذه التى تنبو عنها أخلاق « الجنتلمان » ، حتى انقلبوا على الفقراء ، ونفضوا ايديهم يائسين من البروليتاريا ، وانهالوا عليها ينتهرونها ويعيبون عليها قناعتها المعينة الملعونة (Verdammté Bedurfnislosig Keit)

غير ان هجومهم على المجتمع على هذا النحو ، ظل على اية حال يفتقر الى الوضوح ، لان الفقراء لا يشاطرونهم اذواقهم ولا يفهمون شيئا من انتقاداتهم للفن ، ولا يريد الفقراء الحياة البسيطة ولا الحياة الحافلة بألوان الجمال، بل على العكس يريدون ان يتمرغوا فى كل الوان المباذل الباهظة النفقات مما تزور عنه فى غضاضة نفوس النخبة المثقفة من الاغنياء • وشفاء الفقراء من تكالبهم على الحلوى الرخيصة غير الصحية لا يكون بالتقشف والتعفف بل بالتخمة والاكتظاظ ، فما يمقته الفقراء ويخجلون منه من صميم قلوبهم ، هو الفقر والحرمان • ومن الحماقة ان تطلب منهم أن يتشاجروا على الفرق بين عدد عيد الميلاد الممتاز من مجلة لندن نيوز المصورة وبين كلمسكوت

تشوسر ، فهم يفضلون النيوز : كما أن الفرق بين ملبس سمسار البورصة المؤلف من قميص رخيص رث وياقة منشاة ، وبين ملبس وليم موريس المؤلف من قميص غالى الثمن مصبوغ باللون الازرق بعناية فائقة ، هو فى نظرهم فرق مخجل وشائن ومزر بموريس • واذا ما نشب بينهم نزاع بهذا الشأن على الاطلاق ، فانهم يقفون مدافعين عن الياقة المنشاة وقميصها ولابسها • والشعار الذى يرفعه الارستقراطيون شعار : « اطرحوا عنكم نيركم ايها العبيد، لكى تصبحوا دجالين » ليس بالشعار الذى يستنفر الناس لحمل السلاح ، ولن يكون احسن حالا لو استبدل بالدجالين كلمة القديسين • فكلتا الكلمتين تعنيان رجالا عباقرة ، والرجل العادى لا يريد ان يحيا حياة العبقرى ، بل يفضل أن يحيا حياة «الكولى» (١) البسيط اذا لم يكن بد من الاختيار بينهما • أما ما يريده الرجل العادى فعلا ، فهو المزيد من النقود • ومهما التبست عليه الامور فهو أمام الرغبة فى مزيد من النقود ، يقف واضح الرؤية غير ملتبس عليه • قد لا يفضل او يفضل مسرحية ميجور باربارا على تمثيليات درورى لين الصامتة ، ولكنه يفضل دائما وفى كل الاوقات ، خمسمائة جنيه على خمسمائة شلن ••

والآن ، اذا أخذنا نستنكر تفضيله هذا للمال على ما عداه ، واعتبرناه لؤما فيه وانحطاطا ، وعلمنا تلاميذنا أن الرغبة فى جمع المال اثم مبين وكبيرة من الكبائر ،فكأننا نتحمل ونحمل الآخرين معنا أكبر مسئولية فى الافتراء والكذب والنفاق • ان اهتمام عامة الناس بالمال وجمع

---

(١) Cooly لفظة يطلقها المستعمرون على المواطن من أبناء المستعمرات الذى يقوم بأخطر الاعمال نظير لقمة العيش

المال هو احدى الحقائق الساطعة التي يرجى من ورائها الخير في حضارتنا الراهنة ، واحدى النواحي السليمة في ضميرنا الاجتماعي . المال هو أهم شيء في الدنيا ، انه يمثل الصحة والقوة والشرف والسخاء والجمال كما يمثل الحرمان من المال ، المرض والضعف والعار والشح والدمامة تماما وبنفس الدرجة من الوضوح والتأكيد . وليست أقل مزايا المال ولا أهون فضائله أنه يقطع دابر سفلة الناس ويستأصل شأفتهم ، بقدر ما يعزز جانب الشرفاء ويزيدهم شرفا . ان المال لا يصبح لعنة الا عندما يرخص عند بعض الناس الى شيء تافه لا قيمة له ، ويغلو عند اخرين الى شيء يستحيل عليهم الحصول عليه ، وبالاختصار لا يصبح المال لعنة الا في الظروف الاجتماعية الغبية التي تصبح فيها الحياة نفسها لعنة ، لان الاثنين معاً : المال والحياة لا انفصام بينهما . المال هو العدادالذى يجعل عملية « توزيع » الحياة ممكنة ، بل انه الحياة نفسها كما أن الجنيهات وأوراق النقد هي الاموال ، واول واجب على كل مواطن ، أن يصر على الحصول على المال بشروط معقولة ، وهذا لا يتفق مع الحاصل الآن : فنحن نعطي للرجل ثلاثة شلنات مقابل كده وكدحه عشر أو اثنتي عشرة ساعة ، ونعطي رجلا آخر الفا من الجنيهات بلا مقابل . ان حاجة الامة الصارخة ، ليست الى أخلاق أفضل أو الى خبز أرخص أو الى العفة او الى الحرية او الى توبة الاخوات الساقطات والاخوان الساقطين ، ولا الى بركة المولى تعالى والى روح المحبة والاخوة الروح الثالوث المقدس .. لا . ان حاجة الامةهي بكل بساطة : الى القدر الكافي من المال . والشر والاثم والرذيلة التي ينبغي تشديد النكير عليها ليست الفاحشة أو الجشع أو الطمع أو خزعبلات رجال الدين الكهنوتية

أو ألاعيب الملوك السياسية والديماجوجية أو الاحتكار أو الجهل أو الخمر أو الحرب أو الطاعون او اى شىء مما يعتبره المصلحون كبش الفداء .. لا . ان ما ينبغى على الامة أن تشدد النكير عليه بكل بساطة :الفقر

رجع بصرك كرة واحدة بين أطراف الارض ، ثم لتثبته على هذه الحقيقة الواحدة الواقعة تحت أنفك مباشرة ، وعندئذ من تحيرك اراء آندرشافت أقل حيرة فيما عدا احساسه الدائم بأنه لا يزيد عن كونه أداة فى قبضة قوة الحياة التى تستخدمه لتحقيق أغراض أوسع وارحب من أغراضه هو . فاذا حيرك هذا منه ، فحيرتك ترجع الى أنك تمشى فى ظلمات داروينية زائفة (١) ، أو أنك تهيم فى دياجير الغباء المجرد . ان جميع المتدينين ــ بشرط أن يكون تدينهم تدينا حقيقيا ونقيا ــ لديهم هذا الاحساس نفسه الذى يحس به آندرشافت . وهم يفهمون ويعذرون آندرشافت المتصوف ، وكذلك من الطبيعى بل من المحتوم أن يفهم آندرشافت ويقدر موقف واراء ابنته العضو فى جيش الخلاص هى وحبيبها الجمهورى تلميذ يوروبيدس . وعلى أية حال ليس هذا بالجديد على خشبة المسرح : ان الجديد فى المسرحية ــ على حسب علمى ــ هو ورود آية معينة فى انجيل آندر شافت تنص على أن المال هو أول شىء يحتاجه الانسان ، وعلى أن الفقر هو أخس خطيئة يرتكبها الانسان والمجتمع

وبطبيعة الحال ، لم أتوصل الى هذا المفهوم الدرامى هكذا فجأة وبلا تمهيد ، ولا أنا استعرته من نيتشه أو من اى انسان مولود وراء القنال الانجليزى . لقد ظل صمويل

---

(١) يقصد الايمان بمبدأ الانتخاب الطبيعى والبقاء للاصلح وهو ما يرفضه شو « انظر فصل شو وداروين »

بطلر (١) الذى يعد فى دائرة اختصـــاصه ، أعظم كاتب انجليزى ظهر فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ظل فى ثبات ومثابرة ينفث فى الدين روح الاسقف لود(٢) الذمية وما فيها من وجدان حى وما تدعو اليه من تأكيد فضيلة الاهتمام الدائم الجاد بالمال وقيمة المال . ومما يكاد يدفع المرء الى اليأس من الادب الانجليزى أن يرى تلك الدراسة الفذة للحياة الانجليزية فى رواية « طريق كل البشر » التى نشرت بعد وفاته ، لم تترك فينـــا الا أثرا ضئيلا .. ضئيلا لدرجة أننى عندما قمت بعد بضع سنين بوضع تمثيليات فيها من آراء وأفكار صمويل بطلر الحرة نصيب واضح ، وهى أفكار ذات بصيرة نافذة الى أعمـاق المستقبل ، لم أقابل الا بلفظ مبهم وضجة غامضة عن صلة هذه الافكار بابسن ونيتشه ، وأكاد أحمد الله أنهم لم يقولوا شيئا عن صلتها بألفرد دى موسيه(٣) وجورج صاند(٤) .

---

(١) Samuel Butler ١٨٣٥ ــ ١٩٠٢ احد كبار الروائيين الانجليز فى القرن التاسع عشر . أهم أعماله Way of all flesh طريق كل البشر « ترجمت » ، Erehwon وهى مقلوب كلمة No where وفيها ينقد القيم الاجتماعية المعاصرة وخاصة علاقات الاباء بالابناء

(٢) Bishop W. Load مولود فى ١٥٧٣ بانجلترا وكان كبير أساقفه كنتربرى ومصلحا دينيا وبعد ثورة كرومويل البرلمانية البورجوازية حوكم وقطعت رأسه فى برج لندن

(٣) Alfred de Muset ١٨١٠ ــ ١٨٥٧ الشاعر والـكاتب المسرحى الفرنسى . أحـــد كتاب الدراما الرومانسيين . والرومانسية هى اشد ما أعلن شو عليه الحرب فى نقده الادبى . أهم مسرحياته Un caprice ؛ Le chandelier

(٤) Aurore Qupin أو جورج صاند ١٨٠٤ ــ ١٨٧٦ الكاتبة الفرنسية الرومانسية التى انتحلت اسم رجل . اهم رواياتهـــا : Lelia Valentine Indiana وقد اتهمت بالانحراف الجنسى والدعوة الى حـــرية الحب . من عشاقها موسيه وشوبان

الواقع أن الانجليز لا يستحقون أن يكون لهم رجال عظماء. فهم يتركون بطلر يموت مجهول الاسم تقريبا ، بينما يقودهم شخص مثلي ـ أنا الايرلندي الذي لا وزن له اذا قورن ببطلر ـ من خطامهم حتى يذيع أسمي وصيتي ، ويعلن عني في كل مكان لدرجة أن أصبحت حياتي نفسها عبئا علي ـ وفي صقلية شارع اسمه فياصمويل بطلر • وعندما تقع عليه عين السائح الانجليزي فهو اما أن يتساءل قائلا : من يكون صمويل بطلر هذا بحق الشيطان ؟ •• فاذا كان أكثر علما ، تعجب عن الدافع الذي حدا بالصقليين أن يخلدوا ذكرى مؤلف هوديبراس (١)

على أية حال ، المرء لا يمكن أن ينكر تلهف الانجليز على الاعتراف بالعبقري بشرط أن يتكرم شخص ما ، ويكتشفه لهم ويعرفهم به • ومادمت قد اكتشفت لهم نفسي ، وعرفتهم بها ، واصبت بذلك شيئا من النجاح فهانذا أقدم لهم صمويل بطلر واثقا من أن الاقاويل التي سنسمعها سواء عن الجدة والابتكار أوعن الاصل الاجنبي الذي استقيت منه الافكار التي تتخذ سبيلها الان الى المسرح الانجليزي فيما يكتبه الكتاب الاشتراكيون من مسرحيات ، سوف تقل وتقل بالتدريج ، في المستقبل • ان بين ظهرانينا كتابا احياء لهم ما كان لبطلر من اصالة وقوة وابتكار ، ولكن لا تكتشف تلك الحقائق عنهم الا بعد ما يموتون • والى أن يحين حينهم أتوجه اليهم بهذه النصيحة : أن يزدادوا استمساكا بمزاياهم ، وأن يعتبروا ذلك جزءا لا يتجزأ من صميم عملهم

---

(١) Hudibras رواية شعرية هزلية على نسق دون كيشوت • وهي من تاليف صمويل بطلر آخر • عاش ما بين ١٦١٢ ـ ١٦٨٠

مشكلة الأرض

ترى ما رأى أهل المدن فى مشكلة الارض الزراعية اذا ما احتكموا الى المنطق والعقل السـليم ؟ يتلخص رأيهـم فى المشكلة ، فى أن الفـلاح يجب أن يملك الارض التى يفلحها : فاذا لم تكن الارض ارضه ، واذا لم يكن له أن يصد عنها الواغلين والقانون من ورائه يحميـــه ، فكيف يطمئن الى أنه سيضع يده على محصوله ويستهلكه ؟ اذن فلنسمح له من كل بد أن يملك قطعة أرضه ، وأن يصد عنها الواغلين – وفى هذه الحالة يروج الفلاحـــون كل بحسب جهده واجتهاده وأمانته ، وبالاختصار بحسب ما يتمتع به من شخصية طيبة واستعداد طبيعى مقـــابل العمل الفنى الصعب الذى يقوم به . واذا لم تتحسن حالة الرجل واسرته ماليا – فى مثل هذه الظروف ، كان لنا أن نستنتج ونحن مطمئنون أنه اما أخطأ فى اختيار مهنته وعليه فى هذه الحالة ان يجرب حياة المدينة ، واما ان فى تركيب شخصيته مسمارا قلقا فى غير موضعه ، ومن ثم

(*) من الدليل السياسى للجميع طبعة كونستابل لندن سنة ١٩٢٥

فالفقر والفشل هما جزاءه الحق • هذا هو منطق الاخلاق الفطرية البدائية التى كان يتخلق بها مزارعو الارض من الرواد الاوائل ، وهى أخلاق عملية الى حد كبير وان ادى تطبيقها الى نتائج فاجعة فى الاراضى التى ما زالت فيها مناطق خصبة متساوية فى خصوبتها ومتاحة بلا مقابل لكل من يضع يده عليها

وما نعانى منه الان ، هو استمرار بقاء هذه الاخلاق البدائية بعد أن أصبحت الحقائق تناقضها مناقضة صريحة فى كل موضع : فلم يعد الفلاحون العصريون روادا فى أرض بكر ، جاهزة لهم لوضع اليد عليها ولم يعد فى وسعهم العثور على فدان واحد من الارض بلا مقابل ، أو على درجة متساوية من الخصوبة مع فدان اخر ، بل الحق يقال لم يعد فى وسعهم العثور على أرض زراعية صالحة على الاطلاق • ومع ذلك لا يزال الفلاحون الذين يضطرون للعمل ست عشرة ساعة فى اليوم ليسددوا ما عليهم من ايجار وضرائب وفوائد مستحقة على مرهوناتهم يتباهون ويقولون لك بجدية تامة ، انهم مستقلون وسادة أنفسهم ويتمتعون بالحرية السياسية التى لا تقدر فوائدها بثمن ، وان الحكومات الاجنبية التى ألغت الملكية الفردية فى الارض لابد أن تكون حكومات برابرة طغاة ، متعطشين للدماء ، وان من واجبنا نحو حضارتنا ، أن نشن الحرب عليهم وأن نجتث مبادئهم البشعة من عقل الانسان وقلبه • يتعلم الفلاحون هذا فى البيت وفى المدرسة عن طريق الصحافة والراديو والبرلمان ومن افواه قضاة المحاكم وخطباء المنابر الذين يستمعون اليهم أيام الانتخابات

وهم فى هذا حسنو النية : اذ يعتقدون بصدق أنهم يدافعون عن الاساس الاجتماعى الذى ينهض عليه شرف

الفرد والمجموع ، وترتكز عليه كل الاخلاق الكريمة . مع أنهم في الواقع يقفون في صف الكسل والضياع والبذخ الخبيث والتطفل والفقر والكدح وسائر الشرور والمخازي التي تسير في ركاب الملكية الفردية الانانية لمصادر الثروات والخيرات العامة . ولكن دعنا لا نندفع في التشاؤم السياسي ونقول انهم لا يحصدون الا ثمرة اثمهم وغبائهم وحمقهم . لانك اذا انشأتهم ودربتهم كفلاحين جماعيين يدفعون الربح والايجار للدولة من اجل الصالح العام كما يدفعون الضرائب لها الان ، فان نفس الدوافع الاخلاقية التي تجعلهم الان من غلاة المحافظين المتعصبين ، ستجعل منهم بلاشفة أقحاح . وروسيا السوفييتية أثبتت صحة ذلك

ولكي نفهم المشكلة ـ كما ينبغي أن تفهم ، لابد من استيعاب هذه الحقيقة ـ حقيقة ان الارض ليست براحا غير محدود من حيث الكم ولا هي متساوية في القيمة من حيث الكيف في كل البقاع . فالارض تتفاوت من فدان الى فدان بحسب موقعها : ابتداء من اراضي البناء الواقعة على النواحي الهامة في مدينة لندن حيث تقاس بالقدم المربع ، الى الصحاري الجرداء التي لا يستطيع انسان ان يقيم صلبه عليها . وفي نطاق حدود الجزر البريطانية توجد بقاع ساحلية ينحسر عنها المد ، ويتمكن الاهالي من التقاط قطع الفحم بلا مقابل ويحملونها معهم الى بيوتهم في قوارب مسطحة ، كما توجد مناجم للفحم بعيدة الغور ينحت فيها الانسان الصخر الى اعماق بعيدة ليستخرج الفحم بعد مشقات باهظة النفقات ، وقد يستغرق حفر النفق منها عشرين سنة ، ثم ينقل الفحم بجهد شديد الى البحر من عمق قد يبلغ أميالا تحت سطح البحر . هناك أراض تفيض سمنا وعسلا ، وأراض تفيض بالبترول ،

أو مرصعة بالماس أو تتلاقى فيها عروق الذهب وتشتبك ، وفي الدورادو أراض من جميع الانواع وتقع كلها جنبا الى جنب : الصحارى التى لا تبل رمالها قطـــرة ماء ، والمستنقعات التى تتفشى فيها الملاريا والاحـــراش التى تجوس فيها الثعابين السامة والفهود أكلة لحوم البشر • وفي اجمل بقاع الارض : ايرلندا الغربية واسكتلندا ، حقول من الصخور الحجرية الصلبة التى لا تكفى اشق الجهود المبذولة فيها ، لتوفير خبز الكفاف للفلاح ما لم يحصل لنفسه على عمل موسمى فى مكان اخر كاحد عمال الحصاد • وعلى جانبى طرق الضواحى الزراعية ، تتفاوت ايجارات البيوت من ميل الى ميل بتفاوت اجرة ركوب الترام أو الاوتوبيس أو السكة الحديدية المؤدية الى أقرب سوق او مركز تجارى • واذا كانت الايجارات تتفاوت ما بين شلنات معدودة فى الاسبوع الى ألوف مؤلفة فى السنة فما ذلك الا لان الارض تتفاوت فى درجة الخصوبة او فى قربها من الاسواق او فى مزاياها وعيوبها المختلفة من كل لون • وليست هذه ارائي الخاصة فى مشـــكلة الارض ، ولكنها حقائق ثابتة دامغة كحقيقة وجود نسوة بين ظهرانينا يربين أولادهن اليوم من اعانة الحرب التى تدفع لهن وقدرها جنيهان فى الاسبوع يدفعن منها ١٤ شلنا فى الاسبوع ايجارا للسكن الـــذى يأويهن ويأوى أولادهن

ولو أنك قسمت جميع الاراضى فى بلد من البـــلاد الى قطع منفصلة ووزعتها كاملاك على الذين يشـــغلونها او يضعون يدهم عليها فعلا ، فالنتيجة لن تكون ثراء الناس بحسب نشاطهم وأمانتهم وقدرتهم ، ولـــكن بعضهم سيتمتع بطول العمر ويثرى ثراء الاســـاطير ، وبعضهم ستفترسه الحمى ويطوى بطنه من الجـــوع ، وبعضهم

سيطرحون على قارعة الطريق متشردين معدمين ، والبقية درجات درجات بين هذه الاطراف • ولسوف يهجر تعساء الحظ رمالهم القاحلة ومستنقعاتهم الموبوءة من فورهم تقريبا ، لكى يعرضوا انفسهم على السعداء المحظوظين ليفلحوا ويزرعوا لهم أراضيهم الخصبة ، مقابل أن يضمنوا لانفسهم معاشا افضل ، ثم يقدمون بقية المحصول للمالك السعيد المحظوظ كايجار أو ريع • وهكذا يصبح السعداء المحظوظون لا طبقة من الاثرياء فحسب ، بل يصبحون اذا شاءوا طبقة من الكسالى القاعدين • وسيؤثر عدد كبير منهم ان يوضعوا فى اطار معين : اطار السيدات والسادة ويقيمون لانفسهم تقاليد ترى من العار والشنار على المرء أن يضطر للعمل لكسب قوته ، بل من العار والشنار على المرء أن يمشى فى الشارع حاملا فى يده سلة فيها طعام ، أو أن يمشى فى الشارع على الاطلاق بدلا من أن يركب عربة لها سائق ، لان فى المشى فى الشارع ما فيه من نزول عن مرتبته الاجتماعية ، وفقدان لمهابته

ثم انه بعد ما تصبح الارض ملكا لمن عليها ، سيحرم الذين يولدون بعد ذلك من الارض ، ويصبحون طبقة جديدة من العبيد أو المماليك : طبقة اسمها البروليتاريا تعيش من بيع قوة عملها لاصحاب الاراضى او تعيش كفلاحين مؤاجرين او حرفيين يدفعون ايجارا للارض التى يشغلونها • وعندما يولد من البروليتاريا العدد الذى يزيد عن حاجة أصحاب الاراضى ، ينخفض سعر عمل البروليتاريا الى مستوى لا يكاد يقيم أود الانسان العامل حتى يقصر عمره من التجويع البطىء

فى مثل هذه الاوضاع ليس ثمة من لديه أموال تزيد عن نفقاته ، الا اصحاب الاراضى : فاصحاب الاراضى يملكون تقريبا كل ما فى البلاد من أموال فائضة ،

والاموال الفائضة تسمى رأس المـــال ، وملاك الاراضى يسمون اقطاعيين يعيشون من أملاكهم ، وقد يصبحون رأسماليين يقرضون رءوس اموالهم لاصحاب الاعمـــال مقابل ايجار أو ريع يسمى فائدة بنفس الطريقـــة التى يؤجرون بها أراضيهم • والاحتكار الطبقى لـــرأس المال يأتى فى أعقاب الاحتكار الطبقى للارض بنفس الحتميـــة التى يأتى بها الشتاء فى أعقاب الخريف

ولنذهب لحظة الى التاريخ لندرس الموضــــوع على ضوئه : لا يزال وليم الفاتح (١) يثير الاهتمام بعد مـرور ثمانية قرون على وفاته باعتباره نموذجا مجســـدا لمزايا التهجين او التزاوج بين الطبقات ، فهو لم يكن نبيـــلا بالنشأة ولا بالوراثة بل كان ابنا غير شرعى لاحد الدوقات وحفيدا لاحد دباغى الجلود الاجلاف • وبلغ من المقدرة أن جمع جيشا من المغامرين النورمانديين وفتح به انجلترا • ولما كان ملكيا اقطاعيا ، فقد قسم الارض الى اقطاعيات كبيرة معززة بقلاع مسلحة ، وزعها على زملائه فى السلاح من الفرنسيين او تركها تحت أيدى ملاكها السكسونيين الذين لم يسببوا له المتاعب فى غزوه لبلادهم ليستفيدوا منها ويستغلوها قدر استطاعتهم بشرط أن يأخذوا على عاتقهم الدفاع عن البلاد عسكريا ، وتطبيق العـــدالة فى

---

(١) William the conqueror أو وليم الاول ١٠٢٧ – ١٠٨٧ ملك انجلترا وفرنسا وقد وحد فرنسا ، وجمع جيشا من النورمنديين غزا بهم انجلترا • وهوابن غيرشرعى للدوق نورماندى من « ارتيـــلا » ابنة أحد دباغى الجلود . وكان يوصف أحيانا « بابن الســـفاح » The Bastard أو ابن الحرام • وقد أنجب ولدين روبرت الذى انشق عليه وكان مثال الابن العاق الفاســـد ولكنه أورثه عرش فرنسا ، ووليم الثانى الذى أورثه عرش انجلترا

مناطق نفوذهم وتمويل المؤسسات والمصالح الملكية اى أن يقدموا ـ بصفة عامة ـ نصيبهم المحلى من تكاليف الحضارة مما يثبت ولاءهم له بصفته ملكا على البـــلاد ، وتوريث اقطاعياتهم بعد موتهم كاملة غير مقسمة لوريث واحـد ذكر قادر على القيام بكافة مسئولياتهم . ولما كان الملك كاثوليكيا معمدا فقد شيد من الكنائس والاديرة بقدر ما شيد من القلاع والحصون ، ومنح الاقطاعيات التى شيدت فيها الكنائس والاديرة لرجال الدين العاملين فيها بشرط أن يتعهدوا المصالح الروحية للشعب

كان ذلك تنظيما معقولا وحكيما فى تلك الظروف ، جعل الامن مستتبا فى البلاد التى كان يقطنهـــا مجتمع زراعى يتألف من البـــارونات والاساقفة والفلاحين ورقيق الارض ، ولكن ذلك لم يدم الا فترة قصيرة فقـــط ، اى طالما اتفقت الحقائق الواقعة مع النظام الاقطاعى . ولكن الحقائق الواقعة كالانظمة لا تظل ثابتة لمدة طويلة . فمهما كانت مقدرة الملوك والبارونات ، فهم ليســـوا الا بشرا هالكين فضلا عن أن القدرة لا تنتقل من الاب للابن بصفة دائمة ، بل غالبا ما تموت مع أصحابها . ومع ذلك فالنظام الاقطاعى لم يمهد السبيل لانتخاب القادرين على تولى الخلافة بعد الملوك والبارونات . بل على العكس من ذلك اشترط أن يكون الخليفة أو الوريث ذكرا ، وأى ذكر ، أكبر أبناء الميت . وهو يريد بهذا الشرط أن يتحـــاشى المنازعات والمشاحنات حول الخلافة او التركة ولكنه لم يكن ضمانا لكفاءة الحاكم الجديد أو الاقطاعى الجـــديد كحاكم يحكم بين الناس بالعدل وقائـــد كفء يقـــود العسكريين . كان اكبر ابناء وليم الفاتح انسانا فاشـــلا ولم يخلفه على العرش مع أنه شن على أبيه حـــربا فى فرنسا واوقع به الهزيمة . وكان هناك كثيرون من امثال

هذا الابن الفاشل من بين البارونات لم يخلفوا اباءهم بل تركوا بلادهم واقطاعياتهم فى حالة فاجعة من الفــوضى والاضطراب او انطلقوا هائمين على وجوههم يفعلون ما يفعله غيرهم من البارونات التافهين • أما القلة التى لم تكن فاشلة ولا تافهة ، فقد كانت فى الواقع حفنة من الملوك المحليين تطلعوا دائما الى السيطرة على البلاد وعلى العرش نفسه وخلع الملك المركزى • كان النظام الاقطاعى يحمل فى أحشائه منذ البداية بذور الحرب الاهلية

ثم انه خلق ايضا طبقة من الابناء الصغار المحرومين من المعاش ومن الارث ، وكانت هذه الطبقة فى انجلترا ، تتألف من عدد من العوام تربوا ونشأوا على الطبـــاع والتقاليد الارستقراطية فى قصور البـــارونات واعتادوا الانفاق كما ينفق البارونات دون أن تكون لديهم الاموال الكافية لدفع ثمن ذلك كله • كان عليهم اما أن يعيشوا على حسنات وهبات اشقائهم الكبار واما أن يحصلوا ما استطاعوا ـ على احدى الوظائف العامة كضباط فى الجيش أو فى السلك الدبلوماسى أو على معاشات من الكنيسة أو من الابرشيات المحلية • أما أبناؤهم فقد فرض عليهم أن يعيشوا من مزاولة الحرف المختلفة التى كانت تمثــل الانحطاط الاجتماعى فى أدنى صوره لدرجة أننى أذكر أن الاطباء ـ فى زمنى ـ كانوا يتقاضون أتعابهم سرا ، كأنما تقاضى الاتعاب عار يخجل منه وعليك أن تدفعه لهم خلسة كما تدفع البقشيش للخادم • ولا يزال الروب الرسمى الذى يرتديه المحامى الى الان مزودا بجيوب خلفيـــة صغيرة هى من بقايا الزمن الذى كان العميل يدس فيه أتعاب المحامى خلسة فى جيوبه هذه من وراء ظهره • ثم اضطرت سلالة الابناء الصغار فى نهـــاية المطاف ، الى التنازل عن عنجهيتهم بالتدريج ، فاحترفوا أولا تجـــارة

الجملة ثم أعمال الكتبة ثم تجارة القطاعى ثم الحـــرف اليدوية الفنية ، وأخيرا الاعمال اليدوية غير الفنية حتى جاء الوقت الذى أصبح فيه من العادى تماما أن ترى العامل الانجليزى شامخ الانف متغطرسا يعتبر نفسه ارستقراطيا أصيلا ولكن الايام هى التى ظلمته ، وتراه يدلى بصـــوته فى الانتخابات فى كل مرة للمرشح المحافظ بينما ترى الدوقات والماركيزات يؤيدون حزب العمـــال فى مجلس اللوردات ٠٠

وهكذا وجد النظام الاقطاعى نفسه وجها لوجه أمام طبقة العوام التى تؤلف نحو خمسة فى المائة من تعـداد الشعب ممن اكتسبوا سلطة روحية هائلة أو ثروة مادية كبيرة بفضل مقدرتهم السياسية أو التجارية أو الروحية فأصبحوا كردينالات وتجارا كبارا ، وقد التزم الكاردينالات بانتظامهم فى سالك الكنيسة الكاثوليكية بتقاليد الفقـر المقدس والخضوع والتواضع ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن هذه الفضائل لا تكفى بغير مساندة من السلطة الزمنية ، فانضموا الى حلبة الصراع من أجل السيطرة على الدولة منحازين أحيانا الى صف البارونات وأحيانا أخرى الى صف الملك ، ولكنهم كانوا دائماوبحكم الضرورة ـ ضد الزنادقة والملحدين ، الذين يؤلفون طبقـــة المثقفين وهى طبقة لم يضعها النظام فى حسابه

أما عن كبار التجار فقد شيدوا المدن ، وسرعان ما أصبحت المدن ضخمة وقوية تنافس الكنيسة والملك معا على السلطة ٠ وكان شارل مارتل (١) جنديا محنكا وزعيما

---

(١) Charles Martel ٦٣٨ ـ ٧٤١ م حاكم فرنسا وألمانيا ٠ شهرته أنه هو الذى أوقف الزحف الاسلامى على أوروبا عندما هـــزم الاندلسيين فى موقعتى تورز أو بواتييه سنة ٧٣٢ ٠ م احدى المعارك الحاسمة فى التاريخ

اقطاعيا عظيما عاش فى القرن الثامن فى فرنسا وكان ملكها الفعلى • واذا به يضيق بالمدن ذرعا ، فعمد ببساطة تامة الى تدميرها وهدمها كما كان يدمر ويهدم أوكار اللصوص • غير أن الملوك فيما بعد ، لم يعد فى وسعهم الاستغناء عن المدن وأموال المدن ، وكان على صدورهم أن تتسع لها • وهكذا اشترى سكان البورج (١) الارض بأموال المدن وأفسحوا رقعتها ثم استأجروا من البروليتاريا جيوشا تحارب من أجلهم ضد التاج والكنيسة والنبلاء • وكانوا دائما يتطلعون الى القضاء على جميع الاوضاع الاقطاعية المرتبطة بملكية الارض والى جعل الارض سلعة يتاجرون فيها كما يتاجرون فى المنتجات والبضائع المنقولة التى تنتجها مصانعهم • ولكن المتاجرة فى الارض تصبح غير ذات فائدة كبرى لهم ما لهم تشفع بالمتاجرة فى الايدى العاملة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالاقطاعيات بمقتضى نظام رق الارض أو نظام الاقامة على الارض الذى كان يحرم على رقيق الارض هجرة الاقطاعيات التى يعملون عليها وبيع عملهم (وفى الواقع بيع أنفسهم) لكبار التجار فى المدن • العمل كالارض اذن ، ينبغى أن يصبح سلعة تجارية تباع وتشترى كأى سلعة أخرى • وهكذا دخلت طبقة التجار حلبة السياسة دخول الابطال يحملون عاليا شعار الحرية الشخصية والحرية الفردية

ولكنها كانت حرية عارية مجردة ، ذلك أن رقيق الارض عندما هربوا من الاقطاعيات وأراضى الكنيسة واحتشدوا فى المدن ، اكتظت بهم سوق العمل ورخصت أسعارهم

(١) Bourge المنطقة السكنية المحيطة بمدن العصور الوسطى • وسكانها من الاحرار « من غير رقيق الارض » ويسمون بورجوازيين ثم أطلق اسمهم هذا على التجار ورجال المال ثم على الطبقة المتوسطة والرأسمالية ••

وأذلهم الفقر والارهاق الشديد والخضوع لمحتكرى رأس المال بلا شفقة ولا رحمة ، مما أرغمهم فى نهاية الامر على النظر فى أوضاعهم فى حسرة ومرارة وبث فيهم الوعى بأنهم أصبحوا يؤلفون طبقة جديدة تحمل اسما عاما لها هى طبقة البروليتاريا • ولم يكن لهذه الطبقة من أمل تتعلق به سواء فى ظل الاقطاع أم فى ظل الرأسمالية — ومن ثم أخذ البروليتاريون بالتدريج ينظمون أنفسهم — فى أول الامر — فى نقابات • ولجأ أصحاب الاراضى وسادة المال ورجال الكنيسة الى اضطهاد النقابات ومكافحتها بعنف ووحشية • فلجأ البروليتاريون بعد ذلك الى التحالف مع جماعات من الاشتراكيين العقائديين وكانوا جميعا يهدفون الى تحقيق دكتاتورية البروليتاريا على أن يتولى الاشتراكيون القيادة الثقافية وتوفر النقابات الاموال اللازمة للمعركة

***

وقد حقق هذا التطور الذى انتهت اليه الامور ، معجزة فريدة : توحيد رجال المدينة والنبلاء وأصحاب الاراضى فى طبقة بلوتوقراطية (١) متماسكة ضد التيار البروليتارى الزاحف • وواجه كارل ماركس هذا التحدى فى سنة ١٨٦١ بشعاره المشهور : « يا عمال جميع البلاد اتحدوا ! » وأعلن حرب الطبقات من أجل القضاء على الملكية الفردية وعلى ايراداتها غير المكتسبة بالعمل ومن أجل تنظيم المجتمع سياسيا ليصبح بمثابة كومنولث تعاونى من العمال الكادحين

وفى سنة ١٨٧١ وقع الاشتباك بين الفريقين ، وقام البلوتوقراطيون بقمع كوميون باريس قمعا دمويا ، ولكن

(١) Plutocracy أو حكم الاغنياء . نسبة الى بلوتو مانح الثراء فى الاساطير الرومانية القديمة

بعد مضى خمسين عاما من ذلك التاريخ انتصرت البروليتاريا فى روسيا سنة ١٩٢٠ ، وفى سنة ١٩٣٩ انهزمت البروليتاريا مرة ثانية فى اسبانيا • وفى تلك الاثناء على أية حال كان البلوتوقراطيون الذين بدأوا بالمعارضة العنيفه لأى تدخل تبديه الحكومة فى نشاطهم المالى والتجارى ، قد أخذوا يغيرون رأيهم فى هذا الشأن ، بفضل مساعى حجج الاقتصاديين البروليتاريين الذين اثبتوا لهم أن تنمية الانتاج الحديث تنمية كاملة الى أقصى حدودها عملية صعبة معقدة ، وأصعب من أن تستوعبها امكانيات المؤسسة الفردية والشركة الخاصة ، وأنها عملية لا يمكن انجازها الا بواسطة الدولة وسلطتها وامكانياتها ومواردها المالية • ولو استطاع البلوتوقراطيون الاغنياء أن يحتفظوا بسلطانهم على الدولة واستخدموها فى اثراء أنفسهم بدلا من أن يستخدموها للصالح العام فانهم يجمعون بين مزايا الانتاج الاشتراكى ومزايا التوزيع البلوتوقراطى وبذلك يجمعون ثروات هائلة لم يحلم بها اسلافهم المتنافسون • وثمة حركة شبيهة بهذه ، نمت واستشرت وقطعت السبيل على الاشتراكيين مستبدلة رأسمالية الدولة بالرأسمالية الفردية بينما احتفظ الاغنياء بالملكية الفردية سليمة لم تمس بكل ما لها من امتيازات ، واشتروا ذمم البروليتاريين بالاعانات والعلاوات والمنح والاجور المرتفعة أحيانا • وقد سميت هذه الحركة فى ايطاليا فاشية ، وفى ألمانيا اشتراكية وطنية (واختصارها نازية) ، وفى كل من هاتين البلدين سيطرت هذه الحركة على زعماء البروليتاريا وقامت بتمويلهم ووضعتهم فى مراكز السيطرة على الحكومة : وهم بالتحديد بنيتو موسولينى وادولف هتلر • أما فى انجلترا وأمريكا فكانت الحركة أقل وضوحا من ذلك بكثير وسميت

بالنيوديل (١) أو بالنظام الجديد وبهذا ضمنت لنفسها مركزا وطيدا فى كل من المعسكرين : الديمقراطى والبلوتوقراطى • ولكنها فعلت ذلك بعد أن دفعت الثمن باهظا : حربا شعواء مع ايطاليا وألمانيا من أجل زعامة أوروبا ، ذلك أن الدكتاتوريين الفاشست الجدد عندما وجهوا دعوتهم للدول الغربية لتنضم اليهم فى هجومهم الكبير على روسيا البروليتارية قوبلوا بالرفض العنيف واعتبروا ثوريين انقلابيين ، بينما اخذ الدكتاتوريان على عاتقهما القيام بمهمة يائسة : لا تتضمن اخضاع روسيا وحدها ، بل أيضا اخضاع بريطانيا وأمريكا اللتين تعارضانهما وتقاومان خططهما • وكان الحليف الوحيد الذى كانت له قيمة ما ، وكسبوه الى صفهم هو اليابان ،وعلى هذا أصبحوا فى وضع اضطرهم الى محاربة الشيوعيين والدول البلوتوقراطية معا فى تحالف متناقض ، ولكنه كان تحالفا شديد المراس مرهوب الجانب • وهذا هو تقريبا الوضع التاريخى الراهن • أما الان فلنعد أدراجنا مرة أخرى الى سياق الموضوع

أقول اننى وان كنت من الناحية النظرية شيوعيا ، ومن الناحية المهنية كاتبا مسرحيا ، فأنا فى حقيقة أمرى من الناحية الاجتماعية أعتبر من ملاك الاراضى ومن ملاكها الغائبين بالذات ، أى من هذا الضرب من الملاك الذين لا يعرفون عن أرضهم شيئا ، لا أين تقع ولا أية حدودتحدها

---

(١) New Deal سلسلة من قوانين الاصلاح الاجتماعى سنها الرئيس فرانكلين روزفلت فى الولايات المتحدة الامريكية مابين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥ عقب الازمة الرأسمالية الكبرى المعروفة باسم الكساد العظيم . وهدفها ايجاد العمل للايدى المتعطلين فى اعادة تشجير الغابات وبناء مشروع وادى التنيسى للرى والزراعة ، وغيرهما من المشروعات التى تشرف عليها الدولة أما النيوديل الثانى ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ فكان يستهدف الى التأمين الاجتماعى للعمال وصغار الزراعيين

بل لم تقع عليها أعينهم قط ، ذلك لان اقطاعيتى تقع فى ايرلندا ، وعندما ورثتها كنت رجلا بالغا ومتزوجا وانسانا مسئولا . ولو كنت أعيش فى أيام وليم لتوقع منى ذلك الملك أن أطبق العدالة بين المستأجرين عندى كما يطبقها القاضى القبلى الجالس تحت النخلة ، وأن أقود هؤلاء الفلاحين فى كل المعارك التى يشنها الملك على اعدائه ، ثم كان على بعد ذلك أن أباشر زراعة الارض وأن أتحمل نصيبى فى تمويل خزانة الملك من نواح مختلفة . وأكاد أقول اننى كنت جديرا بالنهوض بتلك التبعات كما ينهض بها بعض باروناته على الاقل وبنفس كفايتهم وهمتهم . وكان أول شيء اكتشفته عن اقطاعيتى أنها ليست ملكى على الاطلاق والا سلطة لى عليها لمباشرة زراعتها أو لتوجيه ادارتها . وبدلا من أن أتلقى صكوك التمليك ، تلقيت حزمة من ايصالات الرهنية !!

ولم أدهش لذلك كثيرا ، لان عمى الذى ورثت عنه ما ورثت ، مات وهو فى حالة رثة معدما تقريبا . وقد ابتاع لنفسه حق مزاولة مهنة الطب وعاش بهذا الحق عيشة ناجحة عاملا فى خدمة نبلاء الناحية الذين أخنى عليهم الدهر وخربت بيوتهم بعدما حولت قصورهم الريفية بحدائقها الواسعة الى صفوف وصفوف من المساكن الصغيرة التى يقطنها موظفون وكتبة ممن لا تزيد مرتباتهم على خمسة عشر شلنا فى الاسبوع ، وكان لعمى خادم مخلص واحد ، يبلغ أجره فى العام سبعة عشر جنيها تدفع مؤخرا ، ثم رهن عمى ساعته الذهبية فأصبح يستعين فى جس نبض الزبائن بساعة فضية كان قد أهداها الى منذ سنوات مضت واضطر الى استعارتها منى مرة أخرى ، وكنت حاضرا معه عندما اشترى ساعته الذهبية بثلاثين جنيها ، وقد رهنها نظير ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات وظل سنوات

متمسكا بحق استردادها وفك رهنها ، باقتراض الفائدة المستحقة على هذا المبلغ ٠٠ من أمي

فلما آل الى هذا الحق أخيرا ، أخذت ايصال الرهنية الى سمسار الرهونات واستردت الساعة . ثم أخذتها الى مكان ما فى لندن حيث أودعتها لتعرض للبيع بالمزاد. فبيعت بمبلغ ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات ٠ وبذلك حصلت على ما دفعته فيها ناقصا عمولة دلال المزاد . فلما تبين لى أنى لم أربح شيئا من الصفقة وخسرت العمولة سلمت أمرى لله ، واعتبرته درسا وعظة . فطرحت جميع ايصالات الرهنية التى آلت الى فى سلة المهملات ٠ وبعد ذلك اشتريت الاقطاعية التى كان مفروضا أن تكون ملكا لى من المرتهنين بعد سداد حسابهم ، واصبحت انا نفسى ــ فى واقع الامر ــ المرتهن الجديد والمالك الحقيقى ٠ ولم يكن فى مقدورى احتمال هذا الوضع لو لم تكن لى موارد أخرى لا علاقة لها بالاقطاعية

وليست هذه هى نهاية القصة . فأنا لم أفهم قط لماذا كانت اقطاعيتنا توصف دائما بانها « قطعة أرض صغيرة لطيفة » . فالارض لم تعد من زمن طويل ــ تستخدم فى الزراعة ، ولكنها تستخدم فى بناء المساكن والمحلات التجارية عليها ، وبالاختصار أصبحت جزءا من مدينة . وقام مستأجروها بدورهم بتأجيرها لغيرهم ، وأجرها هؤلاء لغيرهم قطعا قطعا وشرائط شرائط بحيث كان في وسعى أن أشير باصبعى الى مجموعة من البيوت المكدسة بعضها فوق بعض وأقول : هذه البيوت مبنية فوق « أملاكى » ، ولكن لا سبيل لى على أى واحد منها ، ولا يمكننى أن أجرى عليها أى تحسين بأية طريقة وان كان فى وسعى أن أستخلص من هذا المستأجر أو ذاك الذى استأجر من باطنه الايجار المقرر بحسب الرقبة أو ما

الى ذلك ، بحيث يمثل الايجار جزءا صغيرا فقط من قيمة الموقع . والحق أقول اننى كنت واضعا يدى على ثلاثة بيوت أشرف عليها ولكنها كانت خرائب متداعية لدرجة اننى عندما حاولت اصلاح أحدها واعداده للسكنى ، انهار البناء من القواعد فى اللحظة التى مسته فيها معاول البنائين . كانت مرهونة بمثل قيمتها الكاملة ، وزيادة . وما كان فى وسع عمى أن يصلحها ، ولا كان ذلك فى وسع المستأجرين . أما صاحب الرهنية فلم يكن من شأنه أن يتدخل ما دامت فائدته المستحقة تسدد له فى موعدها

وبالاختصار ، كانت « قطعة الارض الصغيرة اللطيفة » اسما على مسمى لاننى لم أتمكن من التصرف فى أكثرها الا أن أجعل ساكنيها يدفعون الايجار دون أن يسمحوا لى بالدخول فيها لمباشرة أى سلطة او أية مسؤولية عاجلة كالتى كان النظام الاقطاعى البائد يفرضها على أو على أسلافى . فأنا بصفتى مالكا لم أكن قاضيا ولا حاكماً ولا قيما ولا جنديا محاربا ولا مديرا ولا مشرفا ، أى لم تكن لى أية صفة تجعلنى نافعا للبلاد . وسلطات الحياة والموت التى منحها لى الملك هنرى الثانى (١) عندما منحنى اقطاعيتى ، والتى كان له أن يمارسها على شخصيا لو قصرت فى ممارستها أو أسأت استخدامها « لو كانت لديه القوة الكافية لان يفعل ذلك » ، هذه السلطات الرهيبة المطلقة قد ذهبت وراحت ، ومعها أيضا ذهبت الواجبات وراحت . ولم تبق لى الا « قطعة الارض الصغيرة اللطيفة » التى يمكننى أن أبيعها أو أن أرهنها

---

(١) Henry II ١١٣٣ – ١١٨٩ ملك انجلترا

لاى أجنبى لم يقدم لبلادى يدا فى معركة هاستنجز (١) أو فى غارة سترونج باو (٢) ، وليس فى وسعه أن يقدم اقل دليل على اهتمامه بالصالح العام قلامة ظفر

مثل هذا التطور الذى مر باقطاعية أحد البارونات حتى أصبحت « قطعة أرض صغيرة لطيفة » ، ومر فى نفس الوقت بأحد الموظفين العموميين المسؤولين (البارون) حتى اصبح طفيليا غير مسؤول عن شىء (أنا) ، مثل هذا التطور اصبح قدرا محتوما عندما تطورت دنيا الزراعة والفروسية فأصبحت دنيا التجارة والمنافسة

ومع ذلك ، بقيت عدة اقطاعيات كبرى ، نمت فوقها المدن الكبرى وتعاظمت واثرى ملاكها ثراء فاحشا ، ولا يزالون يملكون ويزاولون سلطات يمكن ان توصف بأنها سلطات الحياة والموت لانهم يستطيعون طرد الفلاح وعماله الى عرض الطريق ويستبدلون بهم قطعانا من الاغنام أو جماعات من اصحاب الدكاكين أو فرقا من الرياضيين الاغنياء الذين يدمنون صيد الغزلان البرية أو اى شخص كان يدفع لهم نظير استخدام اراضيهم مبلغا يعجز عن دفعه أى فلاح أو مزارع ، وهكذا نجد لدينا «قطع أرض صغيرة ولطيفة » و « قطع ارض كبيرة ولطيفة » أصحابها على السواء ، أناس غير مسؤولين عن شىء على الاطلاق . قد يكونون من محبى الخير والانسانية أو ما الى ذلك ولكن ليس فى نشأتهم ولا فى تربيتهم ما يمنعهم من ان يكونوا جشعين يلغون فى الترف ولوغا ، وكل الاشياء تشجعهم وتدفعهم فى هذا الاتجاه . والواجب الواضح

---

(١) Hastings مدينة فى شرق انجلترا والمعركة التى وقعت فيها كانت سنة ١٠٦٦ بين النورمانديين بقيادة وليم الفاتح والسكسونيين بقيادة هارولد . انتصر فيها وليم رغم قلة عدد جنوده وهى من المعارك الحاسمة فى تاريخ انجلترا

(٢) strongbaw

المفروض عليهم أن يؤجروا أراضيهم بايجارات باهظة وأن يستثمروا رءوس اموالهم بأعلى فائدة يمكنهم الحصول عليها ، ولا تفرض هـــذا الواجب عليهم منفعتهم المادية ومصلحتهم الشخصية فحسب ، بل يفرضه عليهم ضميرهم الاجتماعي أيضا

وهكذا تتحصن ملكية الارض حصانة تامة ضدالنواميس الاخلاقية ، هي حصانة تميزها تمييزا تاما عن الملكيــة العادية التي يسميها المحامون ملكية شخصية . والمفروض ان هذا التمييز قد زال بصدور تشريع سنة ١٩٢٥ الذى وضع حدا لذلك الحق الاقطاعي القديم : حق وراثة الابن البكر لاملاك أبيه ، ولكنه لا يزال سارى المفعول على أية حال . فللاقطاعي رخصة لامتلاك بندقية خاصة كملكية شخصية ، وله ان يصطاد ببندقيته حيوانات وطيـــورا معينة في فصول من السنة وتحت ظروف معينة ، ولكن ليس له ان يصطادني ببندقية . ومع ذلك فاذا اقمت منشأة تجارية كبرى فوق اراضيه ، أو شيدت لى بيتا عليها ، فمن حقه ان ينتزع منى منشأتى التجارية برمتها أو يطردنى من بيتى طردا عندما تنتهى مدة عقد الايجار بدون أقل اعتبار لى او لصالحى

وقد يبدو من الغريب المدهش للذين يتدبرون المسألة من زاويتها العامة ، ألا تتسبب هذه الاوضاع العجيبة فى اثارة مذبحة عامة تقطع فيها رقاب اصحاب الاملاك ، والواقع أنها تسببت فعلا فى اثارة مذابح من هذا القبيل من آن لآخر : فقد شكل الفلاحون الايرلنديون قبل تطبيق قوانين شراء الارض فى ايرلندا ـ جمعيات ريبون لودجز(١) هدفها اطلاق الرصاص على اصحاب الاملاك لمجرد انهم

---

(١) Ribbon Lodges

اصحاب املاك ، واستخدمت الثورة الفرنسية سلاحا ماحقا ، هو احراق قصور الاقطاعيين الكبرى فى الريف (الشاتو) بأيدى الفلاحين ، وقد كان لهذا التكتيك الماحق نفسه ، نصيب الاسد فى اقامة الدولة الايرلندية الحرة ؛ وفى روسيا الغت الحكومة البلشفية المشكلة فى سنة ١٩١٧ الملكية الخاصة للارض (الملكية العقارية) بصفتها حقا مقررا ، وجعلت من أى محاولة لممارسة هذا الحق ،جريمة يعاقب عليها القانون

غير أن نظام الملكية الخاصة للارض ، لا يكون فى كل الاحوال على هذه الصورة التى لا تطاق بحيث تدفع الناس الى الثورة والقتل والحرق ، وهم الذين تربوا ونشأوا يعتبرونه نظاما شريفا ونظاما اخلاقيا . فالرجل الذى لا يملك ارضا ، يتفق مع احد الاقطاعيين على تأجير قطعة ارض من املاكه نظير ايجار معين فى السنة ، وهو يفعل ذلك باختياره وبارادته الشخصية ، راضيا أن يستخلص لنفسه من الارض معاشه الذى اعتاد عليه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وهو يعتقد طوال الوقت اعتقادا راسخا أن من الطبيعي أن يدفع لصاحب الارض ايجار ارضه كما يدفع لصانع المظلات ثمن مظلته . وهو لا يفهم شيئا عن مشكلة الارض ، والاغلب انه هو نفسه يتطلع ليصبح هو الاخر مالكا . ففى السوق مساحات كافية من الاراضى معروضة للبيع لمن لديه الثمن المناسب للشراء ، وحتى اذا لم يتوفر المال اللازم لسداد الثمن ؛ أمكن المشترى أن يقترضه أو أن يشترى بالرهن

غير أن الفارق بين شراء مظلة من صانع المظلات ، واستئجار ارض من صاحب الارض الذى وجدها جاهزة مهيأة للزراعة أو لاقامة المساكن عليها ، فارق جوهرى ولم يكن سرا خافيا على الاقتصاديين السياسيين . فأما

الفلاحون الثائرون فلم يكن فى جعبتهم الا أغنية : « اذا كان آدم يفلح الارض ، وحواء تغزل بالمغزل ، فمن يكون ذلك السيد الجنتلمان ؟ أما الفسيوقراطيون (١) الفرنسيون المتعلمون فقد طرقوا المشكلة بأسلوب علمي : تنادى المصلحون الفرنسيون قبل الثورة ـ وخاصة أبو ميرابو (٢) بالغاء الضرائب المفروضة على السلع وأن يستبدل بها ضريبة واحدة على الارض كوسيلة لتأميم الايجار أو الريع • وقد سخر فولتير (٣) من هذا الاقتراح حتى توارى أصحابه خجلا • وأوضح لهم أنه يترك ايجار رأس المال سليما لم يمس ، وبينما يتضور الاقطاعى جوعا يزداد صاحب البنك ثراء عما كان فى أى وقت مضى • ثم بعث هذا الاقتراح الى الوجود على أية حال ـ بعد قرن من الزمان فعرض بفصاحة غير عادية على لسان هنرى جورج (٤) الامريكى الذى انتشر كتابه « التقدم والفقر »

---

(١) Physiocvats مدرسة من مدارس الفكر الفرنسى فى القرن ١٨ كانوا يوصفون احيانا « بالاقتصاديين » Economists مؤسسها فرانسوا كويزنى وكانوا يضعون أهمية كبرى على الارض كمصدر للثراء وعلى فرض ضريبة واحدة على الارض • أخذ عنهم آدم سميث الذى أهدى كتابه ثروة الامم لكويزنى كما أخذ عنهم هنرى جورج فكرة الضريبة الواحدة • وقد سخر منهم فولتير

(٢) V.R Mirabeau الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى ومن الفسيوقراطيين وهو ابو « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية من مؤلفاته : كتاب صديق الناس L'amé dés hommes

(٣) Volotaire أو فرانسوا ـ مارى آرويه • ١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ الفيلسوف والكاتب المسرحى المفكر الفرنسى الساخر الذى طبع القرن الثامن عشر بطابعه حتى سمى قرن فولتير • ويعد بحق أبا للثورة الفرنسية مؤلف كانديد والقاموس الفلسفى • وكان من أول من فضح الاستغلال الرأسمالى لانه هو نفسه كان من كبار المضاربين

(٤) Henry George ١٨٣٩ ـ ١٨٩٧ صاحب مبدأ الضريبة الواحدة المؤدية فى النهاية الى تأميم الارض • تأثر به وبكتابه شو والفابيون اكثر من تأثروا بكارل ماركس

انتشارا واسعا وكان له الفضل فى لفت نظرى مصادفة للموضوع لاول مرة . غير ان مشكلة الارض كانت فى ذلك الوقت قد تطورت فأصبحت مشكلة سياسية لدرجة ان نقد فولتير للاقتراح سالف الذكر ، كان أقوى مما كان فى أى وقت مضى : اذ اتضح تماما ان الدولة اذا ما صادرت ريع الارض ولم تكن على استعداد لاستخدامه فى الحال كرأس مال عامل فى الصناعة ــ توقفت عملية الانتاج وجاعت البلاد . وعلى هذا بدأت حركة معينة تسمى « الاشتراكية » تتخذ سبيلها الى الظهور اى الدعوة الى تنظيم الصناعة بواسطة الدولة لصالح الشعب كله . وعندما اكتمل ظهور هذه الحركة ، كحل بديل للنظام الرأسمالى عمد الاقتصاديون الرسميون الى احاطة موضوع الايجار والريع بالتمويه والغموض

وفى تلك الاثناء كتب أحد الفرنسيين بحثا بعنوان : « ما هى الملكية ؟ الملكية سرقة » . فقال البسطاء السذج ما أسخفه! وقال أهل الجد بل مأخونه ! غير أن هذا الفرنسى « واسمه برودون (١) » لم يكن سخيفا ولا خائنا . لقد حلل الاوضاع القائمة وتبين ان الاقطاعى والرأسمالى ما داما يستهلكان دون أن ينتجا شيئا فهما يلحقان بالمجتمع نفس الضرر الذى يلحقه به اللصوص . وأوضح هذه النقطة نفسها الانجليزى جون راسكين ــ وهو احد الرجال العظماء المحترمين جدا ــ عندما لفت انظارنا الى ان هناك ثلاث وسائل ممكنة لكسب العيش فقط : (١) بالعمل (٢) بالتسول (٣) بالسرقة

وبعد ، ترى هل ملاك اراضينا لصوص ؟ يجيب على ذلك وليم موريس وهو أعظم الشيوعيين الانجليز قاطبة ، فى

(١) P. J. Proudhon ١٨٠٩ ــ ١٨٦٥ الاشتراكى الفرنسي واضع أسس المذهب الفوضوى من كتبه ايضا : فلسفة الفقر

صراحة غليظة : نعم ، لصوص ملاعين . انهم يعيشـــون من سرقة الطعام . غير أن دى كوينزى (١) وهو أكثـــر المحافظين التوريز حظا من اللباقة وذلاقة اللسان ، أطلق على الاقطاعيين اسم سادة الريف المهذبين Country gentlemen وشفع ذلك بقوله : « من من الناس اكثر منهم جدارة ؟ » أما ماركس فسماهم بورجوازيين ، وهو اسم اصبح الان عتيقا باليا لان البورجوازية الفقيرة قد حولها العمـــل التجارى الكبير الى طبقة بروليتارية ، أما البورجوازيـــة الغنية فقد امتصتها البلوتوقراطية . ووصفهم كيرنس (٢) وهو احد طلائع الاقتصاديين الانجليز بانهم « ذكور النحل فى الخلية » . أما أنا شخصيا فلا اسمى نفسى لصا ، فليست لى نوايا ومقاصـــد غير شريفة كما أن ليس من حقى ولا من سلطتى تغيير النظام الشرعى الذى اصبحت بموجبه وتحت ظله اقطاعيا من الاقطاعيين سواء شئت ذلك ام ابيته ، غير اننى كرست حياتى الســـياسية كلها لبث ونشر واذاعة تلك الحقيقة ســـالفة الذكر وهى اننى الحق بمستأجرى ارضى نفس الضرر الاقتصادى الذى يلحقه بهم اللص او النشال او ناهب المحـــلات أو قاطع الطريق أو أى نوع اخـــر من اللصـــوص . أنا لست بارونا لصا ، لاننى لست بارونا ، ولكنى لص فى واقع الامر لا شبهة فى ذلك ــ لاننى ارغم مؤاجرى على النزول لى عن جزء من ايراداتهم التى اكتسبوها بجهـد ومشقة دون أن أقدم لهم أو أن اكون قدمت لهم أية خدمة

---

(١) T. De Quinsey ١٧٨٥ ــ ١٨٥٩ أحد الكتاب الانجليز الذين تصدوا لشرح نظريات وأفكار الاقتصادى ريكاردو . ولكن أشهر مؤلفاته كتاب أدبى بعنوان : اعترافات آكل أفيون

(٢) J. E. Cairness ١٨٢٢ ــ ١٨٧٥ الاقتصادى الايرلندى من اتباع ستيوارت مل . من كتبه : قوة العبيد . وفيه دفاع مجيد عن قضية الشماليين الامريكيين أنصار تحريم الرقيق

كانت ، فى مقابله . أما أن تبعة هذا ومسئوليته لا تقع على ، أو أنه الى حد ما سوء حظ ابتليت به فلا يخفف عنهم من عبء دفع الايجار شيئا ، وأما كونى سددت الرهنيات وبسدادها اشتريت سلطاتى فى الاستغلال نقدا ، فهو بعيد كل البعد عن الموضوع ولا علاقة له به على الاطلاق فعلى اللص ان يتحمل ثمن الطفاشة والعتلة وبقية « عدته » التى يستخدمها فى السرقة

اذن كيف يتخلص الوطن منى ؟ لو اطلق الرصاص على أى تخلص منى بالطريقة التى تخلص بها مؤاجرو اللورد ليتريم منه فلن يجنى الوطن من ذلك شيئا الا ان يحل محلى أقرب الناس رحما الى فى حق التملك . ولو استولت الدولة أو البلدية على أرضى وألقت بى فى عرض الطريق فسوف يتطلب هذا الاجراء نشوب ثورة بلشفية حتى تضفى عليه الصفة الشرعية ، وسيحتاج الامر الى تشكيل ادارة حكومية جديدة تتولى تشغيل جميع الاقطاعيات والاراضى فى البلاد واعدادها للعمل بنظام تام حتى تحل محلى فى الادارة ، لان اول قاعدة من قواعد نقل الملكية الخاصة الى الملكية العامة هى أن يكون واضحا للحكومة كل الوضوح ، أنها لا ينبغى ان تقوم على مصادرة أى نوع من انواع الملكية الخاصة فى الارض أو فى راس المال ما لم تكن على استعداد تام لاستغلالها فورا وبنفس الكفاية الانتاجية التى كانت تدار وتستغل بها من قبل ، فاذا لم نزرع الحقل ، فلن تبور أرضه وتنمو فيها الاعشاب الضارة فحسب ، بل سينتشر البوار والاعشاب الضارة فى الحقول المزروعة المجاورة ايضا

أما الحل فى حالتى الخاصة ، فهو حل بسيط للغاية : ما ان يشعر المجلس البلدى فى المدينة التى تقع فيها أرضى ، بحاجته الى تلك الارض لاى غرض من الاغراض

مثل اقامة محطة قوى كهربائية أو حمامات عمـــومية أو مدارس أو مخزن للترام أو مركز للبوليس أو لفـــرقة مطافىء أو قاعة عامة جديدة للمدينة أو مكتب بريد أو مكتب عمل أو ما الى ذلك من المنشآت والمؤسسات العامة فكل ما يحتاج اليه المجلس هو أن يشترى الارض بقيمتها المحددة بالضريبة المفروضة عليها ، ويدبر المبلغ اللازم لذلك بفرض ضريبة على جميع العقارات الخاضـــعة للضريبة فى المدينة بما فيها قطعة ارضى . وهكذا تصبح قطعة الارض ملكية عامة دفع ثمنها جميع الملاك وانا منهم لا اتحمل اكثر من نصيبى العادل من عبء المصادرة ، وهذا الحل افضل من المصادرة بدون تعويض التى تتسبب فى خرابى وافلاسى فى الوقت الذى يفلت فيه زملائى الملاك الاخرين آمنين مطمئنين على املاكهم . ولن يكون هنـــاك أى شىء غير عادى أو غير مألوف فى العملية كلها : فالناس قد ألفوا شراء الاراضى وبيعها ، واعتادوا الضرائب التى تفرض عليهم وتتفاوت مقاديرها من سنة الى سنة . اما أنا ، فسوف يتعين على أن أبحث لى عن مجال جـــديد استثمر فيه ثمن الشراء ، فاذا كنت اشغل المكان ، تعين على أن أبحث لى عن بيت جديد أسكن فيه او محل جديد أتاجر فيه ، ولكن الجمهور لا يعير مثل هذه الامور اى اهتمام : فهى تحدث أمامه كل يوم ، لشخص أو لاخر

ولا تحتاج هذه العملية الروتينية فى الظاهر ، الا أن تتكرر وتتكرر حتى يتم نقل ملكية الاراضى كلها فى المدينة من الملكية الخاصة الى الملكية العامة ، وبذلك يتم القضاء على الملاك المحليين وقطـــع دابرهم وابادتهم ابادة تامة بصفتهم ملاكا ، وبلا ألم . ومن السهل اتخاذ مثل هـــذا الاجراء بين الحكومة وملاك الاقطاعيات الكبرى . فقد حدث بالقرب من المنطقة التى اسكنها ان اشترت احـــدى

الشركات الخاصة اقطاعية كبرى وانشأت فوقها مدينة سكنية ذات حدائق (جاردن ستى) ، ولم ترتفع بسبب ذلك قيمة الضريبة المفروضة عليها . واكتتب فى ثمنها المساهمون الفرديون ـ وكنت أنا شخصيا واحدا منهم ـ وعلى هذا أعتبر من أصحاب الاملاك البريطانيين زيادة على كونى من أصحاب الاملاك الايرلنديين . ولكن اذا شاءت الحكومة أن تجمع أمرها فى المستقبل على استغلال المدينة السكنية بطريقة أفضل وأنفع للصالح العام ، أكثر مما ننتفع بها أنا وزملائى المساهمين لصالحنا الخاص ، فانها بكل سهولة تستطيع أن تشتريها منا ، وتجمع المال اللازم لذلك بفرض ضريبة على دخول جميع أصحاب الاملاك فى البلاد . وهنا أيضا ، لا يحتاج الامر الا الى أن تتكرر العملية وتتكرر بما يكفى ليحقق فى الواقع ـ تأميما كاملا للارض بدون أى خروج أو انحراف عن مجرى الروتين العام للعمل التجارى والصفقات التجارية ، وبدون حاجة لاصدار أى تشريع ثورى ولا ذكر لكلمة التأميم أو لكلمة التعويض ، وهما كلمتان بغيضتان : الاولى يمقتها أصحاب الاملاك والثانية يمقتها المذهبيون أنصار التأميم

والعملية القانونية الوحيدة البديلة لهذا الاجراء ، هى أن يقوم الملك ـ ملك انجلترا ـ باسترداد الارض بمقتضى نص قانون اقطاعى قديم لا يزال قائما الى اليوم، وان كان منسيا باطل المفعول فى أغلب الاحوال . وكان آخر من مارس حقه فيه من الملوك ـ الملك هنرى الخامس(١) من خمسمائة سنة مضت واستفاد منه وليم الثالث (٢)

---

(١) Henry V ١٣٨٧ – ١٤٢٢ ملك انجلترا

(٢) William III ١٦٥٠ – ١٧٠٢ ملك انجلترا واسكتلندا وايرلندا

مكتبة الإسكندرية

بعض الفائدة منذ خمسين سنة . والقانون قائم على أساس أن جميع الاراضى من ممتلكات التاج . ولكن هذا الاساس انهار ولم يعد يتفق مع الحقائق العصرية ابتداء من سنة ١٦٤٩ . فضلا عن أنه لا يوجد ملوك ولا تيجان فى اكثر البلاد الاوربية وفى البلاد الامريكية كلها شمالا وجنوبا

أما البديل الثورى ، فهو اعلان يصدر بأن الارض ملكية عامة ، وقطع رءوس جميع الملاك الذين لا يتمكنون من مغادرة البلاد فى الوقت المناسب كما حدث فى الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، أو اطلاق الرصاص على العدد القليل منهم الذى يبدى معارضة ايجابية ، وترك بقيتهم الباقية لتكييف أوضاعها على أحسن ما تستطيع فى ظل النظام الجديد ، بعد أن تكون ايراداتهم قد هبطت الى الحضيض وانتزعت منهم بيوتهم كما حدث فى روسيا سنة ١٩١٧ . وفى كلتا الحالتين ، لم يسع الحكومات التى أقامتها الثورة، أن تصنع بالارض الزراعية شيئا، الا أن تعيد من جديد توزيعها على الفلاحين، وقليل منهم كانوا قادرين على زراعة الارض أو تنمية كفايتها الانتاجية . ولقد حلت اللعنة بالمزارعين الروس الصغار من الذين كانوا من قبل يكسبون الكثير من مزارعهم ويحرثونها بخيلهم مستخدمين فى ذلك فلاحين آخرين يستأجرونهم كعمال زراعيين ، ووصمتهم الثورة بأنهم « كولاك » وألقت بهم خارج مزارعهم الى حيث حل بهم الخراب . ولكن سرعان ما اضطرت الحكومة السوفييتية الى البحث عن هؤلاء الكولاك المطرودين ، بل واصطيادهم حيثما كانوا ووضعتهم من جديد على مزارعهم بنفس العنف الذى انتزعتهم به منها . ولكنهم كانوا قلة . وبقيت نحو تسعين مزرعة فى حالة رثة يعيش عليها ملاكها فى أكواخ

خشبية لا تتسع الا لسرير واحد .قذر تنام عليه أسرة كاملة ، تملك موقدا واحدا وشريطا صغيرا من الارض .
وكان هذا المستوى من المعيشة أقل من مستوى مزارع الكولاك بنسبة العشر . وحتى الكولاك كان مستواهم أقل بكثير من الامكانيات الحقيقية للارض . وفى النهاية ، تبين الفلاحون العاديون والكولاك أنهم كلما أنتجوا ما يفيض على احتياجاتهم ، أخذته الحكومة السوفييتية فى صورة ضرائب كانت تعتبر فى الواقع ربعا اقتصاديا كالذى كانت تفرضه على الملاك القدامى . وهكذا عمدوا الى ماشيتهم وخيولهم فقتلوها والى بذورهم فأتلفوها والى محاصيلهم فأخفوها قبل أن تحجز الحكومة عليها وفاء للضرائب .
بل عمد القوزاق الى افتعال مجاعات مصطنعة بهذه الطريقة ، واضطرت الحكومة الى تركهم يموتون جوعا

وأخيرا ، كان على الحكومة السوفييتية أن تتخلص من المزارعين الملاك سواء كانوا أكفاء أم غير أكفاء ، وأن تستبدل بهم المزارع الجماعية والمدن السكنية (جاردن ستى) .وحققت فى ذلك نجاحا سريعا وهائلا ، وضربت بذلك للعالم مثلا موضوعيا وعمليا ، اذ أصبح واضحا لكل ذى عينين أن ليس هناك ما يبرر التمسك بالخطة القديمة خطة ترك زراعتنا فى أيدى الفلاحين غير المتعلمين أو فى أيدى سادتنا الاقطاعيين الذين أسىء تعليمهم ، فكلهم متنافسون بدلا من أن يكونوا متعاونين ، وكل منهم يريد وينتظر منه أن يجمع في شخصه مواهب عديدة متعددة : مواهب الاخصائى فى الكيمياء الزراعية والبيولوجى فى الثروة الحيوانية والممول والخبير فى الاحصاء ورجل الاعمال والمحاسب وبالاختصار يريد وينتظر منه أن يجمع فى شخصه من المواهب ما يستحيل

أن يتجمع فى فرد واحد فضلا عن موهبة كرايتون العجيب (١) كما لم يحلم به أشد الكتاب اغراقا فى الخيال. ان الزراعة عمل من أعمال الفريق ، وليست بالعمل الفردى على الاطلاق . فليس فى وسع أى سيد ريفى اقطاعى ، وليس فى وسع أى مزارع مهما كانت مواهبه ، أن يؤلف من شخصه فريقا . أما فى المزرعة الجماعية فالعمل فى الفريق هو العمل الطبيعى الروتينى ..

ان مستقبل الارض الاقتصادى ، هو فى المزارع الجماعية والمدن السكنية . أما داعية الاصلاح الزراعى الذى تتلخص كل معلوماته عنه ، أنه مجرد تحويل الاقطاعيات الزراعية غير المستصلحة الى أملاك صغيرة للفلاحين ، وترك ملكية الارض فى المدن على ما هى عليه (وما أكثر أمثال هذا الابله) فلا ينبغى السماح له بأن يدس أنفه فى السياسة على أى وجه ، أو أن تكون له بها أى علاقة . وعلى أية حال ، فمن المستحسن من الناحية السيكلوجية ـ أن تخطط المزارع الجماعية والمدن السكنية بحيث تسمح لكل بيت برقعة أرض خاصة ملحقة به ، يلهو فيها أهل البيت ويزرعون فيها الزهور والخضروات ، أو يحتفظون فيها ببقرتهم الخاصة أو ما اليها ..

وفى الاتحاد السوفييتى نبهوا الى هذه الظاهرة الطبيعية فى الانسان ، وهى رغبته فى أن يكون له قدر معين من المعيشة الخصوصية فتنازلوا له عن ذلك القدر على الرغم من نجاح المزارع الجماعية ، فالخصوصيات (أى أن تكون للمرء عيشته الخاصة وبيته الخاص وأشياؤه

---

(١) Admirable Crighton بطل المسرحية التى بهذا الاسم تأليف ج . م . بارى « مترجمة ومقررة على مدارسنا الثانوية » ويقصد بموهبته القدرة الفائقة على التحول من شخصية الخادم المطيع الى شخصية الزعيم الآمر والعكس بالعكس ، وبسهولة تامة

الخاصة) تتيح للانسان فرصة الاهتمام بشؤونه المنزلية والعناية بها ، وهذه الشئون تختلف عن عمله بالزراعة أو بغيرها . واذا كان البيت الريفى القائم وسط المزرعة يستخدم الآن كمسكن ، فهو أبعد من أن يكون ملائما للحياة النموذجية المنشودة ، ويحدث فى بعض البلاد أن بعض العمال يسكنون بالفعل فى الورش والمسابك وفوق سطوح المحلات التى يعملون بها ، وتلك لعمرى حياة لا تطاق . ان مشكلة الارض فى جوهرها هى مشكلة الحياة الخصوصية كما هى مشكلة الحياة الاقتصادية المنتجة على قدم المساواة . فالحياة الخصوصية تنتج الاطفال ، والاطفال أهم من كل المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية ، وأهمية الاطفال مسألة حيوية لبقاء المجتمع ، كما أن التدبير المنزلى صناعة ضرورية لا غنى عنها . وليس من شك فى أن العادات العائلية سوف تتغير تغيرا عظيما كلما أثبتت الاجراءات الاشتراكية شيئا فشيئا أنها أكثر ملاءمة لها من الاجراءات الفردية . والاعتراضات التى توجه الى سكنى الفلاح حيث يعمل فى بيته الريفي ، والى سكنى العامل حيث يعمل في ورشته والصانع فى مصنعه ، يمكن أن توجه بنفس القوة الى سكنى الطباخ فىمطبخه والغسالة فى مغسلها وربة البيت فى البيت الذى هى ربته . وبالتدريج سيختفى وابور الغاز من المطبخ ، وطشت الغسيل من المغسل ، كما اختفى واندثر المغزل ذو العجلة والنول اليدوى ، وستنتشر الاندية والمطاعم والفنادق وبيوت الضيافة والمصحات ومنتجعات الراحة والاستشفاء والمدارس ودور الحضانة ، لكى تقوم بمهمتها الاساسية : الا وهى زيادة نصيب كل فرد من الحياة الخصوصية الحقيقية بنفس السرعة التى نعمل بها على زيادة التنظيم

الاشتراكى وتعزيزه

ان الابوة والامومة صناعة مرهقة للغاية ، وقد انتقلت فعلا والى حد كبير من اختصاص الآباء والامهات فى البيت الى اختصاص الهيئة المشرفة على التعليم فى المدرسة وعلى دور الحضانة : أى أنها انتقلت من ايدى الهواة الى أيدى المحترفين المتخصصين

ويشغل الاشتراكيون بالهم كثيرا بالتغييرات التى ستحدث أو يمكن أن تحدث فى هذه الناحية بحيث يغفلون عن الناحية الاخرى من الموضوع . فهم كلما أرادوا مناقشة موضوع الثروة الصناعية مثلا ، وضعوا فى أذهانهم ناحية واحدة منه فقط : كيف قضت القوة الهيدروليكية (قوة الماء) وقوة البخار على النول اليدوى وطردت البروليتاريا من أكواخ الريف والحقتهم بالمصانع حيث جعل نظام تقسيم العمل من المتعذر على أى عامل أن يتعلم مالا يستغرق أكثر من لحظة واحدة خاطفة من العملية الصناعية الطويلة التى يدخل فيها جمع المواد الخام وتصنيعها وتسويق الناتج من هذا التصنيع ، ثم ما لهذه الاوضاع من تأثير مدمر على الطبقات العاملة ؛ بأن أصبح العمال فى المدن الصناعية مجرد آلات ميكانيكية كالانسان الآلى (الروبوت) ، بمشاعر آدمية ، وكيف أنهم يقطنون عششا سكنية موبوءة بالامراض الفتاكة ؛ ويموت أطفالهم فيها كالذباب ، بينما تتزايد ثروات الاقطاعيين والرأسماليين ويتعاظم بذخهم وترفهم « بالقفزات والوثبات » كما قال جلادستون (١) فى وزارة

---

(١) W. E. Gladstone ١٨٠٩ ــ ١٨٩٨ زعيم الحزب اللبرالى البريطانى . كان وزيرا للمالية ورئيسا للوزراء أكثر من مرة . وهو من غلاة الاستعماريين الانجليز ــ بناة الامبراطورية . ففى عهده تم قمع ثورة الهند الكبرى واحتلال مصر وقمع ثورة المهدى بالسودان وبدات حرب البوير الاولى

المالية . وبدا كما لو كان من المقدور على الانسانية أن تعمل فى المصانع والورش والمناجم دائما مادامت القوة الجبارة التى تدير المغزل الميكانيكى والمطرقة البخارية لا يمكن تقسيمها أو توزيعها ، ومادامت أكبر من امكانيات أى انسان بمفرده فيما عدا الرأسماليين

غير أن هناك ناحية أخرى من الموضوع : فنحن الآن نعرف أن من الممكن تحويل قوة الماء وقوة البخار الى قوة كهربائية ، وأن من الممكن توزيع هذه القوة الكهربائية من بيت الى بيت كما يوزع الماء والغاز ، وتستخدم فى كل كوخ حيث يستطيع الطفل الصغير أن يضىء بها لنفسه طريقه الى فراشه بالليل ، ويستطيع الحرفى الصغير أن يسيطر من خلالها ، على شلالات نياجرا ليجعلها فى خدمة أدواته الميكانيكية . وأذكر الايام التى كنت استخدم فيها مقصا يسمى مقص الفتائل لتسوية شموع الشحم التى كنت أحملها فى يدى لتضىء لى طريقى الى فراشى بالليل، وأذكر مشاعل الزيت ذات الرائحة الكريهة التى كنت أطالع عليها فى الامسيات ، وأذكر كيف كشف على الطبيب وكحت أسنانى المتسوسة بشوكة عادية من الحديد ، ثم عشت حتى رأيت أسنانى (أو مابقى منها) وهى تنقر وتحفر بالكهرباء ، ورأيت شعرى (أو مابقى منه) وهو يحلق بالكهرباء ، وحجراتى وهى لا تضاء فقط بالكهرباء بل تكنس وينفض عنها الغبار بالكهرباء التى تدار من زر مثبت بالحائط . .

لقد كان لينين الروسى أول رجل من رجال الدولة يرى فى هذه الامور أكثر من مجرد بدع أو أعاجيب أو غرائب تثير الفضول ، فقد تبين أن الوسيلة الوحيدة لنشر الثورة فى روسيا هى كهربة روسيا . وبالسرعة التى تتم بها هذه الكهربة ، ستتحول هضاب الاستبس

الروسية ، والصحاري الاسيوية الشاسعة الى مدائن متحضرة مزدهرة خالية من العشش السكنية المزرية ، وسيصبح أهاليها القبليون المتوحشون حرفيين مهرة وصناعا مثقفين ..

وهنا ـ مرة أخرى ـ لم يشغل العالم الغربى نفسه بشيء الا بالمشروعات الكهربائية الهائلة التى يتم انشاؤها وتشغيلها فى الاتحاد السوفييتي ، مثل سد نهر الدنيبر والقنوات الجديدة والمصانع المشيدة بالصلب والزجاج التى تنتج عشرات الجرارات كل يوم ، وهذا كله من عمل جماعات مدربة من العمال ، يعملون بالتوجيه والارشاد والتخطيط . وقبل أن ينشر فى بلادنا البحث الكلاسيكى الذى كتبه سيدنى وب عن روسيا (١) ، لم نكن نعلم شيئا عن تلك البلاد ، بل حتى بعد ذلك التاريخ ، لم نتنبة الى أن الحرفى الفردى والحداد والنجار وصانع الفخار والنساج ومن اليهم من الحرفيين يمكن أن يولدوا فى روسيا أو بالاحرى يبعثوا من بين الموتى فى عهد الاشتراكية التى طالما اعتقدنا أنها تخنقهم فى المهد أو تقضى عليهم فيما بعد . أما ما لفت أنظارنا فعلا ، فأعمال البيت التى أصبحت تؤدى فى المطابخ الميكانيكية ، وبالمكانس الكهربائية ، وأنها قد فندت ما كان يقال قديما من أن « عمل المرأة فى البيت لا ينتهى أبدا » ، وبذلك اقامت التوازن بين الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية التى ظلت ومازالت تتعارض بشدة مع ظاهرة الحياة الخصوصية

---

(1) Soviet Communism. A New Civilization صدرت أولى طبعاته سنة ١٩٣٥ Sidney Webb ١٨٥٩ ـ ١٩٤٧ هو وزوجته بياتريس عن انشط وابرز الاشتراكيين الفابيين . وكان عضوا فى البرلمان وفى وزارة رمزى مكدونالد ونال لقب لورد ولكن زوجته رفضت مشاركته فيه . من مؤلفاتهما الاخرى : تاريخ الحركة النقابية ـ الديمقراطية الصناعية ـ الحكومة الانجليزية المحلية ـ ٦ اجزاء

فى ظل النظام الراسمالى ..

ومهما كانت أهمية الناحية الاجتماعية ، فليس ثمة خطأ أفحش من الخطأ الذى يقع فيه السياسى العصرى عندما تتسلط على ذهنه هذا الجانب وحده من مشكلة الارض . فهو لا يرى الا أن الحداد الذى يعمل لحسابه الخاص ويسوى حساباته مع الدولة عن طريق محصل الضرائب والمحاسب ، يلعب دورا اسياسيا أكبر من الدور الذى يلعبه الموظف البيروقراطى فى مصنع تملكه الدولة الجماعية . وهذا السياسى العصرى هو من طينة الرجل الانجليزى صاحب النزعة الفردية المتأصلة والتى لا شفاء له منها ، وكل منهما ينظر الى الدولة الجماعية دائماً نظرة الشك والريبة على طول الخط

أما أسبابى الشخصية للشك والريبة ، فعلى العكس من ذلك على خط مستقيم . ففى وسعى مزاولة حرفتى ككاتب مسرحى بيدى وبمفردى وفى عقر دارى أو فى أية جزيرة صحراوية منقطعة . وترتب على ذلك أن أصبح الكتاب والمؤلفون أعصى الناس على التنظيم بل هم أعصى على التنظيم من قطيع من الخنازير حتى ولو كان القصد من التنظيم حمايتهم والدفاع عن مصالحهم . فهم على الورق نماذج حية لكل فضيلة ، ولكنهم فى العمل فوضويون بوهيميون يميلون للشغب والنقار وتسيطر عليهم عواطفهم ويعجزون عن المناقشة بدون أن يفقدوا أعصابهم ، ويعتبرون كل اختلاف مع رأيهم اهانة شخصية موجهة لهم ، وأمراضهم هذه مزمنة مستعصية لا علاج لها ولا شفاء لهم منها . ولكن لما كانت الصحافة معدودة فى قبيل النشاط الاجتماعى ، فهى بصفتها هذه تعمل على تمدينهم وترويضهم وتهذيبهم . أما كتاب الروايات الرومانسيون الذين يقعدون بمفردهم لينظموا العالم من

وحى رءوسهم وبنات افكارهم لا يعارضهم معارض ولا يملى عليهم أحـــــد ، فلا يمكن بأى حال أن يتعلموا كيف يعيشـــــون فى مجتمـــــع ســـــياسى منظم مالم تتوفر لديهم بالفطرة الروح المرحة القوية ، وعلى رجال السياسة أن يحتملوهم وأن يتغاضـــوا عن سيئاتهم ويعتبروهم ضيوفا من عالم آخر . وتفسيرذلك فيما يبدو أن التحرر من الضغط الاقتصادى يتيح الفرصة للنزعة الفردية أن تنمو وتتضخم فى الاشخاص الذين لديهم حظ منها ولم يدربوا تدريبا خاصـــا ـ كالجنود ـ على الا يفكروا بأنفسهم ولانفسهم . والكتـــــاب فى ظل الرأسمالية ، ليسوا متحررين من الهموم الماليـــة ، بل هم أبعد الناس عن أن يتحرروا من الهموم المالية ، فليس ثمة شخص فى البلاد الرأسمالية ـ يقيم لمصالحه المادية أقل اعتبار ـ يجازف باتخاذ الادب حرفة له . واعرف مللا دينية من النساك المتعبدين يسود بينهم قانون الرهبنة الصارم ، بحيث يؤول كل بنس يملكه أى فرد فى الملة الى ملكية الجماعة تلقائيا ، بل قد لا يكون للافراد فيهـــا حق اختيار الزى الذى يرتدونه ، ولكن خبزهم اليومى مضمون لهم ، وأينما ذهبوا فمن حقهم التمتع بضـــيافة أبناء الملة ثلاثة أيام على الاقل ، وقد سألت صـــديقا لى ينتمى الى واحدة من هذه الملل عن الآثار السيئة التى تتركها هذه التعاليم فى أبنائها اذا كان ثمة آثار سيئة . ففكر لحظة ثم قال : أقول ، انها تنمى النزعة الفردية فى الانسان بدرجة مفزعة حتى ليصبح العضـــو فى الاربعين من عمره دجالا لا شبهة فيه .. وانه لشىء ممتـــــع كل الامتاع ، أن ننتظر لنرى هل ستحول الشـــيوعية أبناء روسيا الى شعب من الروبوت (الآليين) أم الى شعب من الدجالين

وفي ختام حديثي ، لابد لي من الالحاح على أن العقدة في مشكلة الارض هي النظرية الكلاسيكية للريع الاقتصادي التي خلع عليها فرديناند لاسال اسم القانون الحديدي للاجور ، (١) ولم يكن هذا القانون لسوء الحظ واضحا تراه العين ، مثل كروية الارض ، ومن ثم فهو مناقض للمنطق السليم ومخالف للاخلاق فضلا عن شدة تعقيده من الناحية الرياضية لدرجة انى أستطيع أن أجمع خمسين خبيرا فى نظرية « التكامل المتد » (٢) بأسهل من أن أعثر على خمسة من السياسيين يفهمون قانون الريع ويفسرون مشكلة الارض على أساسه . وليس فى استطاعة أحد أن يستخلص منه نتائج تزيد على مافى استطاعة شكسبير أن يستخلص من غزال الاوكابى(٣) أو الاكسولوتل (٤) انهم باختصار وبساطة ، لا علم لهم بأنه موجود . اما كارل ماركس فقد اثبت باشارة سخيفة اليه فى كتاب رأس المال ، انه لم يفهمه . وجون راسكين بعد ان بدأ حياته بداية مشجعة جدا كاقتصادى يفاضل ويوازن بين القيم التبادلية والقيم الانسانية ، اصطدم به وتوقف عنده وجمد تماما . ومع ذلك فقدكان لدى كارل ماركس وجون راسكين من الذكاء والثقافة والاهتمام بالمشاكل الاجتماعية اكثر مما لدى ثلاث او اربع وزارات كاملة من الوزارات المتوسطة واكثر مما لدى ثلاثة او اربعة ملايين ناخب من أوساط الناخبين ! لقد كان هذا

---

(١) Iron Law of Wages وهو أن الاجور تتجه فى ظل الراسمالية دائما نحو مستوى الكفاف أى الحد الادنى

(٢) Tensor Calculus مصطلح فى باب الرياضة البحتة

(٣) Okapi نوع من الغزال الافريقى المخطط اكتشف سنة ١٩٠٠ أشبه بالزرافة

(٤) Axolotl حيوان برمائى يعيش فى بحيرات المكسيك . وأين لشكسبير بهما ؟

القانون بمثابة الصخرة التى تحطم عليها مذهب كوبدن اللبرالى (١) ، وقام عليها صرح الاشتراكية أثناء الصراع بين البلوتوقراطية والديمقراطية . وما زلنـــا نعيش فى غمرة هذا الصراع فى الوقت الحاضر . ولما كان الاعلان عن كتاباتى والدعاية لها جزءا لا يتجزأ من طبيعة عملى ، فانى أرانى الان واقعـــا تحت اغراء شديد لان أضيف الى كـلامى ، أن أى شـــخص لم يطلع على مقـالتى عن الاساس الاقتصـــادى للاشتراكية وهى احدى المقالات الفابية ، فليتفضـــل وليسمح لى بأن أواصـــل الكتابة فى هذا الموضوع والتحدث عنه والاثارة السياسـية حوله والادلاء بصوتى له فى الانتخابات أى أن أواصل تأييده بأية طريقة تصل اليها يدى فى هذه البلاد التعسة

أما الذين يشكون فى أن القانون الحديدى اختراع من عندى ، اخترعته لتعزيز قضية الاشتراكية ، فيمكنهم أن يجتهدوا ليحصلوا أولا على المؤهلات التقليدية والشهادات الاكاديميـــة حتى يتمكنوا من هضـــم واستيعاب نظرية الريع المبسوطة فى كتاب ريكاردو : « مبادىء الاقتصـــاد السياسى والضرائب (٢) » الذى كتبه ريكاردو قبـل أن

---

(١) Liberal Cobdenism نسبة الى R. Cobden ١٨٠٤ – ١٨٦٥ السياسى البريطانى اللبرالى من اشد المتعصبين لمذهب حـــرية التجارة وعدم تدخل الدولة . وهو من زعماء مدرسة منشـــتر الاقتصادية

(٢) D. Ricardo ١٧٧٢ – ١٨٢٣ الاقتصـــادى الانجليزى الكلاسيكى . ونظرية الريع المشهور بها ، تتلخص فى انه بينما تميـــل الاجور الى الهبوط الى مســتوى الكفاف ، يبقى ريع الارض فى مستوى ثابت نســـبيا . ومن ثم زاد ثراء أصحاب الارض بزراعة المزيد من الارض بينما بقيت الاجور منخفضة . كتابه المشار اليه هو :
Principles of Political Economy and Taxation
وقد صدر فى سنة ١٨١٧ وجلب له الشهرة . فى وقت كانت فيه النواة الاولى للاشتراكية المثالية ، تتجمع فى انجلترا بجهود روبرت أوين الفردية

تعثر الاشتراكية لنفسها على اسم تتسمى به فى انجلترا ، ثم ينتقلون منه الى هضـــم واســـتيعاب نظرية القيمة التبادلية القريبة منها ، ثم عليهم بعدذلك هضم واستيعاب نظرية ستانلى جيفونز (١) فى الاقتصاد السياسى ، وستانلى جيفونز بهذه المناسبة هو الذى صحح اخطاء ادم سميث (٢) وكارل ماركس فى هذا الموضوع

---

(١) Stanley Jevons ١٨٣٥ ـ ١٨٨٣ الاقتصادى الانجليزى صاحب نظرية المنفعة Utility القائلة بان القيمة تحددها المنفعة ومؤلف كتاب The Theory of Political Economy ويستند اليها الفابيون الانجليز فى اكـــثر آرائهم الاقتصادية

(٢) Adam Smith ١٧٢٣ ـ ١٧٩٠ أبو الاقتصاديين الكلاسيكيين صاحب كتاب ثروة الامم (ترجم)

الفساد فى الدولة

بينما تتقدم الاشتراكية لتتخطى المرحلة النظرية الى مرحلة التطبيق ، تعمل على زيادة سلطات الدولة وافساح المجال لنشاطها ، وتعمل أيضا على افساح المجال للفساد لكي يستشرى ، كما تعمل على زيادة حجم السلب والنهب ان كان هناك سلب ونهب . فالاشتراكيون ينادون بتأميم وسائل الانتاج والتوزيع والتبادل ويستحثوننا على أن نعلم الناس ونستثيرهم وننظمهم جاعلين هذا الهدف نصب أعيننا . وهذا سليم تماما من الناحية الاقتصادية ، ولكنه أيضا يجعل الراسمالية والاستعمار أقوى مما كانا فى اى وقت مضى اذا تم التحول من المؤسسات الخاصة الى المؤسسات العامة ــ كما يحدث الان ــ على أيدى الرأسماليين والاستعماريين الذين تمولهم الدولة (الفاشستية) والذين يكافحون من أجل مصالحهم الخاصة ، بدلا من أن يتم التحول على أيدى الشيوعيين الذين يهدفون الى الصالح العام للمجتمع كله • وسبب ذلك أن من الممكن ــ وأنا أكرر ــ من الممكن تأميم

(*) الفصل الثلاثون من « الدليل السياسى للجميع » طبعة كونستابل سنة ١٩٤٩

وسائل الانتاج والتوزيع والتبادل واستغلالها بدقة أتم واحكام أشد بكثير مما كانت تستغل فى الوقت الحاضر بهدف زيادة الدخل غير المكتسب بالعمل ، وبهدف اعفاء أصحابه من الضريبة بينمـــا تزداد تكاليف المعيشـــة على البروليتاريا وتنقص الوســـائل المتـــاحة أمامهم لتحمل هذه التكاليف • ويشير « المتفـــائلون » بنشوة وجذل الى ارتفاع الاجور • فمثلا نرى أن أجـور العاملات فى المجهود الحربى قد ارتفعت من ٥ر٢ بنس فى الساعة سنة ١٩١٤ الى ٦ بنسات فى الساعة فى سنة ١٩٤١ ، وأصبحن يكسبن ٦ شلنات فى اليوم الذى يعملن فيه ١٢ ساعة بدلا من ٥ر٢ شلن • غير أن المرأة العاملة عندما تأخذ شلناتها الستة معها الى البيت يصـــادر صاحب البيت منها فورا ما بين ٨ ــ ٢٤ بنســا ، ثم تشترى بالباقى طعامها وثيابها بأسعار شديدة الارتفاع• لقد أعلنت الحكومة أمس (فبراير سنة ١٩٤٦) عن قيام الدولة ببناء ٦٠٠٠ مسكن للعمال الزراعيين على أن يكون ايجار المسكن الواحد ١٣ شلنا فى الاسبوع يدفعها العامل من أجره الذى لا يتجاوز ٤٠ شلنا • ان مثل هذا الايجار يعتبر ايجارا فاحشا حتى بعد ارتفاع الاجور

ولست بغافل عن احتمال اختفـــاء اصحاب الاراضى والاقطاعيين والضرائب المفروضة عليهم بعد ان تشترى الدولة جميع ممتلكاتهم على حســابهم كما اوضحت فى بحثى لمسألة التعويض عن المصادرة ولـــكن اصحاب الاراضى والاقطاعيين ، بعد أن يتجمع لديهم بصفة مؤقتة فائض من الاموال معـــد للاستثمار ، يتحولون الى رأسماليين وتتحول دخـــولهم غير المكتسبة الى فوائد بدلا من الريع والايجار ، وهو تحول لا يعنى شيئا بالنسبة للبروليتـــاريا • وتستطيع الدولة أن تشترى أمـــلاك

الرأسماليين ـ وربما اشترتها على حسابهم بنفس الشروط التى اشترت بها أملاك الاقطاعيين ، وتنقل الصناعة ـ كما نقلت الارض ـ الى ملكية الدولة ، وبذلك لايصبح الاغنياء القدامى اقطاعيين أوملاكا أو رأسماليين ، ولكن ما الذى يمنعهم من أن يتحولوا الى طبقة جديدة دائمة من الطفيليين الكسالى بذريعة أو بأخرى ، اذا ما تركت الدولة عملية توزيع الايجار والريع والفائدة والربح بين أيديهم ؟ من الممكن الغاء طبقة الملاك والاقطاعيين والرأسماليين وشطبها من الوجود بسهولة ، ولكن الريع والايجار والفائدة ستبقى تحت يد الحكومة ، وتستطيع الحكومة بنقل سيطرتها على الانتاج أن تستغل لوشاءت . فان توزيع الارباح ـ كتوزيع الايجارات ـ سيتم وفق هواها ومشيئتها : يمكنها أن تدفع المرتبات الضخمة والمعاشات الكبيرة لاعضاء البرلمان مثلا ، بما فيهم أصحاب الالقاب من البارونات السابقين الذين هم ـ فى الواقع ـ أصحاب تكايا يرتعون فى تكاياهم ولا يمكن زحزحتهم عنها ، ويمكنها أن تضع نظاما للامتيازات يتدرج من اللورد أو النبيل الذى يتقلب فى النعمة والبذخ ، الى العامل الكادح الذى يعطى له أجر الكفاف أو أجر الجوع ، جاعلة بذلك عملية التحول من الملكية الخاصة الى الملكية العامة ، تحولا الى الاسوأ

من الطبيعى جدا أن تكون هناك رغبة قديمة ـ لبرالية ـ فى بقاء المؤسسات والمنظمات السياسية الحالية بحجة أنها سوف تخلق لنا جنة الله على الارض بطريقة أوتوماتيكية أى بدون أن تحد الدولة من الحرية الفردية أو أن تأخذ على عاتقها مهمة نشر الافكار السياسية والدينية . والمنظمات والمؤسسات السياسية القائمة فى النظام الرأسمالى ، تستند فعلا الى الفردية المسيحية

التى تضع الروح الفردية أو روح الفرد فى مكان رفيع ، وتضع نفس الفرد الخالدة ذات الارادة الحرة كما خلقها الله وصورها ـ تضعها فوق السلطة الجماعية سلطة الدول الزمنية الزائلة ، والدول من صنع البشر فى هـــذه الدنيا ، وتعتبر حياتنا فى هذه الدنيا لا أكثر من رحلة عبور قصيرة مملوءة بالخطايا والاثام ، وجزء مؤقت فى رحـــلة الابدية ، ومع ذلك فليس ثمة شيء اسمه جنة الله على الارض ، جنة تأتى هكذا أوتوماتيكيا . قد تكون الدولة الاشتراكية دولة شريرة كأى دولة أخرى ، واليقظة الدائمة والرقابة الدائمة والحرص الدائم هى ثمن الاشتراكية كما أنها ثمن الحرية أيضا . لا يمكن أن يدفع فى الاشتراكية ثمن أقل من ذلك ، ومالم تقم اليقظة على الدراسة الجيدة ، ومالم تتزود الرقابة وأجهـــزة الرقابة تزويدا كامـــلا بالمعلومات ومالم يكن الحرص حرصا واعيا فقد ينجم عنها أقصى ضرر يتصــــوره الانســـان ، مع توفر أحسن النوايا وأشرف المقـــاصد . ومن الاسلم على اية حال أن ننبذ جميع النظـــم الاوتوماتيكيـــة ، لانهـــا ذرائـــع للكسل السياسي والبلادة السياسية ، وأن نتدبر وندرس ونفحص سائر النظم التي تحتوى على عنصر التوجيه اليومى والدراسة اليومية العلمية لجميع الامور . ان الاعتقاد بقدوم الخلاص أوتوماتيكيا ، قد حطم الرأسمالية تحطيما ، وقطع دابر الليبرالية الكوبدنية ولســـــوف يحطم الاشتراكية ويقطع دابرها بنفس الطريقة المفجعة اذا ما استسلمنا له وانخرطنا فيه

وعند التاريخ الدستورى ما يقوله فى هـــذا الشـــأن : ليس بالشيء الجديد أن تحتكر الحكومة الارض وتحتكر راس المال : ان احتـــكار الحكومة للارض وراس المال

موجود فعلا وفى وقتنا هذا بنص القانون . فمن الناحية القانونية ليس هناك ما يعتبر ملكية فردية للارض ، كل الارض ملك للملك ، ولا يضع أى شخص يده على قطعة ارض الا باعتبارها منحة من قبل الملك الذى يستطيع أن « يستردها » فى أى لحظة ، وحق الملك فى فرض الضرائب على رعاياه ، حق مطلق ، ليس له حد قانونى يحده ، ويقوم الملك فى الوقت الحاضر بمصادرة دخل أى واحد من رعاياه ولو كان أغناهم ، بل وما هو أكثر من ذلك : يمكنه أن يصادره بأكمله اذا كان الدفاع عن المملكة يحتاج الى ذلك . وهكذا تصبح الحكومة – بعد تنفيذ « نزع ملكية واضعى اليد » – الاقطاعى الوحيد والرأسمالى الوحيد وصاحب العمل الوحيد . ومن الممكن ان تتم عملية نزع الملكية فى نطاق القانون المعمول به حاليا . فقد انتزع هنرى الثامن (١) الاراضى من الكنيسة بدون ثورة، كما ينتزع وزير المالية الآن ما يساوى قيمة هذه الاراضى وغيرها من الاموال بقدر ما يستطيع ان يستخلصه منا ، وبدون اى تعويض يقدمه للرأسمالية ككل . ان القانون العام فى جوهره اشتراكى الى أبعد الحدود ، وينبغى ان يكون اشتراكيا بالفعل ، تماما كما ينبغى أن يكون كل قانون دستوريا فى جوهره وطبيعته

لماذا اذن تتحول الحكومة – عند التطبيق – الى حكومة معادية للاشتراكية على هذا النحو الذى لا يطاق ولا يحتمل ، مما يجعلنا نرى السخط الثورى يغلى كالمرجل فى كل مكان ، فى كل مكان ما عدا روسيا السوفييتية ؟

الجواب على هذا السؤال هو أن الملك ووزراءه الذين

---

(١) Henry VIII ١٥٠٩ – ١٥٤٧ ملك انجلترا

يمارسون سلطاته ليسوا اشتراكيين ـ لأهم ولا الذين أنتخبوهم ايضـــا . فهم يقدمون الاراضى والاقطـــاعيات للافراد لاستغلالها لمصلحتهم الفردية ، والى المزارعين الملتزمين بدفع الضريبـــة ، وهؤلاء وأولئك ينهالون على المواطنين يسلخون جلودهم بلا رحمة . ويلجأ وزراء المالية عندما يضعون ميزانياتهم الى فرض ضريبة مباشرة على الدخل كآخر حل فى جعبتهم بعد أن يستنفدوا كل مصدر آخـر من مصادر الايراد الى أقصى حد . واذا رفض رأس المال الخاص ان يتـــورط فى مشروعات لا تدر ربحا وان كانت ضرورية للبلاد (كالخدمة البريدية مثلا) تولتها الحكومات، ولكنها تبيع منتجاتها أو خدماتها بسعر التكلفة ، بل تربح منها وتستخدم هذه الارباح فى تخفيف عبء الضرائب عن اصحاب الدخول غير المكتسبة ، أو تعفيهم منها أعفاء تاما

تلك هى النتيجة المترتبـــة على تخويل الدولة حق استخدام أدوات الانتاج والتوزيع والتبادل مع ترك جهاز الدولة فى أيدى وزراء من اعداء الاشتراكية ، وزراء تعلموا فى مدارسهم ولقنوا فى بيوتهم أن التجارة الحرة والمشروعات الفردية هى الضمانات الوحيدة للازدهار والرخاء القومى، بينما يثبت الواقع المر انها انتجت الفقر والعبودية والبغاء والموت المبكر على أوسع نطاق مما دعا الى قيام الحركة السياسية التى تطلق عليها اسم الاشتراكية تسـاندها حركات شعبية أخرى نطلق عليها اسماء اللبرالية ، او الارض لمن يفلحها ، أو الفوضوية أو السندكالية أو ماعدا ذلك من الاسماء والشعارات التى تدل على فقدان الثقة بالدولة ..

ولنضرب مثلا ، وليكن مايفاخرون به دائما هو الغاء رق الارض فى بريطانيا وأمريكا : لو كنت أملك عبدا يبـاع

ويشترى أو أحد أرقاء الارض وكنت مسئولا عنه اعوله واطعمه وآويه بعد ان ينتهى من عمله ، وتحميه قوانين خاصة بتنظيم العبودية ورق الارض حتى لا أسيء استخدام سلطاتى المخولة لى عليه ، فأى شيء يجنيه هذا العبد أو ذاك الرقيق ، اذا ما ألقيت به فى الطريق ليتضور جوعا أو ليبيع نفسه لسيد آخر ، يبيع نفسه ولكن بعد أن يكتسب صفة جديدة : صفة « العامل الحر » ؟ لقد قدمت له فى كل التأكيدات بأن فى وسعه ان يختار سيده الذى يعمل عنده ، ولكنه بعد أن يتحقق من انه اما أن يعثر فى الحال على عمل ، واما ان يتضور جوعا ، سرعان مايدرك أن سيده هو الذى يختاره وليس هو الذى يختار سيده . وعندما فقد مالكه القديم حقوقه عليه كعبد رقيق ، أمكنه أن يطرحه فى الطريق كنفاية عندما لا يصبح اهلا لاستخدامه فى العمل . وقد لوحظ بعد الغاء نظام رق الارض الاقطاعى فى انجلترا ، أن الوفيات من الجوع تضاعفت ، وكانت الحال جديرة بأن تتفاقم الى مالا قبل للمجتمع به لولا أن صدر قانون الفقراء الاليزابثى (١) . واذا بالثورة الصناعية تجعل من الوفاة بسبب الجوع ظاهرة عادية ، تسجل بانتظام فى مكاتب التسجيل الى أن وقعت الهدنة التى انهت حرب السنوات الاربع (٢) . وبانتهاء الحرب ، لم يتمكن ملايين الجنود المسرحين من العثور على عمل ، مع خبرتهم فى استخدام الاسلحة الفتاكة ، وتقسية قلوبهم بأعمال الذبح

---

(١) Poor Law صدر سنة ١٦٠١ فى عهد الملكة اليزابث يلزم الابروشيات بتزويد الفقراء العاجزين عن الكسب بالمعونة المادية . وقد جرت عليه تعديلات فى سنة ١٨٣٤ وفى سنة ١٨٤٧ وفى سنة ١٨٧١ . وقد كانت ملاجيء الفقراء سبة فى جبين البلاد . وصفها ديكنز فى رواياته Laissez - Faire صاحب مذهب حرية التجارة

(٢) الحرب العالمية الاولى

وسفك الدماء ، وأعتياد بطونهم على الوجبات المنتظمة من لحم البقر . فاضطرت الحكومة الى تعزيز قانون الفقراء باعانة البطالة حتى لا يثور الجنود المسرحون ، وبذلك ضمت قطيعا من الطفيليين الفقراء ناقصى التغذية ، الى قطيع الطفيليين الاغنياء المتخمين

وهنا وقفت البروليتاريا وجها لوجه امام هذا الفساد وما قد يتمخض عنه ، وهتفت تقول ومعها كل الحق : « هذه هى نتيجة تأميماتك الظافرة واستنكارك لمدرسة منشستر (١) بمذهبها الخاص بحرية التجارة ، ونتيجة المظاهرات التى قامت بها جمعيتك الفابية لبيان الامكانيات الاقتصادية الهائلة التى تنطوى عليها مشروعات الدولة بما تتضمنه من تأميم أدوات الانتاج والتوزيع والتبادل ! ها هم أولاء الرأسماليون يزدادون ثراء على ثراء بالتأميم بل لقد ازدادوا ثراء عما كانوا عليه فى ظل حرية التجارة . وها هى ذى الايجارات التى لم تكن تطاق ، ترتفع الان ويزداد عبئها علينا . وها نحن أولاء نستغل بلا رحمة كما كنا نستغل فى أى وقت مضى . شكرا ، شكرا لك على لا شىء . شكرا لك على ما هو أقل من لا شىء . الى الشيطان انت واشتراكيتك الدستورية التى تصك آذاننا بالوعود ثم ما أسرع ما تخيب آمالنا : أيها الفتيان: انشدوا نشيد المارسيلييز : «الى السلاح ايها المواطنون» !

ولكن المارسيلييز لا ينقذ الموقف ، ولم يثبت قط أن فى القتل والذبح والتخريب علاجا ناجعا لعيوب السياسة واساءة استخدام السلطة السياسية ، أو أن فيها علاجا دائما ، بل ثبت انها غالبا تزيد خطورة المرض . ثم ان الخوف من هذه العيوب وما قد تجر اليه ، ربما منع الحكومات

---

(١) Manchester School مدرسة الاقتصاديين الكلاسيكيين الانجليز فى أربعينات القرن الماضى

الفاسدة من دفع رعاياها الى حافة اليأس ، وفى أيامنا هذه ، نرى أن جانبا كبيرا من الفساد القائم ، هو فساد غير مقصود وعفوى لدرجة ان الحكومات نفسها لا تعرف حقيقة أمره ، ولا كيف تعالجه . فاذا ما ووجهت بثورة عنيفة أمرت البوليس بأداء واجبه واستدعت قوات الجيش واعلنت حالة الحصار التى يوقف فيها العمل بجميع القوانين ماعدا القانون العسكرى ، ويكال للمتمردين بنفس كيلهم . ولو تمكن المتمردون ــ كما حدث فى الثورة الفرنسية ــ من الحاق الهزيمة بالحكومة في تلك المعركة ، سرعان ما يتبينون أن ما يعرفونه عن طريقة تحسين الاحوال ، هو أقل مما كانت تعرفه الحكومة المهزومة، وقد اثبت « حكم الارهاب » المنافس للحكومة الرسمية أنه حكم عقيم « كالارهاب الرسمى » الذى تسبب فيه سواء بسواء . ان الارهاب لا يولد الا الارهاب المضاد ، ثم الارهاب مرة اخرى الى مالا نهاية كالحلقة المفرغة . كان المتعهد الرسمى للمقصلة أثناء حكم الارهاب فى الثورة الفرنسية هو فوكيه تونفيل . فلما دارت الدائرة عليه وارسل هو نفسه الى المقصلة لقطع راسه ، استقبل شتائم الجمهور بأن صاح فيهم من فوق العربة « الكارو » التى كانت تنقله الى ساحة الاعدام قائلا : « أيها التعساء ! هل سيرخص ثمن خبزكم غدا ؟ » وغدا ارتفع ثمن الخبز . لقد دارت الدائرة على الجمهورية لا على فوكيه ..

ان الامانى البطولية والرغبات المخلصة والشجاعة والتضحية وسفك الدماء الذى لا يفلت منه احد ، كلها اشياء لا جدوى منها ، بل هى اسوأ من ذلك عندما لا يعرف المتنازعون مصدر العيب ولا كيف يعالجونه

ومع ذلك يعتقد كثير من الاشتراكيين أن الحكومة

الاشتراكية غير قابلة للفساد ، بينما هي في الواقع اكثر تعرضا للفساد من الحكومة غير الاشتراكية لانها تختلف عنها في أنها تستخدم سلطة الدولة ومالية الدولة في تنمية الانتاج الصناعي والزراعي ، ولا تترك المنتجين وشأنهم ، قاصرة نشاطها على العمل البوليسي وفي حدود الخدمات الضرورية التي لا غنى عنها أو التي لا تدر بطبيعتها أرباحا تجارية أو التي تتجاوز اقصى امكانيات رأس المال الخاص – ومن الواضح أن هذا التوسع الهائل في سلطة الدولة ومجال نشاطها يحمل معه توسعا هائلا في احتمالات اساءة استخدامه . .

فالاغنياء والبلوتوقراطيون لا يزالون هم سادة الموقف : أقوى واغنى بكثير من أي وقت مضى لانهم تعلموا الدرس من الفابيين وحولوه ليخدم مصالحهم . صحيح ان مفهومهم عن النظام الراسمالي ضئيل ومحدود كمفهوم الاحزاب البروليتارية عن النظام الاشتراكي ، ولكنهم لم يكونوا في حاجة الى تغيير مقاصدهم ونواياهم ، ولا الى تربية اقتصادية خاصة تجعلهم يتبعون حاسة الشم الغريزية فيهم التي تمكنهم من وضع أنوفهم ثم أيديهم على الثغرة التي تأتي منها الارباح ، وبهذه الحاسة الغريزية أمكنهم أن يثروا ثراء فاحشا وأن يضاعفوا سطوتهم حتى لم يعد هناك من يقاومهم بعد ان تخلوا عن مبدأ حرية التجارة واستبدلوا بالشركات الخاصة المتنافسة والاموال الخاصة والايرادات الخاصة ، شركات الدولة ومؤسسات الدولة وايرادات الدولة. قرر الفابيون في برنامجهم أن من الضروري ان ترصد الارباح لمنفعة وفائدة البروليتاريا ولكن العناية الالهية لم يكن لها يد في هذا البرنامج ، فقد كان انتاج الدولة وموارد الدولة ومدخرات الدولة في يد

فرعون مثلما كانت فى يد فابيوس «أوشافيوس» (١) .
أما الدكتاتوريون الذين بدأوا اول أمرهم اشتراكيين، فقد أطلق الرصاص عليهم، أو سجنوا، الا اذا تمكنوا من وضع ايديهم على ما يكفى من الاموال لانشاء جيش نموذجى جديد يرتدى القمصان السوداء أو البنية ، وكما قدر من قبل على الفابيين القدامى أن يصبحوا أدوات فى أيدى الزعماء النقابيين الذين استغلوهم ليقفوا على أكتافهم الى البرلمان ثم قضوا عليهم سياسيا بعد ذلك ، قدر على الدكتاتوريين أن يصبحوا ادوات فى أيدى الاغنياء البلوتوقراطيين ليجمعوا لهم الاموال ، ولولا ذلك لما كان لادولف هتلر ان يصبح دكتاتورا يملى أوامره على أحد ، بل كان حريا أن يكون طريح الشارع تصفر من حوله رصاصات البلوتوقراطيين (٢)

هكذا كانت الاوضاع عندما بدات أنا ـ اخط مستقبلى السياسى : كان شعار الرأسماليين بالنسبة للدولة : « ارفعوا أيديكم عن الصناعة ! ارفعوا أيديكم عن الزراعة! ارفعوا ايديكم عن البنوك ! ارفعوا أيديكم عن صناعة السفن وعن المناجم وعن كل شىء ما عدا السياسة الخارجية وتعهد البوليس حماية الملكية الخاصة ! » وفى باث سنة ١٨٨٨ عندما وقفت أنادى بضرورة تأميم الارض فى اجتماع للجمعية البريطانية ، هب احد اساتذة الاقتصاد السياسى والاخلاق هو هنرى سجويك الذى لم يعرف عنه من قبل انه فقد السيطرة على اعصابه أو رفع صوته على أحد قط ، هب واقفا وصرخ بأعلى صوته : « ان الدعوة الى تأميم

---

(١) يشير المؤلف الى نفسه ساخرا . وهو من مؤسس الجمعية الفابية

(٢) يشير الى محاولة هتلر الاولى لقلب نظام الحكم ، وفشلها فى سنة ١٩٢٣ ، قبل أن يحتضنه الرأسماليون الالمان

الارض دعوة للجريمة ، وأنه لا يسعه ان يشجعها بحضوره . » ولم يكتف بمغادرة المنصة ، بل خرج من القاعة وصفق الباب وراءه بعنف . ولم اتمكن من اقناع اصدقائه وعارفيه الذين لم يحضروا الاجتماع ، بأنه قادر على ان يغضب مثل هذه الغضبة الصاخبة . ولكن كلمة التأميم كان لها فى نفس ذلك الرجل تأثير اللغم المتفجر ، وهو من أرق الرجال طبعا واكثرهم دماثة

اما فى ايامنا هذه الحاضرة ، اذا بشعار الرأسمالى يصبح : « أمموا ماتشاءون ..! اجعلوا البلديات ومجالس البلديات تسيطر على ما تستطيع السيطرة عليه ! حولوا محاكمكم الى محاكم عسكرية وبرلماناتكم ومنظماتكم السياسية الى مجالس ادارة ! وعينوا فيها اكثر الخطباء شعبية و ديماجوجية ولكن بشرط ان يؤول الينا الايجار والريع والفائدة والارباح كما كانت تؤول الينا من قبل ، وعلى شرط ان تبقى البروليتاريا صفر اليدين لا تنال الا لقمة الكفاف »

هذا هو الفساد الاعظم أو البلاء الاعظم فى الاشتراكية ، وهو ما نجد انفسنا أمامه وجها لوجه فى الوقت الحاضر . انه يسمى نفسه فاشية فى ايطاليا واشتراكية وطنية فى المانيا (واختصارها نازية) ونيوديل فى الولايات المتحدة ، أما فى انجلترا فقد بلغ من الذكاء ان بقى بغير اسم ، ولكنه فى كل مكان يعنى نفس الشيء : انتاج اشتراكى وتوزيع غير اشتراكى . وعلى هذا فالبروليتاريا تكون فى ظله كالمستجير من الرمضاء بالنار : لان الفاشية ـ وهى مختصر رأسمالية الدولة ـ بعد آن تكون قد وزعت على البروليتاريا بعض المنافع بالشح والتقتير ، ووفرت بعض الوظائف البيروقراطية لافراد لم يكونوا من قبل غير اصحاب عمل عاديين ، ثم شددت الخناق على بند الخدمات العامة ،

وواصلت الدعوة الى عبادة الدولة (المسـماة بالدولة الجماعية أو الشمولية والتى ستؤدى منطقيا الى الدولة الاشتراكية الحقيقية فى الوقت المناسب) . بعد ذلك كله ومع ذلك كله ، تسببت فى اشعال حرب عالمية تتحارب فيها الفاشية الانجلو ــ امريكية مع الفاشية الالمانية ــ الايطالية، لان للفاشية طابعا دوليا بينما لايزال الرأسماليون وطنيين متعصبين . فعندما تقدمت المانيا لنشر الفاشية فى جميع ارجاء الكرة الارضية ، تحت حكم الفوهرر أدولف هتلر ، وحاولت ايطاليا نفس المحاولة تحت حكم بنيتو موسولينى ، بذل الفاشيون الانجلو ــ أمريكان جهدهم لاحباط هذه المحاولات ، ولكى تذهب المانيا وايطاليا الى الجحيم قبل ان يرضخوا هم لاى فاشية ليست من صنع ايديهم ، وقبل أن يسيروا تحت لواء فوهرر الا الفوهرر الخاص بهم . لقد حاربوا الاجانب كما حارب اسلافهم نابليون عندما استهدف اقامة ولايات متحدة اوروبية ، ووضع الحكم المحلى فى ايدى ابناء اسرة بونابرت ومارشالاته خصوصا المتزوجين منهم من شقيقاته . ومن الملاحظ ان الفاشـيين ينقسمون الى فريقين : فريق يريد ملاءمة الفاشية مع النظام البرلمانى الحزبى القديم المحصن ضد الثورات ، وفريق يرى ان الفاشية تستلزم وجود منظمات سياسية جديدة ، لانها لا يمكن ان تنمو وتتطور بغـير حكومة نشيطة سريعة البت والتنفيذ ، ومن ثم ينبغى التخلص من نظام الاحزاب والوظائف المدنية التى على غرار وظائفنا الجامدة المكبلة بتقاليدها وروتينها ولجانها، العاجزة عن تحمل المسؤولية والتى تعد فى الواقع تكايا للموظفين العاجزين عن مسايرة الزمن

ولو ان هؤلاء المتحاربين ذوى النظر القصير الكليل ، قدروا موقفهم حق تقديره أو حتى اهتموا قليلا بالتقاط

فتات السياسة الحقيقية ، لاتحدوا معا ضد الاشتراكية الديموقراطية الحقيقية : اشتراكية الاتحاد السوفييتى ، وسووا خلافاتهم فيما بعد أى عندما ينتهون من تقسيم روسيا فيما بينهم • ولكن الحال هو ما نراه الآن : أتحد الفاشيون الغربيون مع روسيا القضاء على الفاشيين فى وسط وجنوب اوروبا ، واتحدوا مع الصين الشيوعية لهزيمة اليابان الرأسمالية

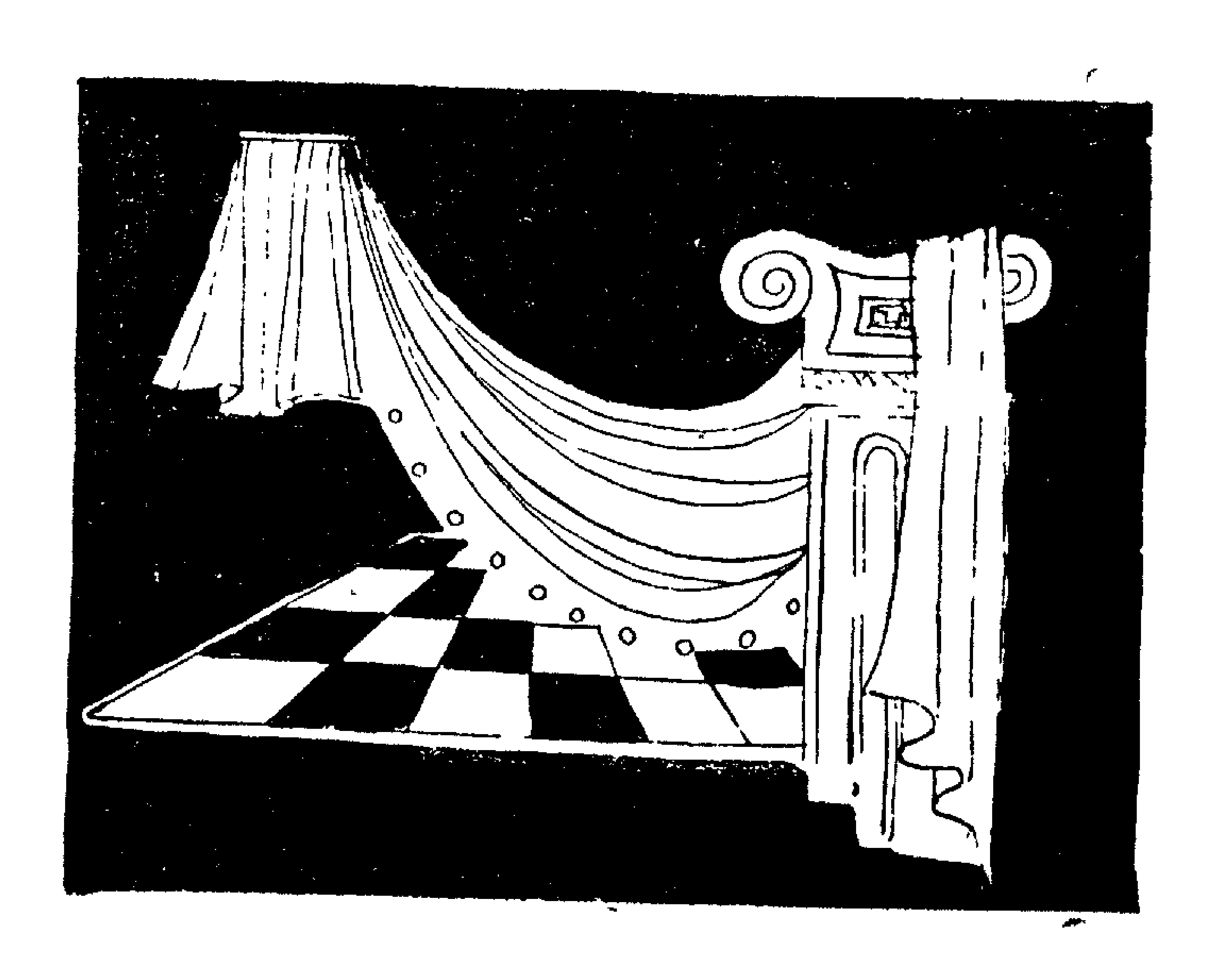
مثل هذه التناقضات المحيرة ، ستنتهى الى حل نفسها بنفسها بأن يحارب كل فريق فى الجانب الذى ينتمى اليه : البلوتوقراطية أو حكم الاغنياء ، ضد الديموقراطية أو حكم الشعب ، والفاشية ضد الشيوعية ، والانتاج الاشتراكى سيكون ملائما لكل من الفريقين ومحققا لاغراضهما • كيف يميز المواطن اذن ، بين الفاشية والاشتراكية الشيوعية فى التطبيق اليومى ؟ فهو يسلم نصيبا كبيرا من دخله لمأمور الضرائب ومحصل العوايد ، لكى تستخدمه الدولة كرأسمال صناعى منتج ، من اين له أن يعلم ان حصيلة ذلك ستعود عليه فى شكل خدمات أو سلع أو أجور أو الثلاثة معا ؟ وانها لن تمنح للمبذرين أصحاب الامتيازات لتمكنهم من حياة البذخ غير المنتجة على حسابه ؟ فاذا كان هو نفسه واحدا من هؤلاء المبذرين أو يطمع فى ان يكون واحدا منهم ويريد ان يجرب حظه تحت لواء الفاشية ، كيف له أن يتأكد من أن عكس ذلك هو الذى سيحدث ؟

لا يمكن الاجابة على هذه الاسئلة بنظريات مشحونة بالمصطلحات العامة التى تقارن بين مزايا اللبرالية القديمة أو رأسمالية التجارة الحرة ، وبين راسمالية الفاشية وبين الشيوعية الديموقراطية • فالاحزاب الفاشستية والاحزاب الشيوعية تدعو الى نفس الاجراءات التاميمية

والى سيطرة الدولة أو المجالس البلدية على المؤسسات وتدعو بالمثل الى استبدال رأس المال العـام برأس المال الخـــاص ، والرقابة الادارية العـــامة بالرقابة الادارية الخاصة ، كما يتفق الفريقان على أنه لم يعد من الممكن افتتاح منجم جديد أو انزال باخرة جديدة الى البحـر بدون معونة الدولة وتدخل الدولة . وتجتاح الفلاحين والعمال الزراعيين الان موجة من الاندفاع نحو الزراعة الجماعية والمزارع الجماعية ، بحيث لم يعد فى وســعنا أن نميز بين الشىء ونقيضه : بين مبدأ التجارة الحـــرة ومبدأ لينين الخاص بالسياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P. الذى طبق ، فى سنة ١٩١٢ ، وبالاختصار عندما تصبح الوســائل هى نفس الوســائل والاساليب هى نفس الاساليب ، ولكن الاهداف تختلف اختلاف الابيض عن الاسود ، لن تنفع الناخبين أية نظريات ، ولكن عليهم ان يحصلوا على مزيد من المعرفة عن الفساد وكيف يستشرى فى الواقع العملى ، وكيف يمد جذوره فى كل مكان ، عليهم ان يحصلوا على هذه المعرفة والا سرعان ما يكتشفون انهم انما يدلون بأصواتهم فى الانتخابات من اجل سلخ جلودهم وقطع رقابهم

الفصل الثانى

- فى أمـــريـــكا .
- شو وداروين - الداروينيـة .. وضبط النفس .
- شوودارويـن - التطورفى المسرح .



فى أمــريكا

... لم يكن الاخ جوناثان (أو العم سام) ــ وهـــو القروى البريطانى المنفى عن بلاده ــ أمريكيا قحا ،بل كان مهاجرا من بلاد أخرى ، ولم تكن له من المميزات الامريكية الا اسم يانكى ، ولم يتلق من التعليم الا مايقدمه المبشر المسيحى للغلام الزنجى ومايلى ذلك من ثقافة أوليـــة : هذا هو الامريكى القديم الذى عاش على هذه الارض منذ ٧٥ سنة مضت .

وقضى هذا الامريكى وقتا طويلا يحاول أن يفعل ماتفعله أوروبا ، ولكن بطريقة سيئة للغاية ، كما لابد لى أن أنبه الى أنها كانت أيضا باهظة النفقات جدا . غير أنه ظهر الى الوجود فى نهاية المطاف ، طراز اخر من المواطنين الامريكيين يختلف اختلافا مذهلا عن الاخ جوناثان ، بل يختلف اختلافا

(*) من محاضرة القاها شو فى دار أوبرا متروبوليتان فى أبريل سنة ١٩٣٣ بدعوة من أكاديمية العلوم السياسية والمحاضرة مطبوعة فى كتيب بعنوان : « مستشفى المجاذيب السياسى فى أمريكا والوطن القريب » فى أكثر من ٦٠ صفحة

مذهلا عن أى طراز آخر من الناس الذين يمشون على ظهر الارض . ولنبدأ فى وصفه شكلا : كان انسانا مفـرطا فى البدانة والجسامة ، وفيما عدا أنه بدين جسيم ، يصعب وصفه جدا

كان ماردا جبارا : شخصا على أعظم درجة من المهابة . اذا لقيته خيل اليك انه شخصية هامة آمرة ، شخصية فيها شىء ما . ولكنك لاتستطيع أن تفهم ماهو هذا الشىء كان متحدثا فحلا ، بليغا فصيحا يطلق الحكم والامثـال الرائعة ، خطيبا مصقعا ، يصرخ ويزعق فى الاجتماعات ، ويتسيد المدعوين على موائد الغذاء وعلى أوسع نطاق . ولكنه لم يكن يقول شيئا . كانت بلاغة مجردة ،وفصاحة من أجل الفصاحة ، وهى فرع من مدرسة الفن للفـن . وكنتم اذا استمعتم اليه تحيونه وتهتفون له بحمـاس وتشعرون أن شيئا ما سيحدث فى نهاية الامر ، ولـكن هذا الشىء لم يحدث قط

كان شخصا من النوع «المدوى» الصاخب كالطبل الاجوف اذا كان لى أن استخدم هذا التعبير . كان جبارا ضخما ولكنه كان خاليا من أى شىء جديد أو مختلف لدرجة اننا كنـا ونحن فى أوروبا نترنح مذهولين من هيله وهيلمانه ، ومن خلو ذلك الهيل والهيلمان من أى معنى على الاطلاق . وكنا نقول : ترى ماسر هذا الرجل الهائل الجبار الذى يتحـدث بكل هذه الفخامة وليس لديه ما يقول ؟ هـذا الرجل الذى يتمتع بذهن شديد الحيوية ، ولكنه فى نفس الوقت فارغ شديد الفراغ ، لانه لايبدو عليه أن يعرف أى شىء له أى مدلول . هو دائما جهير الصـوت يجعجـع عن التفاهات ويقتبس من الشعراء بصوت عال كالرعد لا لشىء الا ليؤكد بديهية لا تحتاج الى تأكيد أو يشير الى شىء مبتذل أو حديث معاد

وأراني الان واقعاً تحت اغراء شديد لان أذكر أحدمشاهير الامريكيين ــ وقد مات منذ فترة ــ كان يمثل هذا الطراز من الناس أصدق تمثيل · ولكن لا حاجة بي لان أسميه باسمه لانكم جميعا تستطيعون او الناجحون منكم في الحياة على الاقل ــ أن يقولوا : أجل ، هو بلا شك يعني فلانا عضو الكونجرس أو فلانا النائب أو أية شخصية شهيرة لم تنتخب بعد

والان ، ترى أى عيب يعيب هذا الطراز من الرجال ؟ أقول ان عيبهم أن ليست لهم ركائز ثقافية يرتكزون عليها ليست لديهم أية نظرية عصرية شاملة عن المجتمع ، بل ليست لديهم أية نظرية أمريكية عن المجتمع الامريكي · واذا جاز لى أن أستعير تعبير صديقي البروفيسور ارشيبالد هندرسون (١) عالم الرياضيات قلت انه ليس لديه « اطار للمراجع » (٢) يستند اليه ، وليس لديه مسلمات علمية من أى نوع . هو طراز من البشر معلق في الهواء ، ومن ثم لن تحصل منه الا على الريح ·· وان كانت والحق يقال ريحا عاتية زاخرة الى حد رهيب

مثل هذا الطراز من الرجال ، هو مانتج عن شخصيات العم سام الغريبة ، وهو الطراز الموجود الآن في أمريكا واذهل الدنيا بصفته الامريكي النموذجي الامريكي القح أو الامريكي مائة في المائة . كان نموذجا فريدا لا مثيل له في الرجال · لقد طوفت في الافاق كثيرا ، ولكني أشهد

(١) Prof. Archibald Henderson الكاتب والعالم الرياضي الامريكي صاحب مؤلفات عن شو منها Playboy and Prophet وصاحب الدعوة الموجهة لشو لزيارة أمريكا B.S. Table - Talk of G. B.S.

(٢) Frame of referance مصطلح رياضي مترجم في بعض قواميسنا العلمية بمناط الاستاذ وهو على حسب معجم المجمع اللغوى : مايتخذ مرجعا يتعين بالنسبة اليه مواضع النقط

انى لم أر فى أى بلد آخر شبيها بهذا الامريكى القح ، الامريكى مائة فى المائة

ذهب هذا الامريكى يستعرض نفسه فى أوروبا كسياسى متشدد صلب الرأى ، ولقى هناك فشلا ذريعا ، وكان فشله بصفة خاصة كسياسى متشدد صلب الرأى . وكان عيبه أنه كان سياسيا بلا دستور سياسى يرجع اليه فى أفكاره المتشددة وارائه الصلبة. ولو أنك قلت له ذلك الان ، لاوشك أن يغمى عليه من الدهشة اذا كان من اللائق للمارد الجبار أن يغمى عليه ، ولكان حريا أن يقول: «ماذا . ؟ أليس لى دستور سياسى ؟ أليس هناك شىء اسمه دستور فى أمريكا ؟ هل انت مجنون ؟ امريكا عندها الدستور الامريكى على سن ورمح · أمريكا تتحدث دائما عن دستورها »

واذا كان المخاطب انجليزيا يفتقر الى الفطنة رد عليه بقوله : « حقا ان أمريكا تتكلم دائما عن دستورها ، ولكنها تتناول هذا الدستور بالتعديل من آن لآخر ، ومن ثم فهو يبدو دستورا ناقصا لم يستكمل بعد على غير ماتظن . » والحق أنكم اذا فحصتم الدستور الامريكى لوجدتم أنه ليس فى واقع الامر دستورا ، ولكنه تعهد بالفوضوية . انه ليس أداة للحكم بل بمثابة تعهد للشعب الامريكى بأنه لن يحكم أبدا ، وهذا بالضبط هو مايريده الامريكيون

... لقد أقمتم فى غمرة فزعكم من الدكتاتوريين وحكم الدكتاتوريين مجتمعا كل رئيس وردية فيه دكتاتور وكل ممول دكتاتور وكل صاحب عمل دكتاتور ، ويضع كل هؤلاء الدكتاتوريين حياة العمال ومعاشهم تحت رحمتهم تماما ، ولا يشعرون نحو المجتمع الذى يعيشون فيه بأية مسئولية عامة ، ولكى تقيموا رمزا لهذه الاوضاع ، رمزا يعبر عن فشل كل انواع الحكومات فى بلدكم ،

نصبتم فى ميناء نيويورك صنما بشعا تسمونه « الحرية»
ان الشيء الوحيد الذى ينقص هذا التمثال ، أن تخطوا
على قاعدته العبارة التى كتبها دانتى على باب جهنم :
« ياداخل هذا المكان ، ودع كل أمل ! »

... أرسل لى أمريكى بارز ــ لن أذكر اسمه ــ خطابا تلقيته صباح أمس يقول فيه :

... بالله لا تحكم على الولايات المتحدة ببؤرتيها الموبوءتين : « هوليوود ونيويورك » ولم أدهش لذلك ، فهوليوود هى اشد بقاع العالم منافاة للاخلاق · ولكنكم لن تفهموا مرادى من هذا القول . ففى اللحظة التى استعمل فيها عبارة منافاة الاخلاق ، يبدأ كل أمريكى فى التفكير فى ملابس السيدات الداخلية . لذلك أرجوكم ألا تظنوا أنى أعنى بعبارتى ، ذلك الشيء الضرورى جدا الذى يسمى جاذبية جنسية ، وهو شيء مرغوب فيه الى أقصى حد فى المسرح والسينما ، بشرط أن يعالج معالجة حسنة ، ويستخدم كأداة تربوية حقيقية بقدر المستطاع

كلا ، ان ماتدعو اليه هوليوود ، وتفسد به الدنيا أيما افساد، هو دعوتها الى الفوضوية. ان هوليوود تضع أمام جمهورها من الاطفال سلسلة من الابطال الشبان محاطين بهالة من المجد والعظمة ، وكل منهم فوضوى يميل الى العنف ولا يتردد فى استخدامه ، جوابه الوحيد على كل شيء يزعجه او يمتهنه او يمتهن بلدته أو أبويه أو فتاته او قانونه الشخصى الذى صاغه لنفسه عن الرجولة والفحولة ·· ان يناول الشخص الذى أزعجه أو امتهنه او أساء اليه ، لكمة فى الفك

انى لاتساءل لماذا لاترفعون قضية على مؤسسات الافلام لانها تحرض شبابكم على الاخلال بالنظام وتعكير

صفو الامن ؟ لماذا تصفقون وتهللون لابطال الشاشة هؤلاء الذين ترونهم دائما مشغولين بكيل اللكمات للناس فى الفك عندما لايكونون مشغولين فى تقبيل البطلة ؟ انها جريمة يعاقب عليها القانون ، ان تلكم مواطنا من مواطنيك فى فكه . متى نرى فيلما أمريكيا يصدر من هوليوود ، ويتصرف فيه البطل تصرف انسان متمدن — وبدلا من أن يناول خصمه لكمة فى الفك ، يستدعى رجل البوليس ؟ هأنذا الاحظ أنكم استقبلتم كلامى ببرود وامتعاض . ولعلكم تحسبون أن استدعاء رجل البوليس فى الافلام على هذا النحو ، سيكون شيئا مملا يبعث على الضجر ..ولكنه لن يبعث على ضجركم واملالكم ايها السيدات والسادة ، بقدر مايضجرنى ويضجر كل انسان متمدن ذلك السيل الذى لا ينقطع من اللكمات فى الفك ، حاولوا بربكم أن تتخلصوا منها . وفوق كل شىء ، حاولوا أن تتخلصوا من النزعة الفوضوية الجاهلة التى تكمن وراء هذه اللكمات ، وتقول للرجل أن فى وسعه أن ينفذ قانونه الاخلاقى الخاص بقبضة يده ، وان يعتبر نفسه قاضيا ومحلفا وصاحب الدعوى ..

... أنا مسلم بأن أوضاعكم الراهنة ليست مشجعة(١) فالبروليتاريا عندكم متعطلة عن العمل ، ومعنى تعطل البروليتاريا عن العمل ، ان نظامكم الرأسمالى متعطل عن العمل . ويستطيع أى خبير من خبراء العلم السياسى أن يقول لكم ان المبرر الوحيد لبقاء نظام الملكية الفردية فى الارض ورأس المال — وهو النظام الذى تعيشون وتعملون فى ظله الان — هو أنه يضمن للجماهير العاملة أعمالا ووظائف بصفة دائمة (والاقتصاديون الراسماليون يقدمون الحجج

(١) كانت الولايات المتحدة فى ذلك الحين سنة ١٩٣٣ تمر بذروة أزمتها الاقتصادية الكبرى المسماة « بالكساد العظيم » ١٩٢٩—١٩٣٤

والبراهين على صحة ذلك ، ولكنها حجج وبراهين مصاغة على الورق ببراعة) ، مع أن النتيجة الحتمية لهـــذا النظام ، انه يخلق طبقة صغيرة من الملاك ، طبقة فاحشة الثراء وهي في نفس الوقت طبقة كسولة بليدة متطفلة لا تعمل وانما تعيش على كد الجماهير التي لا تملك شيئا ، ولا تحصل الا على خبز الكفاف ، ولكن النظام الرأسمالي (كما يقول الاقتصاديون الرأسماليون) يضمن لهذه الجماهير خبز الكفاف على الاقل وبصفة دائمة . اذن لابد من أن تتوفر الاعمال والوظائف للمتعطلين ، ولابد للعاملين من ان يحصلوا ــ على خبز الكفاف مقابل عملهم

فاذا ما حنث النظام الرأسمالي بعهده ، وخاب أمـل البروليتاريا فيه (وبالرغم من تأكيـــدات الاقتصـــاديين الرأسماليين فان نظامهم لم يف قط ولا في أية لحظة بهذا العهد ولم ينفذه قط ولا في أية لحظة التنفيذ الكامل) ؛ ولم يزد عدد المتعطلين عندكم عن النسبة القديمة التافهة نسبة الـ ٥ ٪ في بعض المهن ، ٨ ٪ في بعضها الاخر ، ٢ ٪ في غيرها فقط بل زاد وتضاعف عدد المتعطلين حتى أصبحوا يقدرون بالملايين ــ هنا ــ يكون النظام الرأسمالي كله قد توقف وتعطل فعلا عن العمل ، وتكون مهمتكم العاجلة ، بل أشد مهامكم الحاحا أن تبحثـــوا لكم عن نظام آخر افضل منه

فاذا نحن تركنا البروليتاريا الامريكيـــــة وشأنها ، فما خطب الفلاحين الامريكيين ؟ ان فلاحيـــكم مفلسون ، وهم الان في حالة ثورة مسلحة . وحتى صحف بـلادكم تخبركم بذلك لو قرأتموها بعناية مع العلم بأن الصحف في جميع البلاد المتمدنة في الوقت الحاضر ، تصدر من أجـل تحقيق غرض واحد : هو اخفاء الحقيقة عن الجمهـور ، وخاصـة اذا كانت متعلقة بمثل هــذه الامور . وماذا عن

أصحاب الاعمال الامريكيين ؟ عندما كنت شابا صغيرا ، كان صاحب العمل فى امريكا هو سيد الموقف فى الصناعة. كان يستخدم البروليتاريا لحسابه الخاص ، ولتحقيق ربحه الخاص . وكان يستخدم أرض صاحب الملك ويدفع له ايجارا . وكان يستخدم رأس مال الرأسماليين ويدفع لهم فوائد . اما ماتبقى فهو ملكه الشخصى الخاص . وبذلك كانت جميع المشروعات التجارية فى البلاد فى يديه . كان صاحب العمل فى ذلك الوقت ، هو بلا نزاع فارس الحلبة فى جميع الجمهوريات الصناعية . وكان فى استطاعة اى رجل يفك الخط ويعمل حساب الدوبية ويتمتع بنصيب معقول من المقدرة على ادارة الاعمال ، أن يبـــدأ حياته كصاحب عمل برأس مال صغير ادخره بنفسه او اقترضه من اسرته او من اصدقائه

ولكن كل هذا راح وانقضى . صاحب العمل اليــوم بروليتارى ينتمى الى البروليتاريا . انه مجـــــرد مدير مستخدم ، يعيش بمرتب أو بماهية مع نسبـــة مئوية لتشجيعه على العمل لحساب الاخرين بنفس الهمـــة والنشاط والجهد الذى كان يعمل به لحسابه الخاص . لقد كشفت الاختراعات العلمية عن طرق جـديدة لجمع الثروة ، طرق تستلزم اقامة منشآت هائلة الحجم تتكلف مبالغ أسطورية من رءوس الاموال . كان صاحب العمل القديم رجلا مهما جدا اذا كان فى وسعه ان يتحـــكم فى رأسمال قدره خمسة آلاف دولار . اما اليوم فالدولارات اللازمة لمجرد الشروع فى بعض المشروعات التجـــارية الكبرى تعد بمئات الملايين ، وصاحب العمل القديم عاجز كل العجز عن العثور عن مثل هذه المبالغ الجسيمة أو عن منع المشروعات التجارية الكبرى من ابتلاع المشروعات الصغيرة . وهكذا سقط صاحب العمل من عليائه ،وأصبح

لا حول له ولا قوة ، خاضعا لسلطان طبقة جديدة من الناس حرفتهم واختصاصهم أن يجمعوا له هـــذه الملايين من الدولارات : تلك هى طبقة المولين . والمولون هم سادة الموقف وفرسان الحلبة فى الوقت الحاضر . انهم يديرون دفة بلادكم وهم فى هذا الوقت بالذات يدفعون بها نحـــو الهاوية ، ومع ذلك لازلتم تتركون لهم ادارتها

ولكى أقنعكم بمدى خطورة الموقف الذى تقفــه بلاد تسمح للممولين الفرديين أن يحكموها وأن يتحكموا فيها ، أرجو ان تسمحوا لى بأن أبين لكم أى طراز من الناس ذلك الممول . ان الممول هو النقيض المباشر لرجـــل الدولة . الممول يفكر دائما فى شخص واحد بمفرده عنده مبلغ من المال ، وما يمكن هذا الشخص أن يفعله بماله فى الوقت المناسب حسبما يشاء . ولكن رجل الدولة يضع دائما فى اعتباره ملايين الافراد سواء كان لديهم أموال أو ليس لديهم شيء ، وما يمكن أن يرغموا بقوة القانون على فعله كل يوم سواء شاءوا ذلك أم أبوه . هذه هى الطريقة التى ركبت بها عقلية الممول التى تسير وفقا لعادات ثابتة تجعله عاجزا عن ادراك وجهة نظر رجل الدولة الذى يتعـين عليه فى كل خطوة تشريعية يخطوها أن يقول لنفســه : «هذا شيء ينبغى على كل شخص فى البلاد غنيا كان أم فقيرا — أن يقوم به فى نفس الوقت ، لو أصدرت هذا القانون »

والان أقول ان هناك أشياء يستطيع شخص معين أن يقوم بها ، ولا يستطيعها كل شخص بصفة مطلقة . مثـــال ذلك : لنفرض انك تملك معاشا صغـــيرا — ولتبسيط الامر سأضع رقم ٥ دولارات فى السنة قيمة لهذا المعاش . وسوف تقول : ان معاش الدولارات الخمسة فى السنـــة ليس بالشيء الكثير ، وأفضل عليه مبلغا كبـــيرا أفك به ضيقتى او ابدأ به مشروعا تجاريا صغيرا . وبناء عليه ، تذهب

الى الممول الذى تعرفه والمسمى سمسار بورصة وتقول له : « انظر يا فلان . أنا عندى ايراد ثابت مقداره خمسة دولارات فى السنة وأريد أن أجمع لنفسى مائة دولار نقدا. هل يمكنك أن تحصل لى على مائة دولار مقـــابل ايراد الخمسة دولارات فى السنة ؟ » وسيجيبك السمسار على الفور قائلا : « بكل تأكيد . المسألة سهلة تماما . كل ما على هو أن آتيك بشخص عنده مائة دولار فائضة على انفاقه ، ويريد مبادلتها بايراد خمسة دولارات فى السنة يضمها الى ايراده الثابت . لا شىء أسهل من ذلك . انها عملية تتـم كل يوم »

وول ستريت والبورصات والاسواق المالية وماليها ، ليست أكثر من أسواق يتبادل فيها الناس ايرادات ثابتة بأموال جاهزة أو سائلة وبالطريقة التى شرحتها بالضبط فائض النقود عند شخص ، يشترى له ايرادا اضافيـا يضمه الى ايراده الثابت . والايراد الثابت عند شخص آخر ، يشترى له مبلغا مجمدا من النقود السائلة أو الجاهزة للانفاق . اما الاغلبية الساحقة من الناس التى لا تملك ايرادات ثابتة تبيعها ولا أموالا جاهزة تستغنى عنها ، فلا أحد يعبأ بها على الاطلاق ...

وهكذا يكتسب الممول المحترف الذى يقوم بهذا النوع من الصفقات التجارية طول الوقت والذى تدرب عقله فى البورصات وصبت روحه فى قالب وول ستريت، يكتسب عادة ثابتة هى عادة الجلوس على مكتبه والامساك بقـلم وورقة ، ويضع رقما يمثل جميع موارد البلاد ويضربه فى عشرين . وهكذا ترون ان العملية تتم على هـذا النحو : فبالنسبة له ، كل شخص عنده خمسة دولارات فى السنة يساوى مائة دولار . وهو متأكد من صحة هذه المعـــادلة تماما لانه يعرف انه يستطيع فى اية لحظة أن يذهب الى

سوق المال وأن يجمع مائة دولار بمبادلتها بايراد خمسة دولارات فى السنة ، ويعرف أيضا أن حاصل ضرب خمسة فى عشرين يساوى مائة . وتلك هى المسألة كلها !

والان ، ماذا يحدث عندما تجعلون من رجال المال رجالا للدولة ؟ انهم يعتقدون ان أول واجباتهم هو معرفة مقدار الضرائب الذى يمكنكم أن تتحملوه . ولذلك ، عليهم أن يعرفوا مقدار الثروة التى تحت أيديكم ليفرضوا ضرائب عليها . وهكذا يصدرون امرهم الى أحد الكتبة ليحسب لهم ثروة الولايات المتحدة برمتها . وفى الحال يستنتج الكاتب حساب ضريبة الدخل أى الايراد الاجمالى للبلاد كلها ، فيضربه فى عشرين ويقدم حاصل الضرب على انه الثروة الموجودة فى الولايات المتحدة ، اى الثروة المعدة لفرض الضرائب عليها . ولما كان رجل المال يفتقر الى عقلية رجل الدولة فهو ينسى دائما ان القانون اذا دفع جميع أصحاب الايرادات الثابتة الى بيع ايراداتهم فى نفس الوقت ، تحولت البورصة الى سوق يوجد فيه بائعون ولا يوجد مشترون ، وستصبح قيمة أموالهم وأوراقهم المالية « زيرو » فقط لا غير .. !

معنى هذا ان رجال المال يعيشون فى عالم الوهم . فهم يعتمدون على شيء وهمى يسمونه رأس مال البلاد ، وهو ماليس له وجود ، وكل خمسة دولارات يحسبونها مائة دولار ، ومعنى هذا ان كل راسمالى وكل ممول وكل صاحب بنك وكل سمسار هو ٩٥ فى المائة مجنون . وأنتم الان ، وفى الواقع ، تتركون مصير بلادكم فى ايدى هؤلاء المجانين !

... أنتم تصفقون لى . ومع ذلك هذا هو ماتفعلونه ببلادكم الآن بالضبط . ان أول حرف فى الفباء العلم السياسى يقول لكم ان أول شيء يجب عليكم أن تفعلوه

للخروج من أزمتكم الحالية ، هو ان تؤمموا بنوككم . حسنا والله تفعلون ! لماذا لا تؤممونها الآن فورا ، بدلا من مجرد القعود والتصفيق لى ؟!

... ولا يفتأ رجال المال يدفعونكم دفعا للمخاطرة ويزجون بكم الى مجازفات رهيبة ، ستنتهى بتدميركم حتما ، لو أصررتم عليها . ولكن ، لا تلقوا باللوم على رجال المال . فهم مخلصون وشرفاء ووطنيون . انهم يصنعون هذا الصنيع بمشروعاتهم التجارية والمالية ، ويرون انها طريقة ناجحة وفعالة . ويحسبون ـ قياسا على هذا ـ انها لو طبقت على مشروعات شخص آخر ، فلابد أن تنجح وأن تثمر . ولعل هذا يحفزكم بل يحتم عليكم أن تربوا سلالة من رجال الدولة ، ليحلوا محل رجال المال فى حكم بلادكم

ولأضرب لكم مثلا فريدا : لقد خضنا معا غمار حرب عالمية فى أوروبا . وأقرضتم أوروبا نحو خمسة مليارات من الدولارات بضمان انجلترا . وماذا جنيتم نظير ذلك ؟ تدمير ثلاث امبراطوريات ، وحلول النظام الجمهورى الامريكى كنظام قومى نموذجى ، محل الحكومات الملكية فى اوروبا . ان معظم ملوك أوروبا الآن فى المنفى مطرودين وبقيتهم هم من تسمونهم ملوكا دستوريين ومعناه أنهم ليسوا ملوكا على الاطلاق وبذلك يتمتعون فى عروشهم الوهمية بوقت طيب وبشعبية بين مواطنيهم تدخل السرور على قلوبهم . وانا أقول ان هذه الثمرة التى جنيتموها نظير نقودكم ، كانت عادلة تماما . ولكن هناك أمرا آخر ، ستكون له اهمية أكبر من ذلك فى المستقبل : ذلك أنكم انقذتم روسيا . وأستنتج من تصفيقكم اننى وجدت على الاقل ، بعض الامريكيين الذين يعلمون أنهم أنقذوا روسيا

عندما سقطت القيصرية ، حاولت روسيا أن تجرب شكل حكومتكم فأقامت ماتسميه جمهورية بورجوازية.

ولكن البلاد كانت في حاجة يائسة لاعادة بنائها . ولم تستطع الجمهورية البورجوازية أن تصنع شيئا الا أن تتكلم وتتكلم كالكونجرس تماما ، فسقطت بلا حول لها ولا قوة ، عندما قبض البلاشفة على زمام الموقف وفرضوا حكومة ايجابية حقيقية على بلادهم الحائرة . وكانت أمام البلاشفة مهمة مروعة تواجههم : روسيا بسكانها البالغ عددهم مائة وستون مليونا من الفلاحين الجهلة نصف المتوحشين الذين لا يعرفون شيئا عن التطور الصناعي العصري ، ولا كيف يديرون الماكينات . كانت هناك قبل الحرب صناعة صغيرة ، ولكنها كانت كلها في أيدى أفراد من الانجليز والبلجيكيين والايطاليين والالمان . ومع ذلك عندما اضطر الحكام الروس الجدد الى انقاذ هذا الحشد الهائل من السكان من المجاعة والجهل والتوحش والقذارة والعبودية ، تبينوا أن ذلك متعذر عليهم ، ما لم يضعوا في روسيا أسس صناعة الالات الحديثة بكل وسيلة ممكنة ولم يكونوا يعرفون كيف يحققون ذلك . أيتجهون — في طلب التعليم والتدريب — الى مستغليهم السابقين من الانجليز والبلجيكيين والايطاليين والالمان ؟ كلا . وهكذا بومضة من ومضات الالهام اتجهوا الى امريكا . . وانقذتهم امريكا بفضل توجيه وارشاد وتعليم مهندسيكم الامريكيين الاكفاء . ولم يتملقهم المهندسون الامريكيون ، بل جاءوا وشاهدوا وقالوا لهم : « حالتكم تدعو الى الفزع . ومحاولاتكم لبناء صناعة آلية حديثة لا رأس لها ولا قدم ، هي مجرد فوضى مفجعة . ومن رابع المستحيلات أنكم ستخرجون يوما ما من هذه الفوضى . يمكننا أن نقول لكم ماذا عليكم أن تفعلوه ، وطريقة فعله . ولكن هل يستطيع فلاحوكم غير المدربين تنفيذ ما نشير به أم لا . . تلك مسألة أخرى » . وهكذا قال المهندسون

الامريكيون الاكفاء للروس . وأنا أعرف شخصيا الامريكي الذى حمل الى موسكو ذلك التقرير الذى يستوقف النظر جدا ، ويتضمن كافة المعلومات المطلوبة فى هذا الشأن .
وقد مر هذا السيد بلندن وهو فى طريقه الى موسكو فوضع تقريره تحت أنظار بعض الخبراء الانجليز . وأضاف الخبراء الانجليز بعض المقترحات القيمة ، ولكنهم قالوا :
« هل تظن أن الروس سيتحملون منك هذا التعريض وهذا الفضح لجهلهم وعدم كفايتهم ؟ اذهب وسلم لهم تقريرك ، وسوف يسلمونك للبوليس ليعبر بك الحدود فى اليوم التالى . لا شك سيمنعون هذا التقرير من التداول ، ولن يسمع به أى شخص بعد ذلك »

وهنا قال مواطنكم الامريكى الذى كان يمثل شركة امريكية مقتدرة : « هذا لا يعنينى فى شيء . لقد دفع الروس ثمن كتابة التقرير ، وسوف نعطيه لهم ويمكنهم أن يفعلوا به ما يشاءون ، يمكنهم ان يمنعوا نشره وتداوله كما تفعل أية حكومة انجليزية أو امريكية فى مثل هذا الموقف ، ولكنهم على أية حال سيحصلون على البضاعة التى دفعوا ثمنها ، وسيحصلون على بضاعة جيدة »

وقد اخطأ الخبراء الانجليز . ففى خلال ثمان وأربعين ساعة من تسليم التقرير فى موسكو أمر الروس بطبع عشرة الاف نسخة منه ، وبتداولها على أوسع نطاق ، بل اخذت مكبرات الصوت التى ركبوها فى جميع أنحاء البلاد تصرخ مذيعة التعليمات والارشادات الواردة فى التقرير ، وتقول للعمال الروس بوجوب وقف كل تبديد وكل تعطيل وكل خطأ فى العمل ، وان عليهم ان يتعلموا كيف يديرون ماكيناتهم وكيف يعتنون بها . ودعى العمال الامريكيون الى روسيا ليعلموا العمال الروس فنون العمل فى المصانع ، ودعى المديرون الامريكيون ليعلموهم ادارة المصانع . والان

الامر بات كما تعرفون ــ فقد شمر الروس عن سواعدهم واجتازوا أزمتهم بالرغم من ان المعلمين الامريكيين قالوا ان من الصعب أن يتصور الانسان ان ذلك كان ممكنا فى تلك الظروف . وتلاحظون أيضا ان المنتجين الروس كانوا متحررين من ذلك الاحتكاك المروع الذى تولده المنافسة والذى يضيع علينا الكثير فى بلادنا حيث يتقاتل كل مدير مع الاخر من أجل الربح ، وحيث ينقسم كل مصنع على نفسه بسبب الصراع الطبقى . لقد شمر الروس عن سواعدهم واجتازوا ازمتهم لانهم شمروا عن سواعدهم معا واجتازوا ازمتهم معا . وكانت النتيجة أنهم أصبحوا الان احدى الدول الصناعية الكبرى فى العالم .. والفضل لامريكا ..

قد يقول بعضكم بصراحة : « هذا شىء يملأ نفوسنا غبطة ، على نحو ما . ولكن هل قصدنا بالضبط الى هذه النتيجة ؟ » أقول ربما كان الجواب على هذا السؤال هو بالنفى .. ولكن الا تكون البصيرة السياسية العمياء التى اعطيتم حظكم العادل منها ، هى التى حملتكم على ذلك من حيث لا تشعرون ، وأرشدتكم الى الصواب على الرغم منكم ؟ وعلى أية أحوال ، فلقد ساعدتم فعلا على وضع اسس النظام الشيوعى فى روسيا . والان ، أقول لكم ان من المهم جدا لكم أن تستمر الشيوعية فى روسيا وأن تبقى . والا هل تدبرتم، أيها السيدات والسادة ، حالتكم وكيف تكون فيما لو عادت روسيا بكل مالديها من موارد وامكانيات جديدة .. لتصبح من جديد دولة رأسمالية استعمارية ؟

لقد كنا جميعا فى أيام شبابنا المبكر .. نخاف من روسيا خوف الموت . كنا نتحدث عن ارادة بطرس الاكبر كأنها

ارادة الله . ولقد صنع مستر رديارد كبلنج (١) شهرته كشاعر وطنى ، وبطل مكلل الهامة بالغار عندما هاجم فى شعره الدب الابيض الكبير وشنع عليه وصوره فى صورة القوة الغاشمة التى تهدف الى وضع مخالبها على الهند تمهيدا لوضع مخالبها على آسيا كلها ثم السيطرة على العالم بأسره . وانى لاحب ان أسأل السادة المغفلين قصار النظر الى درجة خبيثة ، ممن يملئون الصحف الامريكية تشهيرا بروسيا ويرددون كل أنواع الاكاذيب السخيفة عنها ، زاعمين ان الشيوعيـة الروسية قد أفلست وان الشعب الروسى يتضور جوعا ، أحب أن أسألهم ماذا تظنون أنكم فاعلون ؟ هل تريدون أن تعود القيصرية مرة أخرى ؟ وبصرف النظر عن قيصر او لا قيصر ، هل تريدون اقامة نظام رأسمالى روسى ينافس نظمنا الرأسمالية على الاسواق المتبقية لدينا ؟ هل تريدون أن تحفروا القبر الذى دفنت فيه الشيوعية ، الدب الابيض وتعيدوه الى الحياة بمخالبه الرهيبة بعد أن تضاعفت حدتها ورهبتها عشرات المرات ؟

ترى ماذا تكون النتيجة اذا مانجحت مساعى هؤلاء السادة المغفلين ؟ افرضوا أنكم أطحتم بالمستر ستالين كما أطاح الحلفاء الملكيون بنابليون فى سنة ١٨١٥ واستبدلوا به دوقا أو ارشيدوقا من أسرة ملكية ، وحكومة من الدبلوماسيين «دقة قديمة» من المتعاونين مع أصحاب أملاك «دقة قديمة» والواقعين جميعا تحت سيطرة رأسماليين

---

(١) Rudyard Kipling ١٨٥٦ — ١٩٣٦ شاعر الاستعمار البريطانى الاكبر المتفنن بالامبراطورية وصاحب شعارات « عبء الرجل الابيض » و « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » ولعله لفرط حماسته، كان المؤذن على قرب خراب الاستعمار واضمحلال الامبراطورية الوشيك . وخاصة فى قصيدته Recessional

« دقة قديمة » ، ليقاتلوا معا فى سبيل أسواق جـديدة ــ ولكنهم فى هذه المرة سيقاتلون الجيش الاحمر الذى لايقهر، الجيش الذى أنشأه تروتسكى!.. ترى ماذا عليكم أن تفعلوا بعد ذلك ؟ سيكون عليكم أن تضاعفوا أسطولكم أربعـة أضعاف ، وأن تضاعفوا قواتكم الجوية ضعفين على الارجح، ومع ذلك لن ترى أعينكم النوم خوفا من الدب الابيض

ومن حسن حظ امريكا ، ان العناية الالهيـة مازالت ترمقها بعين العطف ، وجعلت من روسيا دولة شيوعية . وطالما بقيت روسيا دولة شيوعيـة ، فلن يكون لديكم ماتخشونه منها . ان الشيء الوحيد الذى هـو أولى بأن تقلقوا من أجله ، ليس ما يحدث فى روسيا ، بل مايحدث فى الصين وما سوف يحدث فى الصين . (١) وأنا آمل بكل اخلاص ــ لصالحكم ــ أن تسوى الصين مشاكلها المتناثرة وذلك بتعهد النواة الشيوعية الموجودة بها حاليا ، لتنمو وتكبر وتهيمن على رقعة بلادها بأسرها ، بحيث تصبح الصين وروسيا دولتين شيوعيتين قويتين. عندئذ يستطيع كل أمريكى أن يقعد تحت كرمته أو تحت شجرة التين فى حديقته دون ان يخشى شيئا. اذا انتم لم تستطيعوا تقدير الشيوعية الامريكية حق قدرها ، فلا أقل من أن تتعلموا كيف تقدرون الفائدة التى تعود على امريكا من تحول البلاد الاخرى الى الشيوعية . ولكم فقط أن تتصوروا الولايات المتحدة وأمامها من الدول الرأسمالية لا اليابان فقط ، بل روسيا أيضا كدولة رأسماليـة ، والصـين كدولة رأسمالية ! اولى بكم ان ترتجفوا من هول الصورة (٢)

---

(١) كان شو فى سنة ١٩٣٣ يتنبأ بما سوف يحدث فى الصـين فى سنة ١٩٦٤

(٢) اعترفت الولايات المتحدة رسميا بالاتحاد السوفييتى فى ذلك العام نفسه سنة ١٩٣٣ وكانت اخر البلاد الرأسمالية التى اعترفت بها ، ومازالت الى اليوم ، لم تعترف بالصين

والآن ترى ما الذى ستفعلونه فى هذه الامور ؟ الا تشعرون وانا أقلب أمامكم هذه المسائل ظهرا لبطن ، انكم فى حاجة ماسة جدا الى أكاديمية للعلوم السياسية ؟ وانها يجب أن تكون أكاديمية امريكية وليست أكاديمية أوروبية « نصف عمر » ؟ منذ نحو خمسين سنة مضت ، وضعت أنا وبعض أصدقائى ، وكلهم بهذه المناسبة قد انتقلوا الى الدار الاخرة حاملين معهم ايمانهم الطيب وقدراتهم الوافرة ـ وضعنا أسس مايسمى بالاشتراكية الفابية فى انجلترا كاحدى العقائد السياسية ٠وكانت الاشتراكية الفابية من ألفها الى بائها عقيدة انجليزية خالصة ٠ عرفنا كل شىء عن فردينان لاسال وعن كارل ماركس وعن الاشتراكية الديمقراطية ، وعرفنا كل شىء عن فورير (١) وبرودون وبلانكى (٢) فى فرنسا ، وعرفنا عن باكونين (٣) فى روسيا ٠ ولكننا عندما عرضنا نظامنا الاشتراكى الفابى على الجمهور الانجليزى لم ترد فيه كلمة واحدة عن كارل ماركس أو أى اشتراكي أجنبى آخر . لقد صنعت الاشتراكية الفابية من البداية الى النهاية وفقا للمخططات الانجليزية وبالفكر الانجليزى ، واستنادا الى الحقائق الانجليزية

وهأنذا أنصحكم ـ وأحضكم بقوة ـ عندما تتقدمون لتدعيم هذه الاكاديمية للعلم السياسى ، وللمساهمة فى

---

(١) C. Fourrier ١٧٧٢ ـ ١٨٣٧ الاشتراكى الشالى الفرنسى كان يتجه بفكره الى مجتمع زراعى بعيد عن الراسمالية ولكنه فشل فى اقامة المستعمرات الزراعية التى كان يحلم بها

(٢) L. Blanqui ١٨٠٥ ـ ١٨٨١ الاشتراكى الفرنسى الثورى مؤلف كتاب « النقد الاجتماعى » وداعية مذهب الاقلية الواعية من الصفوة الذى أخذت عنه الحركة السندكالية ..

(٣) MC. Bakunin ١٨١٤ ـ ١٨٧٦ الزعيم الفوضوى الروسى الشهير خليفة برودون مؤسس المذهب الفوضوى

عملها الذى يتلخص فى صياغة دستور جديد للبـــلاد ، أنصحكم وأحضكم بقوة أن تجعلوه دستورا أمريكيا من الالف للياء . ولا تشغلوا أنفسكم بكارل ماركس . لقد كان كارل ماركس نبيا جبارا ، ومع ذلك تكاد جميع الاخطاء الادارية التى وقع فيها الشيوعيون فى روسيا ، ترجع الى تمسكهم بحرفية الاورثوذكسية الماركسية ، بينما ترجع سر نجاحهم العظيم بقيادة ستالين .. ان ستالين كان يتميز فى روسيا بأنه زعيم وطنى أولا وقبل كل شيء . ويقول ستالين : « لسوف أرسى دعائم الشـــيوعية فى روسيا ، وبذلك أقيم للشيوعيين نموذجا يحتذونه فى كل مكان . فاذا لم يشاءوا اتباع هذا النموذج ، فهــــذا شأنهم : ان روسيا بلاد شاسعة وكبيرة جدا ! وهى تكفينى وقد عولت على انقاذ روسيا تاركا البلاد الاخرى لتنقـذ نفسها بنفسها »

وكان محقا تماما فيما ذهب اليه . ونجح فى شق الطريق الذى رسمه لنفسه . وأرى أن عليكم فى أمريكا أن تلجأوا الى تلك البصيرة السياسية التى لمحتها فيكم وأن تصوغوا الدستور كله بأنفسكم ولانفسكم من واقع الحقائق الامريكية ، وبالفكر الامريكى، ووفقا للمخططات الامريكية، وذلك حتى تتمكنوا من تحويل الامريكى المائة فى المائة الى انسان أمريكى مائة فى المائة ، وليس هذا فقط ، بل الى رجل دولة مائة فى المائة

والان أيها السيدات والسادة لابد أن تكون هناك نهاية لكل شيء ، حتى للخطب التى يلقيها برناردشو . ولم يعد لدى ما أضيفه الا أن أقول اننى جئت الى هنا لاســـــدد دينا قديما على لامريكا . ففى شبابى كنت متمردا على العقيدة السلفية ، مناضلا من أجل العلم الحديث والفكر الحديث وتقدمهما فى الاتجاه المضاد للعقيدة السلفية :كما

كانت نفسي مليئة بحب التطور والاكتشافات الجديدة في الطبيعة الفلكية والفنون الجميلة • ولكنى كنت لا أعرف شيئا عن الاسس الاقتصادية التى يقوم عليها المجتمع ولا عن أهميتها للتاريخ والعلم السياسى • كان العلم فى نظرى يقع برمته خارج دائرة السياسة ، ولم أكن أعرف أن هناك شيئا اسمه العلم السياسى • وذات ليلة ، ذهبت بمحض الصدفة الى قاعة للمحاضرات فى لندن • وهناك سمعت رجلا يخطب ، وقد حول خطابه مجرى حياتى كله • كان الرجل أمريكيا من سان فرنسسكو ، وهو هنرى جورج • وكان قد شاهد بعينيه مدنا على شاكلة سان فرنسسكو وهى تتولد من معسكرات ومخيمات ، فتنمو لتصبح مدنا غنية فاحشة الغنى ، ولاحظ أن الناس مع ازدياد الثراء ، كانوا يزدادون تعاسة وفقرا • وكانت السياسة التى تسيطر عليهم ، فوضى لا خلاص لهم منها ـ وكان التقدم الامريكى فيما نسميه بمضمار الحضارة ـ مصحوبا بانخفاض مروع فى مستوى حياة عامة الشعب • كان التقدم فى كل مكان معناه الفقر (١)

أقول ، ان هنرى جورج وضع قدمى على أول الطريق ، طريق الاقتصاد والعلم السياسى • ولم ألبث أن قرأت كارل ماركس ومؤلفات جميع الاقتصاديين السياسيين فى ذلك الوقت ، ولكن هنرى جورج الامريكى كان هو الذى دفعني الى ذلك • ولما كان ذلك هو بداية اهتمامي بالشئون العامة ، فقد حسبت أن من اللائق أن آتى الى أمريكا فى نهاية حياتى ، لارد لها شيئا من الدين الذى أدين لها به : وأعنى به شيئا من ذلك الدافع الذى دفعه هنرى جورج فى كيانى ••

---

(١) يشير الى كتاب هنرى جورج : « التقدم والفقر »

ثم ان على لامريكا ديونا أخرى • كان الناس فى انجلترا بعد مرور سنوات على ذلك العهد ، فى حيرة من أمرى • ترى أى شخص أكون ؟ وسر هذه الحيرة اننى لم أقنع لنفسى بشهرة واحدة فى مجال واحد ، بل صنعت لنفسى نحو خمسين منها ، فى خمسين مجالا • والذين يعرفون شهرتى فى ناحية ، لا يعرفون شهرتى فى النواحى الاخرى بحيث بدأ برناردشو كما لو كان حزمة من أشخاص مختلفين • وهكذا بقيت شخصيته غير واضحة ولامفهومة الى أن جاء سيد أمريكى اخر هو أستاذ الرياضيات الذى أشرت اليه فى أول خطابى ، البروفسور أرشيبولد هندرسون ، فقدمنى الى الجمهور فى صورة كاملة وواضحة ومفهومة (١) • وكان وقع ذلك فى انجلترا مفيدا جدا لى ، وهنأت نفسى على أننى أصبحت موضوعاً يشغل ذهن أحد علماء الرياضيات ويستمتع به • ونتيجة لذلك تشكلت فى شكل رياضى دقيق ، وأصبحت شخصا حقيقيا له أبعاد حقيقية ••

والان لعلكم أدركتم لماذا اخترت هذه الجمعية بالذات ، لاخطب فيها مفضلا اياها على ما عداها مع أن كل جمعية أخرى فى أمريكا تقريبا ، قد طلبت منى أن أخطب فيها — السبب هو أن هذه الجمعية ، جمعية أكاديمية العلوم السياسية ، هى أهم هيئة فى أمريكا اليوم • والعمل الذى تنهض به هو العمل الذى سينقذ أمريكا اذا كان ثمة شىء يمكن أن ينقذ أمريكا • ولن يمتد بى العمر لارى ثمرة هذا الانقاذ ، ولكنى آمل أن تكون نبوءتى عنها نبوءة صادقة غير كاذبة

---

(١) يشير الى مؤلفات هندرسون عن شو ••

شو وداروين

الداروينية وضبط النفس

زعمت الداروينيــة ان العــلاقة الحقيقيــة التى تقوم بيننا ، هى علاقة بين متنافسين فى صراع من أجل البقاء ، والبقاء فقط ، وان كل عمل من أعمال الرحمة والاخلاص والاخوة والروح الرفاقية القديمة ، هى محاولة عقيمــة وخبيثة لتخفيف حدة هذا الصراع وللابقــاء على الانواع الدنيئة من الكائنات الحية التى تبذل الطبيعة جهودها لاجتثاثها كما تجتث الاعشاب الضارة . وليت الامراقتصر على ذلك ! فحتى فى مجتمعات الاشتراكية التى لم توجد الا بهدف احلال قانون الاخوة والروح الرفاقية محــل قانون الخطف والمنافسة ، واحلال الحكمة والعناية الالهية محــــل الاندفاع العنيف الاهوج من شفا جرف الى قاع البحر ، حتى فى تلك المجتمعات وجدت الناس يعتبروننى ملحدا عاطفيا جاهلا لاننى حيثمـــا دعا دعاة الداروينيــة الجديدة لم أحاول قط أن أخفى عنهم احتقارى الفكرى لما فى مذهبهم من وحشية وفجاجة وبدائية عمياء ومنطق سطحى ، فضلا عن اشمئزازى الفطرى مما فيه من مجافاة بشعة للروح الانسانية والفطرة الانسانية

ولما لم يكن فى الداروينية مكان لارادة الانسان الحرة

أو لاى ارادة أخرى ، فقد زعم الداروينيون أن ليس هناك شيء اسمه ضبط النفس . ومهما زعموا فضبط النفس هو الصفة الاساسية الوحيدة التى تجعل للبقاء قيمة ، والتى يتحتم على قانون الانتخاب الخاضع للظروف أن يبنيها ويطورها بثبات واطراد على المدى الطويل . أما الصفات التى لا تخضع لضبط النفس ، فيمكن انتخابها لفترة محدودة أو فى ظروف معينة لتثبت صلاحيتها للبقاء والتطور . ولنضرب لذلك مثلا : هناك أناس يتصفون بالشراهة والتكالب على الطعام بلا ضابط ولا رابط ، هؤلاء الناس هم أنشط الناس سعيا وراء الطعام والشراب ، ومن ثم ففى فترات القحط ونقص المئونة سيزدادما عندهم من قوة ودهاء وحيلة بفضل نشاط مساعيهم ، غير أن أقصى ما يمكنهم أن يفعلوه لن يتسبب فى هلاكهم من كثرة الاكل بسبب ندرة الطعام أصلا . أما اذا تغيرت الاحوال وتوفر الزاد والطعام بكثرة ، فان هذا التغير كفيل بالقضاء عليهم من الافراط فى الاكل . ونلاحظ هذا كثيرا فى الرجل الفقير الذى كان يتمتع فى فقره بالصحة والعنفوان ، فاذا أصبح مليونيرا بفضل احدى المصادفات أو بضربة من ضربات الحظ فى مجال التجارة الرأسمالية المتنافسة ، اذا به يمضى من فوره فيلغ فى الاكل بشراهة حتى يحفر قبره بأسنانه . غير أن الرجل الذى يتمتع بضبط النفس ، يبقى ويعيش متغلبا على هذه التقلبات فى الظروف بتكييف نفسه معها ، فلا يأكل من الطعام أقصى ما يمكنه أن يأكله ، ولا أقل ما يمكنه أن يأكله ، بل الكمية الصالحة له لا غير . ما هو ضبط النفس ؟ انه ليس الا احساس حيوى على درجة عالية من الرقى والتطور ، يتولى السيطرة على الشهوات البدائية المجردة وتنظيمها . وقد تجاهل الداروينيون الجدد — تحت شعار الانتخاب الطبيعى — وجود هذا

الاحساس السامى الرائع ، وتجاوزوا عنه ولم يلتفتوا الى الدليل الواضح الذى يدل عليه وهو أنه الصفة الوحيدة التى يتميز بها الاصلح ليبقى • وبالاختصار اسقط الداروينيون من حسابهم أرقى واسمى قضية اخلاقية فى الوجود ، فكشفوا بذلك عما يعانونه من افتقار فى الالمام بالموضوع الذى يعالجونه من كافة نواحيه ، وهو عيب منهم يستحق الرثاء ، لقد فضحوا بأنفسهم عجزهم الغبى عن ملاحظة القوى التى تحرك الانتخاب الطبيعى نفسه ، وعليها يعتمد

نموذج من الهجاء اللاماركى الشمونى (١)

ولم يقع الفلاسفة « الحيويون » (٢) فى مثل هذه الاخطاء : فنيتشه مثلا وهو يفكر فى اكتشاف الحقيقة المركزية الكبرى لارادة القوة ، لم يشغل نفسه ببتر أذيال الفيران (٣) ، ولكنه لم يجد مشقة فى أن يستنتج ان الهدف النهائى لارادة القوة ، هو السيطرة على النفس ، أما الذين يسعون وراء القوة من أجل القوة ، ومن أجل السيطرة على الاخرين وعلى الممتلكات المادية ، فيقتفون أثرا كاذبا

وبانقراض الداروينيين الاوائل اشتدت حدة التشنيع بطبيعة الحال على خلفائهم • فقد كان لدى أولئك الرواد

(١) J.P. Lamaraue ١٧٤٤ - ١٨٢٩ العالم الطبيعى القرنسى الذى سبق داروين بنظرية التطور « أول من قال ان البيئة تؤثر فى الوراثة وواضع قانون وراثة الصفات المكتسبة • وبسبب معارضة رجل الدين كوفييه ماتت نظريته فى المهد »

(٢) Vitalists

(٣) يشير شو هازئا الى البحاثة البيولوجيين الذين يجرون أبحاثهم فى المعمل على الحيوانات الحية

الاوائل ، أساس من الثقافة القديمة يبنون عليه نظريتهم وحججهم ، ولم يكونوا فى الواقع داروينيين بالمعنى العصرى للكلمة أكثر من داروين نفسه . كانت لهم هيبـــة القادم الجديد ودهشته ، فلما ذهب هكسلى (١) وتندال (٢) وسبنسر (٣) وداروين ذهبت معهم هيبتهم ودهشتنا ، وبقينا مع شخوص هزيلة قميئة ممن بدأوا بداروين ولم يأخذوا عن أحد آخر ، ومن ثم وجدتنى فى سنة ١٩٠٦ أطلق لغضبى العنان وأقذف الداروينيين الجدد (٤) بحمم من الهجاء المقذع فى العبارات التالية :

« الحق اننى لا أريد أن أكون ســـبابا ولا شـــتاما ، ولكننى كلما فكرت فى هؤلاء الاغبياء الصـــغار المساكين وهم يتشبثون تشبثا خطرا بنـــاحية واحـــدة من نظرية التطور ، ناحية تستطيع الخنفساء السوداء أن تفهمهـــا دون عناء ، ثم يحيطون أنفسهم ببطانة من الشخصيات التى لاتساوى قرشا ونصف من طراز توركيمادا (٥) ، وتجـــد لذة فى الولوغ فى الفظائع التى يلغ فيهـــا مشرح الحيوانات الحية ، ويستعرضها أمامنا كأنها اكتشافات علمية تصنع التاريخ . انهم يعرضون أمامنا تجارب قاموا

---

(١) T. Huxley ١٨٢٥ ــ ١٨٩٥ عالم البيولوجى البريطانى ومن أكبر دعاة الداروينية : جد الدوس وجوليان هكسلى

(٢) Tyndall ١٨٢٠ ــ ١٨٩٣ الطبيب العالم البريطانى فى الطبيعـــة والبيولوجيـــا

(٣) H. Spencer ١٨٢٠ ــ ١٩٠٣ الفيلسوف البريطانى اهم مؤلفاته « المبادىء الاولى » ٣ أجزاء وكان فى بداية حياته من أنصار لامارك ثم أصبح داروينيا متعصبا وهو الذى صاغ عبارات : الصراع من أجل البقاء ، والبقاء للاصلح

(٤) Neo-Darwinians

(٥) Torauemada ١٤٢٠ ــ ١٤٩٨ أحد قضاة محـــاكم التفتيش فى اسبانيا . أعدم على يديه مابين ٢٠٠٠ ، ٨٨٠٠ متهم

بها لتثبت أن الكلاب تضعف ثم يصيبها الهزال ثم تموت اذا لم يقدم لها الطعام ، وان الالم الشديد يجعل الفيران تتفصد عرقا ، وانك اذا بترت رجل كلب أنجب الكلب جروا له أربعة أرجل . واني لاتساءل فيما بيني وبين نفسي : أي شعوذة تسلطت على الاذكياء والانسانيين بحيث جعلتهم يتأثرون بهذه الطغمة من الاوغاد والدجالين والنصابين والكذابين ، وبمن هم اسوأ من هؤلاء جميعا : من المغفلين السذج ذوي النيات الحسنة ؟ خير لنا ألف مرة أن يعود موسى وسبرجيون (1) (وهو واعظ مشـــــهور في ذلك الوقت) من جديد . وأنت على أي حال لا يمكنك أن تكون داروينيـــا جديدا فاهمـــا لمذهـــك ، بدون خيـــال ولا ميتافزيقا ولا وجدان ولا ضـــــمير ولا شرف ــ لان قانون « الانتخاب الطبيعي » ليس له أي مدلول أخلاقي ، ما دام يتناول تلك الناحية من التطور التي ليس فيهـــا هدف ولا غاية ولا ذكاء والتي قد يكون من الانسب أن تسمى : « بالانتخاب العرضي » او الانتخاب بالصدفة أو بما هو أفضل من ذلك : « الانتخاب غير الطبيعي » ، لانه ليس ثمة شيء أبعد عن الطبيعة وعن ما هو طبيعي من الصدفة والشيء العرضي . واذا أمكن اثبات أن الـــكون قد نشأ عن مثل هذا الانتخاب ، فلن يطيق البقاء فيـــه الا البلهاء والاوغاد »

الانسانيون ومشكلة الشر

ومع ذلك فقد سعد الانسانيون بالداروينية كما سعد

(1) C.H. Spurgeon ١٨٣٤ - ١٨٩٢ الواعظ البريطاني المعمداني الكالفني من أشهر وعاظ لندن واشـــتهر بفصاحة اللســـان وقوة الحجة ولكن في تأييد التعصب والتزمت والرجعية الفـــكرية . ويقصد بعودة موسى وسبرجيون عودة النزعة الارهابية التهديدية التي سادت « العهد القديم » كما أشار الى ذلك في المختصر الديني

بها أي شخص فى أول الامر ، بعد أن حيرتهم وبلبلتهم مشكلة الشر وقسوة الطبيعة . كان الآنسانيون قوما من طراز شيللى ولكن غير ملحدين . فقد كانت حجة المؤمنين المبررة لمشكلة الشر وقسوة الطبيعة ، أضعف من حجة الملحدين بدرجة مروعة : فهم لم يستطيعوا انكار ما فى الطبيعة من حقائق قاسية لا يمكن أن تنسب الى الله والى ارادة الله ، فالايمان بالله مستحيل على أى شخص مفكر ، الا اذا آمن بالشيطان فى نفس الوقت وعلى قدم المساواة . ولا يصدق أحد فكرة الشـــــيطان الذى تصوره اللوحات الفنية بقرنين وذيل كالحربة . ويتقلب فى جحيم مستعر من الحجارة الموقدة . ان الشيطان على هذه الصورة ليس الا عفريتا خياليا لا يؤمن أحد حقا بوجوده ، ولكن الشر المنسوب اليه ، شر حقيقى وواقعى جدا بما يكفى لاقناع أى شخص بوجوده وواقعيته . وهنا يقول الملاحدة ، ان صانع الشر اذا كان موجودا حقا ، لابد أن يكون قويا جدا بحيث يتمكن من التغلب على الله .. هذا والا كان الله مسئولا مسئولية اخلاقية عن كل شىء يسمح للشيطان بارتكابه .. وأيا كانت حقيقة هاتين النتيجتين ، فهى لا تعفينا من تلك الحقيقة الفظيعة الثابتة : وهى ان ما فى الطبيعة من قسوة ، هو من فعل فاعل شرير ومن تدبير ارادة شريرة ، ولا يمكن أن تنسجم مع البواعث التى تدفعنا نحو العدالة والرحمة ونحو حياة أفضل

فما ان اكتشفت نظرية « الانتخاب الخاضع للظروف» ، حتى أعفينا تماما من مواجهة هذه الحقيقة الفظيعة ، لانها ليست الا وسيلة لاقناعنا بأن الفظائع والاهوال — وان كانت تحمل كل مظاهر التدبير المحكم والفعل المتعمـد بذكاء — ليست سوى مصادفات وحوادث عرضية ليس

لها أى دلالة أخلاقية على الاخلاق . افرض أن شخصا ما يراقبنا من النجوم ورأى حادثة مروعة تقع فى كوكبنا الارضى تسبب فى وقوعها قطاران مزدحمان بالركاب يسيران بأقصى سرعة ويصطدم أحدهما بالآخر . كيف يمكنك أن تقنع هذا المراقب المحايد ، بأن كارثة تقع بمثل هذا التدبير المحكم والتعمد الذكى والتخطيط العبقرى ، لم تكن مدبرة ومقصودة تماما ؟ ألا يستنتج منها على الفور أن عمال الاشارة أبالسة شياطين ؟

ان نظرية « الانتخاب الخاضع للظروف » هى غالبا نظرية مصادمات : أى أنها نظرية خاصة باثبات براءة الاعمال الشيطانية التى كثيرا ما تبدو فى ظاهرها مدبرة متعمدة ، وعلى هذا النحو أراح داروين بال الانسانيين راحة كبرى فضلا عن أن زودهم بمعرفة أوسع للحقائق : حقا انه قضى لهم على صفة الالوهية وهى القدرة على كل شىء والاحاطة بكل شىء ، ولكنه فى نفس الوقت ابرأ ذمة الله من تهمة قبيحة : تهمة القسوة . ولكن ارتياح الانسانيين كان ارتياحا سطحيا ، فالتأمل الجدى العميق جدير بأن يبين لهم أن هناك ما هو أسوأ من كل ما يمكن أن يتصوروه فى القوى الشيطانية : تلك الطغمة الغاشمة من القوى العمياء الصماء الخرساء التى لا قلب لها ولا شعور ولا ادراك ، تضرب كما تضرب العاصفة الشجرة فتطيح بها ، وتصيب كما تصيب الصاعقة فتفنى وتحرق . وبالرغم من وضوح ذلك ، فهو لم يخطر على بال الانسانيين الطيبين وقتئذ لان الناس عادة لا يفكرون بعمق وجدية وهم فى غمرة أول سعادة يحسون بها ، وخاصة اذا كانت سعادة الهرب والتخلص من موقف كريه لا يحتمل . ان مثلهم فى هذا ، كمثل

الحاج الذى وصفه بانيان (١) فى رحلته عندما لم يتمكن من رؤية كوة الباب ولا وهدة القنــوط ولا القلعة التى يقطنها عملاق اليأس ، ولكنه رأى فقط النور المشرق فى نهاية الدرب ، ومن ثم انطلق نحوه فى سعادة وسرور ، وهكذا انطلق الانسانيون الطيبون فى ايمانهم بالتطور

وكانــوا فى ذلك على حق: لان مشــكلة الشر تنهــزم بسهولة أمام التطور الخلاق . فاذا كانت القوة الدافعة للتطــور ــ قوة قادرة على كل شىء أى ليس ثمة حــد نهــائى لانجــازاتها ــ واذا كان لابد لهذه القــوة من أن تناضل فى هذه الاثناء ضد المــادة والظروف من خــلال التجربة والخطأ ــ فلا شك أن الدنيــا تكون مليئة بآثار تجاربها الفاشلة . ألم يكن من المحتمل أن يلقى المسيح وهو سائر فى طريقه نمرا مفترسا ، أو أن يتصارع رئيس الكهنة مع حاكم رومانى يدا بيد ؟ وفى مثل هذه الظروف الا ينطبق على الاثنين قانون البقاء للاسوأ لا للاصلح ؟ ان موزار قد رزق عبقرية تفوق مواهب الاباطرة وكبار الاساقفة، ولكنه ابتلى برئة عليلة تذبل وتنهار فى مسكن معتم كريه عطن الهــواء . فاذا ما فسرنا جميع مصائبنا وكوارثنــا بأنها اما مصادفات مجردة واما نتيجة لخطايا ارتكبناها وكفرنا عنها باخلاص ، فلن تكون هناك مشكلة للشر فقط بمعناها الفيكتورى التقليدى . ان الفلسفة الدينية التى تعتنقها النسوة اللواتى تعلن لنا انهن انقلبن ملحــدات كافرات فى اللحظة التى جلســن فيهــا الى جانب مهود اطفالهن يراقبن « يد الله » وهى تخنقهم خنقا بالدفتريا، تتبعها فلسفة اخرى اكثر تطورا هى فلســــفة بلانكو

---

(١) John Bunyan ١٦٢٨ ــ ١٦٨٨ الكاتب الانجليزى صاحب رحلة الحاج Pilgrim's Progress « مترجمة »

بوسنت (۱) الذى يقول : « عندما خلق الله الدفتريا ، وتلك أيام خلت فيما أحسب ، كانت الدفتريا هى أفضل شىء يمكنه أن يفكر فيه فى ذلك الوقت ، فلما اتضح على يديه انها خطأ ، جعلك أنت وأنا ، نقاتل ونكافح الدفتريا من أجله »

كيف أن لمسة واحدة من داروين جعلت العالم كله أسرة واحدة

وثمة شىء آخر يثير اهتمام الانسانيين بالداروينية : ان داروين قام بمهمة اذاعة فكرة التطور ، وجعلها فكرة شعبية ، كما أنه أضاف اليها نصيبه الخاص فيها . والان تمد النظرية العامة للتطور ، صاحب النزعة الانسانية بأساس علمى يستند اليه فى نزعته ، لان التطور يؤكد ويثبت المساواة الاساسية بين جميع الاحياء ويجعل قتل الحيوان جريمة كجريمة قتل الانسان على السواء . قد يكون من الضرورى أحيانا قتل الناس كما قد يكون من الضرورى دائما قتل النمور المفترسة ، ولكن الفارق النظرى القديم بين عمليتى القتل ، قد أزاله التطور ومحاه . وعندما كنت طفلا صغيرا وقيل لى ان كلبتنا وببغاءنا — وكنت على علاقة حميمة بهما — ليسا مخلوقين مثلى ، وانما هما حيوانان أعجمان وأنا انسان عاقل ، لم اصدق ما قيل لى ، ولم اكتف بذلك ، بل كونت لنفسى رأيا واعيا فى المسألة من أن التفرقة بيننا تفرقة زائفة ، فلما فضت لى مغاليق نظريات داروين لاول مرة ، قلت

---

(۱) بطل مسرحية The Shewing-up of Blancc Posnet لبرنارد شو سنة ۱۹۱۱ وهو يؤمن بما يؤمن به شو ، ان الله هو القوة الحيوية أو قوة التطور الخلاق

والحصت فى القول اننى اكتشفتها كلها بنفسى قبل أن أبلغ العاشرة من عمرى وانى الان واثق تماما من أن غرورى الصبيانى كان له ما يبرره • وسبب ذلك أن الاحساس بالقربى بين جميع أشكال الحياة ، هو كل ما يلزم لجعل نظرية داروين نظرية مقبولة بل ليجعلها نظرية ملهمة أيضا . كان لدى القديس أنطونيو (١) استعداد ناضج لقبول نظرية التطور وهو يعظ الاسماك فى البحر ، وكذلك القديس فرانسيس وهو يطلق على الطير اسم أصدقائه الصغار • اننا مصابون بالغرور لاننا نعتبر فكرة الربوبية لونا من ألوان التمايز الطبقى العلوى كفكرة الملكية الارضية ، ولم نعتبرها الصخرة التى نشيد فوقها صرح المساواة . وقد أدى بنا هذا الغرور الى التشبث بالفكرة التى تقول ان الله منحنا امتيازات خاصة عندما جعلنا فى معزل عن بقية مخلوقاته ، ورفعنا فوقهم درجة . فجاء التطور وانتزع منا الغرور . والان قد نقتل برغوثا دون أقل شعور بالندم ، ومع ذلك نعلم على أية حال •• اننا قتلنا أحد أبناء عمومتنا • ولا شك أن مما يصدم شعور البرغوث وهو سيد المخلوقات النطاطة أن يرى المخلوق الاخر الذى خلقه له البرغوث الاكبر خصيصا ، وعلى عجل ، ليكون مصدرا لطعام البراغيث ، يراه يسحقه بوحشية ويقضى عليه بظفر ابهامه الحاد الهائل • ولكن ليس ثمة برغوث يتوفر لديه من الحماقة ما يجعله يقف بين البراغيث ليعظهم ويقول ان الانسان عندما يفتك بالبراغيث انما يطبق أسلوب الانتخاب

---

(١) St. Antony ٢٥٠ ـ ٣٥٠ م • أول راهب مسيحى يولد فى مصر الوسطى . وقد اعتكف فى دير ميمون بالقرب من الفيوم ، ثم ترهب فى صحراء سينا حيث يقوم الى الان دير مار انطونيوس ويعد أبا الرهبان المسيحيين • كان يكلم الحيوانات ويتوهم الاوهام

الطبيعي الذى سيتولد منه فى النهاية برغوث أسرع حركة وأعلى قفزة بحيث لا يستطيع أى انسان أن يمسك به ، وأقوى بنية وأصلب عودا بحيث لا يؤثر فيه أى مسحوق مبيد للحشرات أكثر مما يؤثر الاستركنيين فى الفيل ..

لماذا أرضى داروين الاشتراكيين ؟

لم يقف الانسانيون وحدهم بين المرحبين المتحمسين لداروين : فقد كان من حسن حظه أنه أرضى كل شخص فى نفسه غرض يخفيه . تحمس لداروين العسكريون دعاة الحرب كما تحمس له الانسانيون دعاة الرحمة والسلام ، وتحمس له الاشتراكيون كما تحمس له الرأسماليون . ومما حمس الاشتراكيين بصفة خاصة ، اصرار داروين على ابراز اهمية الوسط والبيئة . ربما كانت أقوى حجة أخلاقية تستند اليها الرأسمالية هو ايمانها بقوة تأثير الاستقامة الفردية والخلق الفردى القويم . فجاء روبرت أوين (١) ليبذل جهودا يائسة ليقنع انجلترا بأن من فيها من المجرمين والمنحرفين والسكيرين ، وغوغاء جاهلين أغبياء ، هم ضحايا الظروف والبيئة واننا لو أقمنا عالما أخلاقيا جديدا كالذى يحلم به لوجدنا أن الجماهير التى تولد فيه ستنشأ متعلمة تنتشر بينها الاخلاق الفاضلة لان المجتمع المتعلم تسود فيه الاخلاق الفاضلة . ويمكن العثور على الرد على ذلك فى كتاب حياة جوته للويس (٢) . كان لويس يحتقر

(١) Robert Owen ١٧٧١ - ١٨٥٨ الاشتراكى الانجليزى المثالى . صاحب كتاب العالم الاخلاقى الجديد

(٢) G.H. Lewes ١٨١٧ - ١٨٧٧ ناقد وكاتب وصحفى انجليزى وهو زوج الكاتبة جورج اليوت واعظم مؤلفاته Biographie of Boethe : ترجمة حياة جوته

فكرة تحكم الظروف فى الشخصية الانسانية ، وأشـار الى تباين الشخصيات فى الطبقة الحـاكمة الغنية ليثبت دعواه • فليس ثمة تشابه في الظروف يمكن أن يكون أكثر جمودا من الظروف التى ينشأ فيهـا أبنـاء النبلاء الاقطـاعيين الانجـليز المولودين فى القصـور الريفيـة الانجليزية : فهم يرسلون اولا الى ايتون أوهارو ومنهـا الى أوكسفورد أو كامبردج حيث تتشكل عقولهم وعاداتهم فى قوالب ثابتة جامدة . ومن شأن هذا الروتين الجامد أن يقضي على الفردية اذا كان لأى روتين أن يقضى عليها. ومع ذلك فالافـراد لا يخرجون منه مختلفين اختـلاف بت (١) عن فوكس (٢) ولورد راسـل (٣) عن لورد كيرزون (٤) ومستر ونستون تشرشل عن لورد روبرت سيسيل (٥) • كما أن رأى لامارك في التطور قد عزز به أهمية العامل الوراثى فى شخصية الفرد باعتباره العامل الحاسم الذى يقرر مصيره ومستقبله : فلو أمكن للزرافة أن تطيـل عنقهـا اذا ما أرادت أن تطيله وحاولت ذلك

(١) W. Pitt ١٧٥٩ – ١٨٠٦ كان رئيسـا لوزارة بريطانيا وعمره ٢٥ سنة وكان من كبار الاستعماريين ومن خصـوم الثورتين الأمريكية والفرنسـية • ومن أنصار حرية التجارة

(٢) C.J. Fox ١٧٤٩ – ١٨٠٦ من مشاهير الساسـة البريطانيين ومن خصوم وليم بت وكان من كبار مؤيدى الثورة الفرنسية وواضع أسس اللبرالية البريطانية

(٣) J.Russel ١٧٩٢ – ١٨٧٨ من زعماء حركة الاصلاح السياسى فى بريطانيا . له الفضل فى صدور قانون الاصـلاح سنة ١٨٣٠

(٤) G.N. Curzon ١٨٥٩ – ١٩٢٥ أحد كبار الاستعماريين البريطانيين ونائب الملك فى الهند ووزير فى وزارة الحرب برياسـة لويد جورج سنة ١٩١٦ • شعار أسرته :

Let Curzon hold, what Curzon had

(٥) R. Cecil ١٨٦٤ – السياسى البريطـانى المحافظ وداعية التعاون الدولى • وضع مع وودرو ويلسون والجنرال سمطس مشروع عصبة الامم ، نال جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٣٧

فالرجل يمكنه أن ينمي شخصيته بالطريقة نفسها . ان المثل القديم الذى يقول « حيثما وجدت الارادة وجدت الوسيلة » يبلور نظرية لامارك فى التكيف الوظيفى ويلخصها فى عبارة واحدة . ويشعر ذوو العقول القوية بشدة أن هذه النظرية تعد قاعدة أخلاقية ، أما ذوو العقول الضعيفة فيشعرون نحوها بشيء من الورع الدينى المطمئن . وهكذا ليس ثمة رد يرد به على الاشتراكيين أقوى من ان يقال لهم اذهبوا واصلحوا أنفسكم قبل أن تدعوا اصلاح المجتمع . فاذا كنت غنيا فلن يتضاعف سرورك بغناك ، اكثر من ان تشعر فيما بينك وبين نفسك أن ثروتك قد جاءتك بفضل مالك من شخصية متفوقة ! ولقد حولت الثورة الصناعية كثيرا من البلداء الجشعين الى أثرياء فاحشى الثراء ، لم يكن هناك ما هو أشد اذلالا لهم واقلاقا لراحتهم من أن تقول لهم ان هطول الذهب فى جيوبهم صدفة محضة ، كهطول الثلج على مظلاتهم ، وانه سقط على الظالمين والعادلين على السواء . وليس هناك ما هو أشد اطراء لهم وتعزيزا لجانبهم من أن تقول انهم أثرياء لانهم فاضلون

أما الان ، فقد اكتسحت الداروينية هذه الاوهام المتعلقة بالاستقامة الفردية وطهرت الدنيا منها . بل فعلت ما هو أكثر من مساندة حجة روبرت أوين عندما اكتشفت أن للبيئة التى يعيش فيها الكائن الحى تأثيرا فعالا وقويا ، وكان ذلك أكبر مما ادعاه روبرت أوين فى يوم من الايام . ونهضت لتؤكد أن المشردين الآفاقين يتولدون من البؤر السكنية القذرة لا بسبب الخطيئة الاولى : وأن البغايا والعاهرات يتولدن من أجور الكفاف والجوع لا من عهر أو بغاء كامن فى الانثى ! لقد القت الداروينية بحجة العلم القوية فى جانب الاشتراكيين

الذين قالوا ان الشخص الذى يريد اصلاح نفسه عليه أن يصلح المجتمع أولا ، ثم أكدت الداروينية أننا اذا كنا نريد فى مجتمعنا مواطنين أصحاء موسرين لابد لنا من مدن وقرى صحية موسرة ، وأن هذه لن توجد الا فى أوطان صحية موسرة . ويمكننا أن نخرج من هذا بالحكم على ذلك الطراز من الشخصيات التى لا تبالى بصالح جيرانها ما دامت شهواتها مشبعة ورغباتها مترعة ، بأنه طراز من الشر مخرب ومدمر وهدام ، وأما ذلك الطراز من الشخصيات التى تهتم اهتماما عميقا بالبيئة التى يعيشون فيها ، فهو الطراز الوحيد من الناس الذين يمكن احتمالهم والابقاء عليهم فى مجتمع دائم الازدهار والرخاء. ثم بينت الداروينية أن التغيرات المدهشة التى احدثها روبرت أوين فى اطفال المصانع عندما غير ظروفهم ، هى ظواهر لا تثير دهشتنا فى هذه الايام ولا تعد شيئا الى جانب التغييرات التى يحدثها الوسط والبيئة لا فى عادات وسلوك الافراد فقط بل فى الانواع نفسها وليس فى الانواع فقط بل فى القبائل أيضا . ومن الواضح أن هذه التغييرات تفعل فعلها فى الافراد الذين لا شخصية لهم ولا يتمتعون بشىء من الادراك والوعى الفكرى . لا عجب بعد هذا ان يستقبل الاشتراكيون داروين بأذرع مفتوحة

داروين وكارل ماركس

ثم ان للاشتراكيين نبيهم الخاص المؤمن بالتطور ، وقد فضح هذا النبى مدرسة منشستر (١) وقضى القضاء المبرم على ما كان لها من اعتبار ، كما فضح داروين اسطورة جنة عدن وقضى على ما كان لها من اعتبار .

(١) مدرسة الاقتصاديين الانجليز فى أربعينيات القرن الماضى اصحاب مذهب حرية التجارة

أعلن ماركس فى بيانه الشيوعى الصادر فى سنة ١٨٤٨ (والذى يتمتع الآن فى روسيا بقداسة الكتاب المنزل) أن الحضارة كائن عضوى يتولد عن طريق « الانتخاب الخاضع للظروف » ، ونشر المجلد الاول من كتابه رأس المال فى سنة ١٨٦٧ عندما كانت هناك ثورة قائمة ضد عبادة الاصنام الموروثة ، وصاحبتها ثورة أخرى على التقاليد التى كانت محترمة فى ذلك الوقت تقاليد البارونات الاقطاعيين القراصنة وكذلك على نفاق البورجوازيين وجشعهم ونفختهم الكذابة وتجردهم من الانسانية بعد أن أفسدهم تماما ايمانهم بمعنى شيطانى للنجاح وهو انه جمع وتكديس للارباح . فما أن بين ماركس أن علاقة البورجوازيين بالمجتمع هى علاقة لاأخلاقية هدامة ، وأن صديريات قمصانهم المنشاة البيضاء ، تخفى وراءها أبشع المظالم وأحط السرقات حتى أصبح النبى الملهم فى عين كل انسان شريف بلغته رسالته أو وصل اليه كتابه . لقد قال واثبت كل ما أراد الشرفاء أن يقولوه وان يثبتوه ، ورفضوا أن يستمعوا الى أى قول يقال ضده . أما الان فلم يعد ماركس معصوما بأى حال : واذا ما تتبع المرء آراءه الاقتصادية بدقة ، وجد أن نصفها مستعار من غيره ونصفها الاخر حصل عليه من «منازلهم» أى باجتهاده كما يفعل أى كاتب هاو ، وأنها ليست بالاراء ولا بالابحاث الاقتصادية الملائمة حتى للاشتراكية . أما نظريته عن الحضارة فقد عرضت من قبل فى كتاب « باركل وتاريخ الحضارة»(١) وهو كتاب له فى عقول قرائه ما لكتاب رأس المال من مكانة

(١) H. Burkle ١٨٢١ – ١٨٦٢ المؤرخ الانجليزى صاحب كتاب تاريخ الحضارة فى انجلترا فى جزءين . وهو صاحب نظرية المناخ وتأثيره فى الحضارة

تاريخية . وفى الجزء الاول من رأس المـال ـ وهو الجزء المقروء من الكتاب على نطاق واسع ـ لا نجد شـيئا عن الاشـتراكية فكل ما فيه من ملاحظـات عن العمـال والرأسماليين يدل على أن ماركس لم يستنشق قطهواء المصانع ، وأنه بحث عن الاسانيد والحجج لرسـالته فى داخل الكتب الزرقاء فى مكتبة المتحف البريطانى . واذا قورن بداروين بدا شخصا ليست لديه أى قـدرة على الملاحظة ، فليس فى رأس المـال حقيقة واحدة لم تؤخذ ولم تنقل من كتـاب ، وليس فيه قضـية لم يبدأ غيره اثارتها أو بحثهـا . ولكن ماركس على أية حال فضـح البورجوازية وقضى على هيبتها وعلى سمعتها الاخلاقية قضاء مبرما . وكان فى ذلك الكفاية وفوق الكفاية : فقد أمسك ـ كداروين ـ بالدنيا من خطامها فضـلا عن أنه أحرز ما لم يحرزه داروين وهو اتصـافه بحقد لا يعرف الرحمة وبموهبة اليهود الادبية وبطاقات رهيبة من المقت والهجاء والسخرية اللاذعة ، أى بجميع الصفات المريرة التى تنشأ فى وقت مبكر فى أى شاب عبقرى نال حظـا من التدليل فى صـغره (كان ماركس الطفـل المدلل فى أسرة ميسورة الحال) وعانى الكثير من الكبتوالاضطهاد فى نظام اجتماعى لا ينسجم معه أى انسجام ، ثم عانى النفى والتشريد والفقر المدقع فيما بعـد . وهكذا عثر ماركس وداروين فيما بينهما على صنمين تربطهما علاقة وثيقة ، وأصبح كل منهما بذلك ، نبيا لدين جديد

لماذا ارضى داروين الاستغلاليين أيضا ؟

ولكن كيف بداروين وقد نجح الى هـذا الحـد مع الاشتراكيين ينجح مع الراسماليين أيضـا ؟ فليس من

السهل الاستفادة من كلا العالمين اذا كان أحدهما يدعو الى حرب الطبقات بينما يزاولها الاخر بعنف وضراوة ؟ وتفسير ذلك أن الداروينية ارتبطت مع الراسمالية بعلاقة وثيقة لدرجة أن ماركس اعتبرها نتاجا اقتصاديا أكثر منها نظرية بيولوجية . واقتبس داروين فكرته الرئيسية الخاصة بضغط السكان على موارد المعيشة المتوفرة ، من بحث كتبه مالتوس (١) عن تعداد السكان كما جاء بفكرته الاخرى القائلة بضرورة انقضاء زمن لا نهاية له تقريبا لكى يحدث فيه هذا الضغط تأثيره ، جاء بها من الجيولوجى «ليل» الذى استطاع أن يقضى تماما على الرأى الذى دعا به كبير الاساقفة « أشر » عندما قدر عمر الارض من نصوص الانجيل بأنه ٤٠٠٤ سنة قبل الميلاد تضاف اليها سنوات ما بعد الميلاد . أما بحوث الاقتصاديين من انتاج ريكاردو الخاصة بقانون تناقص الغلة والذى لم يكن سوى ترجمة مدرسة منشستر لنظرية الزرافة والاشجار ، فقد كانت موضوع مناقشات عنيفة جدا عندما كان داروين شابا فى مقتبل العمر . والحق ان اكتشاف الاثار الاقتصادية لقانون « الانتخاب التجارى » فى الاراضى ومواقع البناء على يد الفسيوقراطيين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، وكذلك اكتشاف قانون التنافس على خبز الكفاف على يد مالتوس الذى أرجعه الى ضغط السكان على وسائل البقاء المتوفرة ، هذه المكتشفات قد نقلت العلم السياسى

---

(١) T.R. Malthus ١٧٦٦–١٨٣٤ الاقتصادى البريطانى . صاحب « مبدأ تعداد السكان كما يؤثر فى مستقبل تحسين الجنس البشرى » وفيه يقول أن السكان يزيدون بأكثر من زيادة الموارد الغذائية المتوفرة . وأن الحرب والفقر والمجاعات والرذيلة كفيلة بانقاص تعداد السكان . ومن ثم فالاجور لابد أن تهبط الى حد الكفاف لتحد من زيادة السكان ..

الى ذلك الجو المختنق الكاتم للانفاس ، جو القدرية الكئيب ، والقدرية هي الآفة المميزة للداروينية • وقبل أن ينشر داروين سطرا واحدا من مؤلفاته بوقت طويل ، كان الاقتصاديون من أتباع ريكاردو ومالتوس ينادون بشعار صندوق الاجور الجبرى ويؤكدون للعمال أن الحركة النقابية تحد لا جدوى منه لقوانين الاقتصاد السياسي الجبرية المحتومة التي لا مناص منها ، وهذا يشبه تماما ما يؤكده الداروينيون في وقتنا هذا من أن تشريع منع الخمور هو تحد لا جدوى منه لقانون الانتخاب الطبيعي ، وأن الطريقة الحقيقية لعلاج الادمان على الخمر هي اغراق البلاد في الخمور الرخيصة « الجن » وترك الاصلح ليبقى . وبعد فان الكوبدنية (١) ليست سوى التخلى عن التجارة للانتخاب الخاضع للظروف

من الصعب أن نبالغ في أهمية الدعاية السياسية والدينية الواسعة النطاق ، التي مهدت الطريق تمهيدا منظما للداروينية وأحاطتها بالجو الاخلاقي الخاص بها. فلم يحدث قط في التاريخ — على حسب علمنا — أن بذلت مثل هذه الجهود الحازمة المدعمة بالاموال السخية والمنظمة سياسيا بدقة ، لاقناع الجنس البشرى بأن كل تقدم وازدهار وخلاص سواء للافراد أم للجماعات، انما يعتمد على الصراع الذي لا ضابط له من أجل الطعام والمال ، ويعتمد على ابادة القوى للضعيف ، ويعتمد على مبدأ التجارة الحرة والعقد الحر والمنافسة الحرة والحرية الطبيعية وشعار •• دعه يعمل •• وبالاختصار يعتمد على مبدأ تحطيم الخصم وسحقه وافلاسه بكل

---

(١) نسبة الى كوبدن المتعصب لمذهب حرية التجارة

وسيلة فاجرة فى حيز الامكان ، وعلى أن كل تدخل من جانب الحكومة الموجهة وكل تنظيم يتجاوز تنظيم البوليس ليتولى حماية عمليــــات النصب والاحتيال المشروعة من عدوان المعتدين ، وكل محــاولة لوضــع هدف انسانى وخطة انسانية وجو انسانى فى المجال الصناعى ، يعتبر عملا موجها ضد قوانين الاقتصاد السياسى الجبرية التى لا يمكن تغييرها . بل ان البروليتــاريا نفســـها كانت متعاطفة مع هذا الاتجاه ، مع أن الحرية الرأسمالية كانت تعنى بالنسبة لهم عبودية الاجر الخالية من أى ضمانات مشروعة كان العبيد يتمتعون بها فى ســوق النخاسة . كان الناس قد ملوا الحكومات والملوك والكهنة المتسلطين باسم العناية الالهية ، وأرادوا أن يعرفوا بأنفسهم كيف تدبر الطبيعة الامور اذا ما تركت وشأنها . وقد عرفوا ذلك بعد أن دفعوا الثمن غاليــا فى تلك الايام التى كانت لانكشاير تستهلك فيها تسعة أجيال من العمــال عبيــد الاجر فى جيل واحد من سادتهم الرأســـماليين . غير أن ســـادتهم ازدادوا ثراء فوق ثراء ، ومن ثم كانوا راضين عن الاوضاع كل الرضا ، وأثبت باستيات (١) بالحجج المقنعة أن الطبيعة رتبت « الهارمونيات الاقتصـــادية » التى ستتولى حل المشــكلات الاجتمــاعية بأفضــل مما يستطيعه الثيوقراطيون والارستقراطيون والغوغائيون ، فان الحـــكمة الالهيـــة deux ex machina هى البلوتوقراطية المطلقــة « حــكم الاغنيــاء المطلق » التى لا ضابط لها

---

(١) F. Bastiat ١٨٠١ – ١٩٥٠ الاقتصادى الفرنسى مؤلف كتاب Harmonies of Political Economy يؤيد فيه بشدة حرية التجارة Laissez-faire والفردية الاقتصادية

شو ودأروين

التطور في المسرح

على خشبة المسرح (وهنا أصل فى نهاية المطاف الى الدور الذى ألعبه أنا شخصيا فى المسألة) عملت الكوميديا كفن هدام ساخر وناقد وسلبى ، على ابقاء المسرح مفتوح الابواب بعد أن ماتت التراجيديا الرفيعة . فمنذ موليير الى أوسكار وايلد مر بنا طابور من الكتاب المسرحيين الكوميديين الذين وان لم يكن لديهم شىء ايجابى يقولونه لنا بصفة أساسية فقد كانوا على الاقل فى حالة تمرد وثورة على الزيف والخداع ، ولم يكونوا كما زعموا يعملون على تطهير أخلاقنا بالسخرية فقط ، بل كانوا كما قال جونسون يعملون على تطهير عقولنا من الحذلقة ، فنراهم لدى وقوع أى خطأ ، يبدون أمارات القلق وعدم الارتياح وهذا أوثق دليل على الحيوية الذهنية . وفى تلك الاثناء انتحلت اسم التراجيديا وادعته لنفسها مسرحيات يقتل فيها كل شخص فى الفصل الاخير تماما كما انتحلت اسم الكوميديا المسرحيات التى يتزوج فيها كل شخص فى الفصل الاخير رغم أنف موليير . جوهر القول أن من غير

الممكن وضع تراجيديات أو كوميديات باتباع وصفة مكتوبة تعين اللحظات الاخيرة فى الفصل الاخير . فلم يؤلف شكسبير هاملت من مجزرتها الختامية ، ولا الليلة الثانية عشرة من زواجها الختامى . ولم يسع شكسبير أن يصور تصويرا واعيا تعاليم وأفكار دين من الاديان أو فلسفة من الفلسفات لانه لم يكن له دين واع ولا فلسفة واعية . وعلى ذلك كان لابد له من ممارسة مواهبه وملكاته الفطرية غير العادية — فى ذلك الفن المسلى الممتع : فن التقليد والمحاكاة ويمنحنا ظاهرة « رسم ابعاد الشخصية » (١) وهى الظاهرة التى جعلت تمثيلياته بهيجة وممتعة كروايات سكوت وديماس وديكنز . كما أنه عمل على تطوير ذلك الفن العجيب المثير للدهشة ، فن تشييد ملجأ لنا من اليأس بوضع قناع من الدعابات على قساوات الطبيعة . ومع ذلك ، ومع كل ماله من مواهب ، فلازالت حقيقة أمر شكسبير قائمة ثابتة وهى أنه لم يجد الالهام قط ، ليكتب مسرحية واحدة ذات اصالة . لقد أعاد كتابة تمثيليات قديمة واقتبس للمسرح قصصا شعبية وفصولا من التاريخ من كتاب هولنشيد (٢) : كرونيكلز ومن تراجم بلوتارك . وقد فعل هذا (أو لم يفعله لان الفن كالمعادلة الجبرية فيه كميات سالبة) بجرأة تثبت أن حرفته أوسع بكثير من ذمته وضميره . حقا انه لم ينقل أبدا شخصياته من القصة المستعارة نقلا حرفيا ، وسبب ذلك أنه كان يلقى فى اعادة خلقها من جديد مشقة أقل ومتعة أكبر مما لو نقلها نقل مسطرة ، ومع ذلك نراه يقتبس من القصة المستعارة

---

(١) Delineation of character

(٢) R. Holinshed مات سنة ١٥٨٠ مؤلف Chronicles of England Scotland and Ireland وقد أخذ عنها كتاب المسرح الاليزابثى قصصهم ومنها أخذ شكسبير قصص : ماكبث — لير — ومعظم سيمبلين

كل مافيها من جرائم وشرور ليكدسها بلا تحفظ أو تحرز فوق شخصياته المرهفة ومخلوقاته اللطيفة مهمـــا كان ذلك منفرا وكريها وخاليا من كل انسجام . وكانت حاجته الحيوية الملحة لفلسفة مايؤمن بها ، تدفعه وتستحثه طوال الوقت للبحث عن فلسفة خاصة به بطريقـة المحترفين العجيبة : طريقة ادخال الفلاسفة والحكماء كشخصيات فى مسرحياته ، وأحيانا يجعل من أبطاله أنفسهم فلاسفة وحكماء : ولكنهم عندما يمشون على خشبة المسرح ، اذا بهم صفر اليدين بلا فلسفة يعرضونها وليسوا أكثر من شخوص متشائمة هجاءة سليطة اللسان . أما خطبهم الفلسفية المزعومة التى يقفون أحيانا ليلقوها على مسامع المتفرجين مثل خطبة : عصور الانسان السبعة (١) ومثل مناجاة الانتحار (٢) ، فتبين مدى عمق الظلمات التى كان شكسبير يتخبط فيها بالنسبة للفلسفة ومعناها ومفهومه عنها . لقد فرض شكسبير نفسه بالقوة ليعد من بين أعظم كتاب المسرحية بدون أن يتخطى قدمه ولو مرة واحدة ـ حدود الارض التى تتجلى فيهـــا عظمة ميكل آنجلو وبيتهوفن وجوته وشعراء المسرح الاثينى انقديم . ولقد كان جديرا بألا يحظى بأى نصيب من العظمة على الاطلاق مالم يتوفر لديه قدر من العقيدة الدينية يجعله يدرك أن واقعه اللادينى واقع يأس وقنوط .. ومسرحية الملك لير التى تشمخ على سواها ، يمكن أن تكون ميلودراما عادية لا أكثر مالم تعترف بشكل قاطع أنه اذا لم يـكن هنـاك مايقال عن الكون أكثر مما قاله عنه هاملت لكنا « عنـد

(١) فى مسرحية « كما تهواه » الفصل الثانى المنظر السابع ، والتى يصف فيها الدنيا بأنها مسرح والناس بأنهم ممثلون

(٢) فى مسرحية « هاملت » الفصل الثالث المنظـــر الاول . والتى يبدأها بأن تكون أو لا تكون ، تلك هى المشكلة . ويقول فيهـــا ان الضمير يجعلنا جبناء

الالهة كالذباب عنـــد الصبية العـــابثين : يقتلوننا فى ألعابهم » (١)

وظل كتاب المسرح من عهد شـــكسبير ، يناضـــلون مناضلة ضد نفس الظاهرة ، ظاهرة الافتقار الى دين يدينون به أو فلسفة يؤمنون بها ، فاضطر الكثيرون منهم أن يكونوا مجرد قوادين وتجار ملذات وشهرة ، ومهمـــا ارتفعت مطامحهم عن ذلك المستوى ، فلم يجدواموضوعات يعالجونها أفضل مما كانوا منغمسين فيه فعلا . لقـــد أصيبوا جميعاً ابتداء من كونجريف (٢) الى شريدان (٣) بالعقم الشديد على الرغم من لباقتهم فى استخدامالالفاظ بحيث أنهم مجتمعين لم يستطيعوا أن ينجزوا مايضارع انتاج موليير وحده . كانوا كلهم يخجلون من حرفتهـــم (ولم يكن ذلك بغير مبرر قوى) ويفضلون أن يعتبرهم الناس مجرد فتيان عصريين يمارسون هواية ماجنـــة فاجرة . كان جولد سميث (٤) صاحب النفس القوية الوحيدة التى نجت من هذه البؤرة الفاسدة التىاختلط حابلها بنابلها

ثم عمد أئمة الكتاب المعاصرون لى (والذين أصبحوا الان مخضرمين) الى المشاكل الاجتماعيـــة الصـــغيرة فخطفوها خطفا ، وجعلوها هدفا يهديهم . أبعد من هدف كسب المال والشهرة . وقد أعرب لى أحدهم عن احساسه بالغيرة من كتـــاب المسرح الاغريقيين ، لان الاثينيين لم

(١) فى مسرحية « الملك لير » الفصل الرابع المنظر الاول

(٢) W. Congrave ١٦٧٩ – ١٧٢٩ المـــؤلف المسرحى الكوميدى المشهور بحسن الصنعة أهم مسرحياته Love for love

(٣) R. Sheridan ١٧٥١ – ١٨١٦ أهم مسرحياته The Rivals - School for Scandals

(٤) O. Goldsmith ١٧٣٠ – ١٧٧٤ صاحب مسرحية She Stoops to Conquer

يكونوا يطلبون منهم « أقنعـــــة جـــديدة » لنصف دستة من الافـــكار ، هى كل ما يدور حولهـــــا المسرح الحديث ، بل كانوا يطلبون منهم تقــــــديم أعظم الدروس وأبلغ العبر التى يمكنهم استخلاصـــــها من الاساطير الشعبية المألوفة والمقدسة فى بلادهم . قال : « لماذا لا نكتب جميعنا مسرحيات مثل الكترا وانتيجون وأجا ممنون (١) ، ونبين ما فى استطاعتنا أن نفعله بها ؟» ولكنه لم يكتب واحدة منها لان هذه الاساطير القديمة لم تعد لها الصفة الدينية المقـــدسة : لقا ماتت أفروديت وآرتيميس وبوسيدون (٢) ،وأصبحن أشـــد موتا من تماثيلهن . ثمة كاتب آخر يحتل مركزا قياديا ، يجد فى متناول يده ــ بل عند أطراف أنامله ــ كل حيـــلة معروفة من الحيل « الفارس » البريطانيـــة والدراما البارسية ، ولكنه لم يستطع فى نهاية الامر أن يـــكتب حرفا بدون أن يلقى موعظة دينية ، ومع ذلك لم يعثر لمواعظه على نصوص اعمق مما فى البيوريتانية المزيفـــة من آيات النفاق أو مما فى المضاربات على الزواج التى تجعل ممثلاتنا الشابات حريصات على ســـمعتهن حرصهن على نضارة بشرتهن . وهناك كاتب ثالث أرق قلبا من أن يكسر خاطرنا بعرض الحقيقة عن أية تجربة مريرة ، فجعـــل يداعب عواطفنا بالشوق واللهو والمتعة مخترعا ذلك كله من أرض السحاب الخرافية التى تقع بينه وبين السماء الفارغة . أما عملاقا المسرح فى عصرنا هذا،وهما ابسن(٣)

(١) الكترا ابنة اجا ممنون وانتيجون ابنة أوديب من أمه ، وكلهم من أعظم الشخصيات التراجيدية فى الاساطير اليونانية

(٢) الهة الجمال والعفة والبحر على التوالى

(٣) H. Ibsen ١٨٢٨ ــ ١٩٠٦ أشـــهر كتاب المسرح النرويجيين وزعيم المدرســة الواقعية فى المسرح العــالمى ترجمت معظم مسرحياته الى العربية

وسترندبرج (١) فلا يجدان في عالمنا من الراحة والعزاء والسلوى أكثر مما نجده نحن ـ بل الحق يقال ان مايجدانه من ذلك أقل بكثير جدا مما نجده ـ لانهما أنكرا علينا ذلك العزاء الشكسبيرى ـ الديكنزى الذى يمنحه لنا الضحك من الشر والسخرية بالقسوة ، وهو عزاء يمكن أن يسمى بدقة : العزاء المضحك ، أو العزاء الكوميدى . ثم يأتى بعدنا خلفاؤنا المتحررون فاذا بهم يحتقروننا احتقارا وهم محقون فى ذلك تماما . ولكنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا أفضل مما فعلناه مادامت الدراما باقية حيث هى ، فى مرحلة ماقبل التطور . وليتأملوا جوته ـ ذلك الاستثناء الفذ من القاعدة : لم يكن جوته بأثرى ولا أخصب من شكسبير أو ابسن أو سترندبرج فى الموهبة الدرامية ، ومع ذلك كان يقف عاليا وفى أعلى عليين بينما يعض خلفاؤنا المتحررون على نواجذهم فى الوحل ، فى سخط عقيم ، أو على أحسن الاحوال يجدون لذى صفراوية فى السخرية بمحنتهم . ان جوتة يقف بين آلهة الاوليمب : أما العمالقة الاخرون فهم أبالسة جهنميون فى كل شىء الا فى تحريهم الصدق دائما ، وفى استنكارهم للكفر السائد فى عصرهم ، ومعنى ذلك أنهم ممروورن يائسون . والمسألة ليست مسألة تواريخ فقط . فلقد كان جوته مؤمنا بالتطور فى سنة ١٨٣٠ ، ولا زال كثير من كتاب المسرح فى سنة ١٩٢٠ ، من صغار السن منهم ، لم تمسسهم بعد يد التطور الخلاق . ولقد « تدرون » ابسن لدرجة أنه استغل قوانين الوراثة على المسرح بنفس الوفرة التى كان كتاب

---

(١) A. Strindberg ١٨٤٩ ـ ١٩١٢ أشهر كتاب المسرح السويديين أهم أعماله الاب . مس جولى « مترجمتان » والطريق الى دمشق . ورقصة الموت

المسرح الاثينيون القدماء يستغلون بها ربات اليومينيدس(١) وان لم يكن فى مسرحياته أى أثر يدل على معرفة أو ايمان بالتطور الخلاق كحقيقة علمية عصرية • حقا ان طموحه الشعرى واضح وضوحا كافيا ، فى مسرحية «الامبراطور والجاليلى » ، غير أن احدى مميزات ابسن الفائقة ان العلم كان هو الشيء الصحيح الوحيد فى نظره : ثم انه ترك وراءه تلك النبوءة الخاصة بالمستقبل ، والتى كان عرافه الرومانى يسميها « الامبراطورية الثالثة » ـ كحلم طوبوى مثالى عندما استقر به الحال وبدأ يعالج الحقائق الواقعية معالجة جادة فى مسرحياته التالية التى تعالج الحياة العصرية والتى غزا بها أوروبا وقهرها ، وحطم بها النوافذ المتربة فى كل مسرح متعفن نخره السوس فى جميع أرجاء أوروبا من موسكو الى منشستر

الدور الذى لعبته فى المشكلة

فى أثناء عملى ككاتب مسرحى ، تبينت أن هذه الاوضاع لايمكن أن تطاق أو يصبر عليها . كان المسرح العصرى (المتمشى مع الموضة) يقدم وصفة جادة واحدة كعلاج لهذه الاوضاع : أن يتناول موضوع الخيانة الزوجية . مع أنه أشد الموضوعات املالا عند الكاتب الجاد ، مهما كان رأى الجمهور فيه ، الجمهور الذى يطالع أخبار النشاط الذى يقوم به رجال المباحث ويضرب صفحا عن المقالات والافتتاحيات . وهكذا جربت أن أعالج موضوعات ملكية أراضى القسس السكنية ، ومذهب حرية الحرب (الابسنية الكاذبة) ، والبغاء والروح العسكرية والزواج والتاريخ ومشاكل السياسة اليومية والمسيحية «الطبيعية»

(١) Eumenides أو الفيوريز ، آلهة الغضب والانتقام والحسد فى الاساطير اليونانية

والشخصية القومية والشخصية الفردية ومتناقضات المجتمع التقليدى ، واصطياد الازواج ومشاكل الضمير ، والمهن ومايكتنفها من أوهام وغش واحتيال ... وكانت كل هذه الموضوعات مصوغة فى سلسلة من مسرحيات السلوك الكوميدية على الطريقة الكلاسيكية التى لم تعد فى وقتها شائعة ولا مألوفة ، لان الحيل الميكانيكية « للبناء الدرامى » الباريسى كانت أمرا لازما ومحتما de rigueur فى المسرح • غير أن هذا وان ملأ فراغى ، وثبت ودعم مكانتى فى مجال المهنة ، الا أنه لم يجعلنى الفنان المصور لدين العصر الذى أعيش فيه ، وهو الشرط الذى يحقق وظيفتى الطبيعية كفنان . كنت على وعى تام بهذه الحقيقة ، لاننى كنت على علم تام وبصفة دائمة ، أن الدين بالنسبة للحضارة هى مسألة حياة أو موت . وفى الوقت الذى كانت فيه فكرة التطور الخلاق تنمو وتنضج اكتشفت أننا أصبحنا أخيرا قاب قوسين او أدنى من التوصل الى دين جديد يحتوى على أول شرط فى جميع الاديان التى سيطرت فى يوم من الايام على وجدان الانسانية ، هذا الشرط هو أنه يجب أن يكون أولا وأساسا ميتابيولوجيا (١) • وكان هذا الاكتشاف نقطة تحول حاسمة بالنسبة لى ، لاننى لاحظت أن ظاهرة عبادة الانجيل أى اعتباره طلسما له قوة سحرية ، تصمد فى وجه كل النيران التى اطلقتها عليها المدفعية العقلانية التى سلطها عليها هيوم (٢) وفولتير ومن اليهما ، ثم لاحظت بعد ذلك أنها انهارت أمام هجمات المؤمنين بنظرية التطور مع انهم أقل من أولئك موهبة ومقدرة ، ولم يكن ذلك لشىء

---

(١) Metabiology أو ما وراء البيولوجيا على غرار ماوراء الطبيعة أو الميتافيزيقا .

(٢) D. Hume

الا لان الداورينيين فضحوا عبادة الانجيل واعتبروه سحرا مقدسا ، ومن ثم قضوا على الثقة فيه كوثيقة بيولوجيــة وكمرجع علمي . ومنذ تلك اللحظة فقد الانجيل مواقعــه واحدا بعد اخر ، وزالت سيطرته على وجـدان الناس

أما أنا ، فقــد كانت روح القرن الثـــامى عشر الايرلندية تتسلط على وتجعل من المســتحيل ان أومن بشيء أو أن أصدق أى شيء مالم أفهمه بعقلى كنظـرية علمية بالرغم من كل ماكان سائدا فى معسكر العلم وأنصار العلم من دجل بشع وغش وخزعبلات ومنكرات ومطـامع وأوهام بلهاء ، وبالرغم مما كان لدى تجار العلاج والعلماء المزيفين من اكاذيب مكشوفة ومزاعم كهنوتية يبثونهـــا فى دأب واصرار فى عقول أبنائنا فى « التعليم الثانوى »الحديث لدرجة اننى كنت اجدنى فى بعض الاحيان مكرها على وضع تعريف محدد يميز بين العلم والمعرفة حتى لا أضــلل قرائى . ولكننى لم أنس قط أن الحكمة نفسها ـ بدون المعرفة ـ قد تكون أشد خطرا من الجهل الانتهــازى الصرف ، وأنه لابد لنا من شخص يتقدم ويمد يده الى جنة عدن ليطهرها من الاعشاب الضارة كما ينبغى أن تطهـر ..

وعلى هذا الاساس عالجت فى سنة ١٩٠١ أســطورة دون جوان فى شكلها الموزارى (١) وجعلتها رمزا دراميا للتطور الخلاق . ولكن لما كنت فى ذلك الوقت فى ذروة موهبتى الكوميدية الخلاقة ، فقد بالغت مبالغة شـديدة فى زخرفتها وترويقها ببذخ كبير وأحطت الاســطورة بكوميديا طويلة ، لم تشكل الاسطورة منها الا فصلا واحدا

(١) نسبة الى موزار وأوبراه الخالدة « دون جيوفانى » المؤلفة حول أسطورة دون جوان

وكان ذلك الفصل قصة قائمة بذاتها « جاء على هيئة حلم لا يؤثر فى حركة المسرحية»(١) بحيث يمكن انتزاع الكوميديا وتخليصها منه ، وتمثيلها قائمة بذاتها . والواقع أنه كان من الصعب عرض المسرحية كما هى بالكامل نظرا لطولها الهائل مع أن هذه المعجزة قد تحققت مرات معـــدودة فى اسكتلندا على يد مستر بيرس الذى كان يقبض بيديه على ناصية أمل ضائع من آمال الدراما التقدمية فى ذلك الحين . كما اننى زودت المسرحية المطبوعة باطار مؤثر يتألف من مقدمة ومن تذييل سميته «مفكرة الثورى» ، ومن عـــرض ختـــامى من الحكم والامثـــــال أطلقتهـــا مفرقعة كما تطلق الالعاب النارية . وكان لذلك وقع شديد فيما يبدو ، أدار رءوس الناس لدرجة أن أحدا منهم لم ينتبه الى الدين الجديد الذى وضـــعته فى مركز الدوامة الذهنية فى المسرحية . والان ، هأنذا أقرر أننى لم أقفز تلك القفزة الذهنية هكذا فى الهواء ولمجرد المغالاة والتهور وسوء التقدير . لقد فعلت ما فعلت لان من أسوأ التقاليد التى التزم بها النقد المسرحى الشائع فى ذلك الوقت، الا يكون للجدية الذهنية او للرصانة الفكرية محل على خشـــــبة المسرح ، وأن المسرح ليس الا مكانا للتسلية الضحلة ، وان الناس يذهبون الى المسرح للترويح عن أنفسهم بعد المجهود الهائل الذى يبذلونه طوال اليوم فى المدينة . وبالاختصار ، كان الكاتب المسرحى مجرد شخص كل وظيفته ان يصوغ من العواطف الرخيصة ، حلوى رخيصة غير صحية ليبيعها للناس . وكان ردى على هذا ، ان جمعت كل ما لدى من بضاعة ذهنية ووضعتها فى « فترينة » الدكان ، وعليها لافتة : « الانسان الاعلى » . وقد نجح هذا الجانب من

---

(١) الفصل الثالث من مسرحية الانسان والانسان الاعلى

خطتى فى أداء الغرض منه . وكللت الكوميديا بالنصر على خشبة المسرح بفضل حسن الحظ والتمثيل الجيد ، كما كانت المسرحية المطبوعة محل جدل طويل . ومنذ ذلك التاريخ ، لم تقم قائمة للرأى القائل بأن المسرح دكان لبيع الحلوى الرخيصة ، ولم يعد له أى وزن أو اعتبار

والان هأنذا اراني ملهما لان اصوغ من نظرية التطور الخلاق أسطورة ثانية وفى هذه المرة بدون شطحات أو مبالغات أو زواق ، بينما تتسرب رمال عمرى من ساعة حياتى الزمنة ، وبينما تهرم وتشيخ خصوبة سنة ١٩٠١ فتتحول الى مهاترة شيخ طاعن فى السن فى سنة ١٩٢١ ثم كانت الحرب بمثابة التحذير الصارم بأن المسألة ليست من المسائل التى تحمل على محمل العبث والاستهتار . واذا بى أتخلى عن أسطورة دون جوان بملابساتها الجنسية، وأعود من جديد الى أسطورة جنة عدن . وعمدت الى استغلال اهتمام الناس الابدى بحجر الفلاسفة الذى يمكنهم من الخلود والعيش الى الابد . وآمل ألا أكون قد وقعت تحت تأثير وهم كبير ، اكبر مما لابد ان يتصوره اى انسان، بالنسبة لما شرعت فيه من وضع انجيل للتطور الخلاق ، وما فى ذلك المشروع من بدائية وفجاجة . ولكنى أبذل جهد الاستطاعة فى مثل سنى، فقواى ومواهبى تحبو وتتضاءل، وتلك بشرى سارة للذين ضاقت صدورهم بعبقريتى والمعيتى عندما كنت فى زهرة العمر وعنفوان الشباب . ويحدونى الامل فى ان مائة اخرى من المسرحيات الدينية الاسطورية ، أرشق من أسطورتى هذه وأكثر مطابقة لمقتضى الحال ، تدبجها أيد أكثر شبابا من يدى ، سوف تسبق مسرحيتى على الطريق وتتركها وراءها بشوط طويل ..

بهذا الامل أعلن انسحابى واعطى اشارة لرفع الستار

الفصل الثالث

- تولستوى - تراجيدى أم كوميدى؟.
- نيتشة - أداء فريضة الشيطان.
- بيتهوفن.
- شو وفاجنر - كنز الراين



تولستوى - تراجيدى أم كوميدى ؟

ترى هل كان تولستوى تراجيديا أم كوميديا ؟ التعريف الشائع للتراجيديا هى الدراما الثقيلة التى يقتل فيهـــا كل شخص فى الفصل الاخير ، والكوميديا هى الدراما التى يتزوج فيها كل شخص فى الفصـــل الاخير . والتعريف الكلاسيكى للتراجيديا أنها دراما تطهر الروح عن طريق الرحمة والرهبة ، والكوميـــديا دراما تطهر الاخـــلاق بالسخرية . هذه التعريفات الكلاسيكية التى يمثلهـــا اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس مقابل اريستوفان فى المسرح الاغريقى القديم ، ويمثلها كورنيل وراسين مقابل موليير فى المسرح الفرنسى ، مازالت أفضل التعريفات التى يستطيع الناقد أن يعمل بموجبها الى حد كبير . غير أن المدرسة البريطانية طالما شنعت على المدرسة الكلاســـيكية وعلى الذوق الفرنسى وتحدتهما ، فلم يكن ثمة شىء يمنـــع الكاتب المسرحى الانجليزى من مزج الكوميديا بالتراجيديا ، بل من مزج التهـــريج بالتراجيديا : فالابله فى الملك لير

(*) مادة خطاب مرتجل القاه شو بمناسبة احياء ذكرى تولستوى فى قاعة كنجزواى فى لندن ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ . انترناشيونال مجازين نيويورك سنة ١٩٢١

« تراجيدى » . ولم يستطع شكسبير أن يخرج البواب من « ماكبث » ولا المهرج من « أنطونيو وكليوباطرة » ولا أمل ولا رجاء فى اصلاحنا فى هذا الشأن ، فهو عيب ميئوس منه تماما . وليت الامر يقتصر على هذا ، بل نحن قد نرى فى ذلك مزية وفضلا كبيرا

علينا اذن أن نتعرف على نوع ثالث من الدراما ونتمعن فيه : هو يبدأ كتراجيديا تتخللها شذرات من الفكاهة مثل « ماكبث » ، وينتهى ككوميديا خالية من أى فكاهة ، بعد أن احتلت مكان الفكاهة فيها سخرية انتقادية مريرة الى حد ما . ولا تسمى نتيجة هذا المزيج ميلودراما لان اصطلاح الميلودراما ، أصبح يعنى الدراما التى تعمل فيها الموسيقى المصاحبة للتمثيل على ابراز العواطف والانفعالات البدائية . ثم ان هنا منذ البداية نوع جديد حقا من الدراما ليس فيه اتحاد للعناصر المختلفة ، وان كان فيه تقارب صريح بين الفكاهة والفزع فى التراجيديا ، وبين الثقل والخفة فى الكوميديا ، فأمامك ماكبث وعدو البشر (١) ودون جوان (٢) والعبرة بالخواتيم (٣) وترويلوس وكريسيدا (٤) ، وكلها مسرحيات لا تنتمى فى نظر أرسطو وفولتير الى أى من النوعين ولا تخضع لقاعدة واحدة او كما يقال لا هى سمك ولا لبن ولا تمر هندى

وفى انجلترا ، عندما اغتالت الرقابة الدراما الجادة وأجهزت عليها واضطر كتاب الدراما الى التعبير عن أنفسهم بالرواية ، أصبح الخليط أشد خروجا على القواعد ، وانحرافا عن القوانين مما كان فى أى يوم مضى .

---

(١) misanthrope كوميديا موليير الخالدة
(٢) Le festin de Pierre لموليير
(٣) All is well that ends well لشكسبير
(٤) لشكسبير

وقد عالج هذا اللون من الرواية فيدلنج (١) ثم بلغ أوجه في ديكنز وأن كانت مبالغـــات ديـــكنز جـــديرة بأن يوضع لها حد لو انه اضطر لاخضاع شخصياته الروائية مثل ميكاوبر ومسز ويلفرس موضع الاختبار على خشبة المسرح ، وعندئذ كان حريا بأن يتبين على الفور أن الادوار التى تقوم بها ليست الا مجرد نكتة واحدة تلقى مرارا وتكرارا ، وانها تفتقر الى الموهبة التى تخلق وتطور المادة التى تتألف منها الحركة المسرحية . ولو دخل ديكنز باب المسرح لاضطر لان يبدع شخصيات أفضـــل من الخالة ساليز . وبعد ديكنز لا يسع المرء أن يفكر فى أى كاتب عظيم أنتج ذلك الخليط المختلط أو « السـلطة » من الكوميديا والتراجيديا الا أناتول فرانس (٢) . وأناتول فرانس فى هذا الصدد ، شخص لا رجاء فيه هو الاخـر حتى فى أثناء أشد محاولاته الفنية جدية للاحظة مظاهر الحياة وهارمونيات الفن وتسجيلها فى ترجمته الذاتية : « بيير الصغير » ، فاذا به ينهار ويخوض فى فصـول من التهريج الجامح « ولك فقط أن تتأمل شخصية الخادم ريدجون والشخصيات الشابلينية ســيمون نانتواد البابيجابى » ثم يخجل من نفسه ويرعوى ليعود الى قصة حياته الحقيقية بعد أن أدرك انه فقـــد كل حق له فى الوقوف موقف الشهادة أمام القضاء ، وبيده «بيير الصغير» باعتبارها الحق كل الحق ولا شىء غير الحق ، وليـــكن

---

(١) H. Fedling ١٧٠٧ - ١٧٥٤ مؤلف رواية « توم جونز » احدى روائع الادب الانجليزى . وقد اتجه الى الرواية لتعنت الرقابة المفروضة على المسرح فى أيامه

(٢) Anatole France ١٨٤٤ - ١٩٢٤ الكاتب الفرنسى الساخر وصديق شو . صاحب « جريمة سلفسربونار » وتاييس « مترجمة » وثورة الملائكة « مترجمـة » والالهة غبرثى « مترجمة » و « التـاريخ المعاصر »

روسو فى عونه !(١) وأناتول فرانس فى جانبه الكوميدى هو ديكنز الفرنسي متنكرا خلف قناع من الثقافة الواسعة، ونرى فى احدى قصصه الاولى جوكاست أبا البطلة شخصية كوميدية ديكنزية كاملة .. بل لعلها اكمل وأكثر تناسقا مما استطاع ديكنز نفسه أن يصوره من الشخصيات على الورق على الاطلاق

وبعد ديكنز ، استكملت الكوميديا تطورها فى نوع جديد سمى تراجيكوميديا بحسب المحاولات التى بذلت لوضع تعريف له . لقد ظلت التراجيديا الرفيعة حيث هى منذ البداية لم تتطور قط : فهى اما فشلت فى تحقيق الغرض منها ولم يعد فيها من التراجيديا شيء واما توقفت حيث كانت ولم يشعر أحد بحاجة تدفعه الى المضى بها الى أبعد مما وصلت اليه أيام الاغريق . كانت الحاجة الوحيدة التى شعر الناس بها ، هى حاجتهم الى الترويح عن أنفسهم ، الى أن يطلقوا من صدورهم تنهدة الارتياح ، وهكذا فعلى الرغم من بقاء التراجيديا على حالها السابق ابتداء من اسخيلوس الى ريتشارد فاجنر (وهو آخر الشعراء التراجيديين العظام فى أوروبا) فان ظاهرة الاستعانة بوقت من الفكاهة أو « بساعة حظ » ـ وهى ظاهرة نقرنها دائما بشكسبير ـ قد سادت وتفشت وتغلبت حتى على اسخيلوس ، فقد خلقت خفراء كوميديين خافوا من الذهاب لنجدة أجاممنون ، وتظاهروا بأن ليس ثمة شيء يحدث ، وهذه الظاهرة نفسها تغلبت على أحسن انتاج فيكتور هوجو عندما سقط بطله دون سيزار دى بازان متدحرجا من المدخنة .غير أن التراجيديا ظلت بصفة أساسية متربعة على قمتها العالية ، بسيطة لم تشبها شائبة ، بطولية

---

(١) مشيرا الى العبارة التقليدية التى يرددها الشاهد فى المحاكم الغربية مقسما على الكتاب المقدس ومستعينا بالله

المضمون ابتداء من سوفوكليس الى فردى

ولم يكن هذا شأن الكوميديا . فعندما أفسحت «زوجات وندسور المرحات » (١) الطريق لمسرحية « الزواج على الطريقة العصرية » (٢) ، وأفسح روميو الطريق لهاملت وبانش (٣) لدون جوان وبتروكيو (٤) لالما فيفا (٥) — وعموما عندما أفسحت المسرحية الصاخبة العنيفة ، ومبدأ الفكاهة من أجل الفكاهة ، الطريق الى مبدا تطهير الاخلاق تطهيرا جادا من خلال التهكم والسخرية والنقد اللاذع على أوسع نطاق — عندئذ قل نصيب الشاعر الكوميدى من الفكاهة والقدرة اللانهائية على التهكم ، وأصبح بالتدريج انسانا ساخرا ناقدا يكشف أساسا عن مهازل تراجيدية عميقة وانفسح المجال أمام نوع من الكوميديا يحتوى على قدر من التراجيديا أكثر مما تحتوى عليه التراجيديا الفاجعة نفسها ، تماما كما يحتوى الزواج غير السعيد بل الزواج السعيد على قدر من التراجيديا أكثر مما تحتوى عليه حادثة قطار سكة حديد مثلا . فمسرحية شكسبير المرة ذات العنوان المر : « العبرة بالخواتيم » تسبق ابسن وتتنبأ بمجيئه ، وخاتمتها السعيدة التى يسخر منها عنوانها فيها من العزاء والسلوى أقل مما فى خاتمة روميو وجولييت . ثم جاء ابسن فكان هو الشاعر الدرامي الذى وضع بقوة وحزم أساس الكوميديا .. التراجيدية باعتبار أنها ضرب من العزاء والسلوى أعمق وأكثر جدية من التراجيديا التقليدية . ان أبطاله يموتون بلا أمل أو شرف ، وموتاه أشخاص منسيون حل محلهم غيرهم ، يمشون ويتحدثون

---

(١) لشكسبير

(٢) marriage à la mode

(٣) الاراجوز

(٤) شخصية فى مسرحية ترويض العامية لشكسبير

(٥) شخصية فى مسرحية زواج فيجارو

مع أشباح الماضى ، وجميع شخصياته أبطال كوميـــديون ونهوضهم وسقوطهم ليس من قبيل التشنجات المطهـــرة للروح بالرحمة أو بالاستنكار ، بل من قبيل التحـــدى والنقد الموجه للمجتمع وللمتفرج باعتباره مواطنا له صوت فى الانتخابات . انها شخصيات يائسة ، ومع ذلك لاتخلو من الامل ، لانها فى الاغلب تجسيد لنقد المواقف الفـكرية الزائفة والتى هى بطبيعتها الفكرية يمكن أن تعالج بفـكر افضل ..

وهكذا أصبحت الكوميديا هى الشكل الارقى للدراما . فلقد كان عنصر الصدفة هو نقطة الضعف فى التراجيديا ـ مع ما للصدفة من وقع فعال ـ لان من المستحيل جعلها ممتعة وانقاذها من وطأة الضجر والاملال . لقد تسبب «منديل» يد فى افساد مسرحية عطيل وهو ما تبينه شكسبير نفسه فيما بعد عندما كتب « حكاية الشتاء » . وينزل الســتار على « مدرسة الفضائح » (١) فى اللحظة التى تبـــدأ فيهـــا العلاقات بين سرفيس الخائن وبين ليدى تيزل الاشد منه خيانة ، تثير اهتمام المتفرج واستمتاعه لاول مرة منـــذ بداية المسرحية . ان الكوميديا التراجيدية الحديثة سواء فى مأساتها أو ملهاتها ، تبدأ من حيث انتهت التراجيديات والكوميديات القديمة وحملت عصاها ورحلت عن خشبة المسرح ، وأصبح لدينا فعلا مسرحيات مكتوبة ومعروضة، تتناول الاحداث التى وقعت لشخصيات ابسن من قبل أن يبدأ الفصل الاول (٢).

والان ، يمكننا بسهولة ، أن نضع تولستوى فى خـــانة التراجيكوميديين الى أن يخترع لنا أحد الناس اسما افضل من

---

(١) مسرحية شريدان

(٢) يشير الى مسرحيات له ولغيره مثل والتر بيزانت قائمة عـــلى شخصيات ابسنيه مثل نورا فى بيت الدمية وغيرها

ذلك . وتولستوى من بين جميع الشعراء الدراميين لديه
اقوى قوة على التدمير بلمسة واحدة ، متى شاء أن يدمر .
وروا اياته تبين ذلك المرة بعد المرة : يدخل الرجل بيتاحيث
يرقد شخص مسجى ميتا . وهنا لايلجأ تولستوى الى
مواعظ تقال أو الى سخرية مكشوفة بل الى البساطةالتى
يجيد استخدامها اجادة تامة ، فيخبرك فقط أن الحانوتى
ترك غطاء التابوت مركونا على الجدار فى مدخل الصالة ،
وأن الضيف يدخل حجرة الاستقبال ، ويتربع جالسا على
شلتة . وفى لمحةواحدة نرىالهزلة والسخافة والتفاهةفى
مواكبنا الجنائزية المطهمة وفى عواطفنا الفياضة التى نعرب
عنهافى المدافن، نراها وهى تضحك بملءأفواهها فىوجوهنا .
أو يذهب القاضى الى المحكمة ليتربع فى كرسى عال شاهق
يصدر منه أحكاما كأنها الاحكام المنزلة ، ويرسل باخوانه
من خلق الله الى المشانق والسجون . ولا يسمح تولستوى
لشيء أن يخفف من وقار المناسبة ، فلا جبين القاضى
ينعقد ، ولا عين له ترمش — ولكن تولستوى يخبرنا أن
القاضي يقوم قبل أن يترك غرفته ، ببعض التمرينات
البدنية واحد اثنين واحد اثنين . وهكذا فى لمحة بصر
نرى القاضىمطروحا أمامنا فىالوحل بفرائه ومخمله ووشاحه
الارجوانى وهيله وهيلمانه جاعلا من نفسه وسائر القضاة
هدفا لسخرية لا يمكن وصفها بأى كلام يقال . أما ديكنز
فيحملنا على الضحك وهو يصف « فتاحة » الزجاجة فى يد
أورفلنج وهى تنفصل عن السدادة وتلطمها فى ذقنها .
ونجد أنفسنا نهتف ونهلل للكاتب العابث ولكنه يترك
مسز أورفلنج وهى ليست أسوأ حالا ولا أقل مكانة فى
أعيننا مما كانت بعد مرور خمس دقائق . أما تولستوى
ففى مقدوره أن يزهق روحا بفتاحة الزجاجة دون أن
يسمح بتسرب أدنى اشارة أو أقل تلميح بأنه كاتب عابث
أو ساخر أو حتى بأنك ستضحك

هذه الطريقة الرهيبة ـ وان كانت كوميدية فى أصلها ـ هى الطريقة المتبعة فى جميع مسرحيات تولستوى ماعدا مسرحيته الاولى : « سلطان الظلام » التى تعتبر فى جملتها تراجيديا حقيقية . أما مسرحية « ثمار الثقـــافة » التى سبقت مسرحية « زواج آن ليت » (١) لجرانفيل ـ باركر بوقت طويل ، كما سبقت مسرحيات تشيكوف ـ هـــذه المسرحية هى الحلقة الاولى من سلســـــلة « بيـــوت الحسرات » (٢) وأشدها قدرة على التدمير والافناء . فهو يلمس بقلمه حجرة الاستقبال والمطبخ . وممسحة الارجل فى مدخل الصالة ومناضد الزينة فى الطابق العـــــلوى ، فاذا بها تفنى وتتلاشى كما تفنى وتتلاشى جنة كلنجسور باشارة من بارسيفال (٣) . « والجثة الحية » تتمتع بحياة كالتى كان يتمتع بها أكثر النبلاء الاقطاعيين فى بذخهـــم وفخفختهم . غير أن نظام النبلاء الاقطاعى ينهار ويتهاوى كنظام اجتماعى ، ويصبح ترابا تذروه الرياح باشارة عابرة من المؤلف الى أن النبيل العريق الاصل اذا لم يحصل على وظيفة فى الحكومة كجندى أو كدبلوماسى ، لا يبقى أمامه مايفعله الا ان يقتل نفسه بالخمر والنساء . انها حالة من الحالات التى يقال فيها : « لعنة الله عليكم أيها النبـــلاء المرحون . ولتنقلب عليكم كل الاشياء فزعا وحـــــزنا وهلاكا ! »

---

(١) The Marrying of Ann Leet تأليف Granville Barker ١٨٧٧ ـ ١٩٤٦ الممثل والمخرج المسرحى قام بتمثيـل واخراج عدد كبير من مسرحيات شو . والـــكاتب الواقعى المعاصر لشو

(٢) Heartbreak House مسرحية شو بهذا الاسم « ترجمت بعنوان منزل القلوب المحطمة »

(٣) Parcival البطل السليم النية فى اوبرا فاجنر الخـــــالدة بهذا الاسم

غير أن تحفة تولستوى ورائعته الكبرى هى مسرحية « نور سطع فى الظلام » (١) وفيها يذير لمسته المدمرة الى نفسه فى نزعة انتحارية ، حتى تنزل به الكارثة بلا رحمة . اما أن يصبح « بطل سيبا ستوبول » جنديا من الدرجة الثانية فشىء لا يؤبه له ، وأما أن تصبح ليفين فى « آنا كارنينا » خادمة عادية محبة للشغب والنقار ، فلا يكاد يلتفت اليه أحد . ان المؤلف الذى يصنع التراجيكوميديا نبى عظيم ولكنه متجسد فى هيئة انسان أبله غشيم نزاع الى القسوة والشر . وعندما يكتب مستر آيلمر مود (٢) ترجمة حياة تولستوى يمسك بالميزان فى انصاف وعدالة بين الزوج والزوجة غير ملق اى اهتمام بما يقال من أن الرجل العظيم معصوم لايمكن أن يرتكب خطأ . وعندما وقف من تولستوى موقف الناقد الذى يمزج نقده بالاحترام ، اذا بتولستوى نفسه يبدو لنا قاسيا لا يرحم نفسه ، واذا بقسوته تمتزج بالاحتقار . ان تولستوى لايريد أن يضفى على نفسه فضل انهاء مسرحيته . لقد ترك الفصل الاخير غير مكتوب ولكن مع تعليمات دقيقة عن الطريقة التى ينبغى أن يطلق بها الرصاص عليه كالكلب المسعور بيد أم الشاب الذى حطمه بتعاليمه ، كما حطم كل شخص اخر انصت اليه .. (٣)

ومع ذلك فلم يصدر تولستوى ـ فى الواقع ـ الحكم بادانة نفسه : لقد أوضح فقط انه كان مدركا تماما مافى مذهبه الفوضوى من فجيعة مدمرة ، بل كان على استعداد لمواجهة فجيعته المدمرة مفضلا ذلك على أن يقبل أو يساند

---

(١) ترجمها الاستاذ أحمد حسين المحامى ـ سنة ١٩٦٢ الناشر مكتبة الانجلو.

(٢) Aylmer Maude كاتب أحسن ترجمة لحياة تولستوى

(٣) يشير الى ان نهاية مسرحية نور يسطع فى الظلام لم تكتب لان تولستوى مات قبل اتمامها

سياسة النهب والعنف لا لشيء الا لان اللصوص والعسكريين لديهم من السلطة السياسية ما يكفي لجعل النهب والعنف أمورا مشروعة . ولابد من القول بأنه لو رفض كل انسان ان يتساهل في مبادئه او يقبل فيها الحلول الوسط ، فان ضروريات الظروف ستحتم اعادة بناء النظام الاجتماعي على أسس شريفة وسلمية . ولكن أفكار تولستوى وآراءه الخاصة باعادة بناء النظام الاجتماعي لم تتجاوز فيما يبدو قبوله لفكرة هنرى جورج عن ضرورة تأميم الارض بلا نقد ولا تحفظ . ولم يبد على تولستوى أن خطر له قط ، أن عملية اعادة بناء النظام الاجتماعي أيا كانت — فلابد وأن تنطوى على قدر من الضغط على الفرد واضطهاده الى حد ما على يد الدولة ، وان هذا القدر من الضغط والاضطهاد سيكون أكبر مما هو واقع في ظل النظام الحاضر ، لان هذا النظام يمارس الضغط ويفرض الاضطهاد بصفة غير رسمية وان كانت مظاهر الضغط والاضطهاد موجودة وواضحة في كل مكان ، بل ان النظام الحاضر يعتمد في كل ذلك على الظروف الراهنة المسئولة عن فقر البروليتاريا . ولم يتمكن تولستوى — كأى ارستقراطى مدلل الى حد ما ومزيف الى حد ما وهو ما كانه فعلا — لم يتمكن من احتمال الضغط أو القهر أو الاضطهاد ، فرفض رفضا تلقائيا ان يهتم أو أن يلتفت للمشكلة العملية الملحة مشكلة اعادة بناء النظام الاجتماعي وفقا لمبادئه ، اى مشكلة تقسيم الحد الادنى من الجهد اللازم لابقائنا على قيد الحياة ، وتوزيع ثماره بالتساوى بيننا . وقد تبين لينين أن هذه المشكلة تستلزم اطلاق كثير من الرصاص على المعاندين والمعارضين . وتولستوى مثل كثير من الانبياء غيره ، كان يدعو بالموعظة الحسنة والنية السليمة ، ولكنه لم يعثر قط على الوسيلة لتحقيق مايدعو اليه . ومن ثم كان تأثيره على الحمقى من ذوى النزعة الفردية « وقد وضع نفسه بينهم

فى مسرحية نور يسطع فى الظلام » تأثيرا خطيرا ، بل على أعظم جانب من الخطورة

ومع ذلك ، فقد كان تولستوى من كبار المحللين الاجتماعيين عندما كشف لنا كأستاذ من أساتذة الدراما التراجيكوميدية ، عما فى حياة الفرور والبلادة من تعاسة وسخافة ـ مع أنها هى الحياة التى نضحى فى سبيلها بشرفنا وبسعادة جيراننا

نيتشة - أداء فريضة الشيطان

منذ سنوات قليلة ، كانت هناك شركة لندنية تجارية للنشر تعمل تحت اسم : هنري وشركاه . وكانت سياستها في العمل ، سياسة متهورة تتلخص في القيام بمشروع عجيب هو أن تدعو أفرادا من جمهور القراء ممن يصعب ارضاؤهم ليشتركوا بمبلغ سنوى متساو تقريبا ، فى دفع ايجار دار فى ميدان جروزفنر ، وبهدف اصدار صحيفة يتولى كتابتها كلها من أولها الى آخرها عبقرى من العباقرة ، وتوزع عليهم مرتين فى الاسبوع وعلى مائدة الافطار . ولم يخطر لهم أن يكلفوا ليدى راندولف تشرشل (١) بالقيام بتحريرها ولكنهم دعونى أنا لكتابة العدد الاول . ووعدتهم ولكنى لم أنهض قط لتحقيق الموعد وفى تلك الاثناء أخذت الشركة تتسلى باصدار طبعة انجليزية لمؤلفات فردريك نيتشة آملة أن يكون ذلك أكثر مافى جعبتهم من المشروعات طيشا وتهورا بعد مشروع الصحيفة . ولم أكن أنا شخصيا أصدق وجود أشخاص باسم هنرى وشركاه

---

* ستر داى ريفيو ١٣ مايو سنة ١٨٩٩ بمناسبة نشر مؤلفات فردريك نيتشة لاول مرة مترجمة الى الانجليزية . فى جزئين (الناشر فيشر آنوين لندن)

(١) أم وينستون تشرشل

فلم تكن الشركة الا تجسيدا حيا للمستر جون • ب • جرين ذلك الرجل الجسور المحب للمخاطرة والذى أسس « المسرح المستقل » وأخذ لندن على غرة عندما أحدث فيها انفجارا مدويا بعرض مسرحية الاشباح ، لابسن • ولم يستطع الا بصعوبة ان يعثر على من هو أفضل من نيتشة ليحدث فى لندن انفجارا مماثلا يكون له نفس الوقع • وظهر من ترجمة اعمال نيتشة جزءان ، قبل ان تدفع الشركة ثمن تهورها ، ولم يكن لها فى الامر حيلة ، بتصفية حساباتها تصفية نظيفة شريفة ، وبيع جميع ممتلكاتها ومخلفاتها ، والاختفاء تماما من دنيا الناشرين

ومما يستلفت النظر ، أن يقدر للمشروعين الطوبويين اللذين قام بهما هنرى وشركاه ، أن يعيشا بعد وفاة أصحابهما الذين دفنت مع عظامهم مشروعات تجارية أخرى كانت أقرب الى النجاح من وجهة النظر العملية . فصحيفتهم الدورية التى كان ثمنها مرتفعا بصورة وقحة تدمغ المشترك فيها بوصمة الثقافة الارستقراطية — على وشك الصدور الان . وأما ترجمة أعمال نيتشة فقد واصلت طريقها الثورى الانقلابى على يد مستر فيشر آنوين المحترم

ان نيتشة هو محامى الشيطان ، فى روب المحامى العصرى . وفى الزمن الماضى عندما كانت تثار قضية اثبات صفة القداسة على أحد الاولياء ، كانوا يسمحون للشيطان بأن يوكل عنه محاميا يتولى الدفاع عن حقوقه فى روح ذلك الولى . وبطبيعة الحال لم يدر فى خلد أى انسان أن ينهض مدافعا عن حقوق الشيطان واعتباره أحد الموجهين والقادة للجنس البشرى وان كان قد أسىء فهمه كثيرا فضلا عن تمتعه بالاصالة والاستقلال فى الفكر • واستمر الحال مع ذلك حتى القرن التاسع عشر عندما تجاسر وليم

بليك (١) فعبر الحاجز الى الناحية الاخرى ــ وألف حزبا للشيطان . ومن حسن حظه أنه كان شاعرا ومن ثم أعتبر مجنونا مشبعا بالتناقض بدلا من أن يعتبر زنديقا وكافرا. وحقق الحزب تقدما طفيفا فى فترة طويلة نسبيا ، لان البلاد كانت فى ذلك الوقت منهمكة فى عرض دينهـا على النار المطهرة فى بوتقة النقد التى فاحت منها أخيرا رائحة عناصر وخامات افريقية بدائية . غير أن هذا النقد المطهر بالغ فى تمجيد الواجب والاخلاق والقانون وحب الغير ، ووضعها فى مرتبة تفوق مرتبة الايمان الدينى . وأقامت البلاد جمعيات اخلاقية وتولتها بالرعاية تاركة الشـيطان صديقى العجوز المسكين (فقد كنت أنا أيضـا مـولودا شيطانيا) فى حالة أسوأ مما كان فيها فى أى وقت . ومضى مستر سوينبورن (٢) يشرح بليك ويفسره . بل تمادى الى أن هتف ينادى الشيطان بقوله : « فلتهبط علينـا من عليائك ! ولتخلصنا من الفضيلة ! » غير أن ايمـاءات بوتنى (٣) الورعة أثرت عليه وعادت به الى الصف ، وهو الان رجل محترم تماما يخشى شكسبير كما يخشى الله . وأطلق مارك توين (٤) يضع شرارات شيطانية فى سـماء الادب ، لم يكد ينتهى من اطلاقها حتى سقط صريع المناخ

---

(١) W. Blake ١٧٩٧ ــ ١٨٢٧ الشاعر الانجليزى المتنبى والمتهم بالجنون . كان يزعم أنه يرى الملائكة والشياطين ويتحدث اليهم ، ويصورهم فى شعره

(٢) A.C. Swinburne ١٨٣٧ ــ ١٩٠٩ الشاعر الانجليزى الوثنى المتمرد ، أخذ عن بليك وبودلير

(٣) Putney بلدة فى جنوب غربى لندن وهى مسقط رأس سوينبورن

(٤) Mark Twain صموئيل لانجهورن كليمنس ١٨٣٥ ــ ١٩١٠ الكاتب الامـريكى الساخر مـؤلف مغامرات هكلبرى فن «ترجمت» وتوم ضوير « ترجمت »

الامريكي الكاسح ، الذى تسود فيه قيم الفروسية والواجب والدماثة أى قيم نبلاء الاقطلاع • ثم هبت في باريس نفحة شيطانية يائسة مزيفة تنهض على عقيدة دينية جامدة تقرر أن أمير الظلام (الشيطان) ليس جنتلمانا، ممازعزع الثقة في عبادة ابن الصباح (الشيطان أيضا) عبادة صادقة . وبدت المسألة كما لو كان كل شيء قد ضاع

عندما عثرت القضية على ابن درامى مخلص لها كل الاخلاص في شخص ابسن الذى كان اول امام حقيقى أمسك بتلابيب القيم التقليدية قيم الواجب وانكار الذات والمثالية والتضحية ... الى آخر عناصر المؤامرة الموجهة ضد الشيطان ، وجرها جميعا الى ساحة المحاكمة .

وما أكثر الذين وضعتهم هذه المؤامرة من المحامين الممتازين المدافعين عن الشيطان ، موضع الاتهام والتلبس بالجريمة. فقد انتشر زعم مخجل وشائن ، يزعم أن للرجل الصالح أن يفعل أى شيء يراه صوابا (والصواب فى هذه الحالة معناه بالطبع اى شيء يحبه الرجل الصالح) بدون أى إعتبار لمصالح الاشرار والفاسدين أى مصالح المجتمع بصفة عامة . وما انظهر ابسن حتى ولى هذا الزعم مدبرا ، ثم حوصر وألقى القبض عليه ووضع فى قفص الاتهام وارغم على أن يدافع عن نفسه ، وبهذا ـ أى فى نهاية المطاف ـ أصبح لحزب الشيطان نفوذ وسلطان

وفى أثر الكاتب الدرامى جاء الفيلسوف : فى انجلترا ج . ب . ش . وفى المانيا نيتشه وكان نيتشه قد جلس طويلا يتعبد عند قدمى فاجنر الذى كان بدوره يتعبد عند قدمى بطله سيجفريد ، وكان سيجفريد شيطانيا طيبا . ولكن كان من سوء حظ نيتشه أنه بعد أن تهيأ لاستقبال موسيقى فاجنر بحماسة شيطانية جامحة ، كأقصى مايكون

الجموح ، ذهب الى بيروث (١) ذهاب المتحمس المندفع فاستمع الى موسيقى فاجنر وهناك انقشعت عنه سحابة الوهم بقسوة مروعة لانه كان فى ذلك الوقت عاجزا عن احتمال أخف أنواع الموسيقى حتى اوبرا كارمن . وهكذا طرح صنمه المعبود أرضا ، ومانال ذاق لذة تحطيم الاصنام (ولعل عادة تحطيم الاصنام هى الوحيدة التى فيها من الفائدة بقدر مافيها من اللذة) حتى أصبح شيطانيا مريدا ، يتندر بالنكت ويلقى بالحكم والامثال ، ثم احتل مركزه « على الجانب الاخر من الخير والشر » ، وتخطى بقيمه الخاصة قيمنا الاخلاقية ، وسعى بصفة عامة لانقاذ البشرية من حكامها وأئمتها الذين يسيرون على الصراط المستقيم ، ولكن بلا ضمير لديهم على الاطلاق ..

والمجلد الذى أصدره توا ، مستر فيشر آنوين ،يحتوى على كتاب « تسلسل الاخلاق » ترجمة مستر وليم هاوسمان كما يحتوى على الامثال والحكم المنظومة التى نقلها الى الانجليزية مسترجون جراى بأسلوب اكثر من ذكى . ثم أعيد نشر كتاب « هكذا تكلم زرادشت » (٢) فى مجلد مصاحب للمجلد السابق ، وهو الاخر نفحة من الحكمة الشيطانية بأسلوب شديد التركيز ..

---

(١) **Bayrouth** المدينة البافارية فى المانيا حيث شيد فاجنر « مسرح العيد » حسب تصميمه . وافتتح المسرح سنة ١٨٧٦ بأوبرا فاجنر خاتم النبلونج . وظل المسرح والمدينة وأهلها اوفياء لموسيقى فاجنر الى اليوم

(٢) **Thus Spake Zarathustre** (مترجم الى العربية)

بيتهوفن ..

منذ مائة عام ، هز قبضته فى وجه السماء المزمجرة ، لاخر مرة ، عجوز أعزب شكس نكد الطبع ، صلب الرأى فى السابعة والخمسين من العمر ، بلغ منه الصمم أنه لم يكن يستطيع أن يسمع موسيقاه ، وان عزفتها أوركسترا كاملة ، ومع ذلك كان يستطيع أن يسمع صوت الرعد . مات كما عاش متحديا الله ومستفزا الكون . بل كان هو التحدى نفسه مجسدا . لم يكن يلقى الدوق الكبير وحاشيته سائرين فى الطريق الا وجذب قبعته بشدة وثبتها فوق رأسه وتقدم بخطوات واسعة ليخترق جمعهم لايلوى على شيء . كان سلوكه وسيره أشبه بسير وسلوك وابور الزلط : جاف الطبع (مع أن أكثر وابورات الزلط طيبة هادئة الطبع الى درجة الخنوع) . وكانت عنايته بملبسه أقل الى حد ما من عناية خيال المآتة بملبسه : حدث بالفعل أن قبض عليه البوليس مرة بتهمة التشرد بعد أن رفض ان يصدق ان مثل هذا الشخص الرث المهلهل الثياب يمكن أن يكون مؤلفا موسيقيا شهيرا فضلا عن أن يكون معبدا متنقلا تتعبد فيه روح جامحة صاخبة ومن أشد الارواح جموحا وصخبا ، روح وجدت التعبير عن نفسها فى الصوت المجرد .. وكانت والحق يقال روح جبار . ولو

(*) مجلة راديو تايمز ١٨ مارس ٢٧ ١٩ بمناسبة العيد المئوى لوفاته

انني كتبت عن أشد الارواح جبروتا ـ مما يعني أشد جبروتا من روح هاندل ـ فان بيتهوفن نفسه كان خليقا بأن يلومني .. ثم أي انسان هذا من بين البشر الهالكين يمكن ان يدعي أن له روحا أقوى وأشد جبروتا من روح باخ ؟ أما القول بأن بيتهوفن أشد الارواح جموحا وصخبا على الاطلاق ، فبعيد عن كل شك . ففي مؤلفاته غضب شديد متهور في شدته ، غضب يستطيع بسهولة تامة أن يحتويه ويسيطر عليه وان كان هو في الغالب لا يريد ذلك .. كما أن فيها أيضا مرحا صاخبا مجلجلا معربدا ، وهذا الغضب وذاك المرح يفوقان أي شيء من جنسهما في مؤلفات غيره من الموسيقيين جميعا . يكتب بعض السذج اليوم ان عملية نقل النبرة الموسيقية هي وسيلة جديدة لمنح النص الموسيقي أقوى دفعة ممكنة ، غير أن أشد أنغام الجاز عربدة وصخبا ، تبدو كأنها « صلاة العذراء » اذا ماعزفت بعد افتتاحية ليونورا الثالثة لبيتهوفن . ولم تستمع أذني قط وبكل تأكيد ، لعازف زنجي أمكنه أن يلهم أحلك الراقصين الزنوج لونا ليرقص كما لو كان الشيطان مجسدا diable au corps كما تفعل الحركة الاخيرة من السيمفونية السابعة ولم يحدث قط أن موسيقيا غير بيتهوفن أذاب مستمعيه في لجة من الشجن العاطفي الكامل بما في موسيقاه من جمال وحنان وسحر ، ثم قلب لهم ظهر المجن فجأة وسخر منهم بنفخات مستهجنة من النفير ، تحتقرهم وتزري بهم لانهم بدوا حمقى وسفهاء على هذا النحو المهين . لا أحد سوى بيتهوفن يمكنه أن يحكم بيتهوفن أو يتحكم فيه . وعندما يرفض أن يتحكم في نفسه ـ كما يحدث كلما أدركته النوبة .. ينطلق جامحا لا يمكن كبحه أو التحكم فيه

وانه ذلك الجموح الصاخب ، وتلك الفوضى المتعمدة،

وهذه السخرية اللاذعة ، وذلك الاستهتار الجسور بقواعد السلوك التقليدية ، كل هذا وذاك هو ماوضع بيتهوفن فى معزل عن عباقرة الموسيقيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قرنى التقاليد المتحجرة والرسميات المتزمتة· كان بيتهوفن موجة عملاقة فى تلك العاصفة الهوجاء التى هبت من أعماق الروح الانسانية وأنتجت الثورة الفرنسية. لم يناد شخصا واحدا - مهما كان هذا الشخص - بياسيدى . كان على غير شاكلة موزار - وهو أعظم من سبقه من الموسيقيين فى مجال تخصصه - الذى كان منذ طفولته يغسل شعره ويمشطه ويلبس لباسا فاخرا ويلتزم بقواعد السلوك الحسن فى حضرة الشخصيات البارزة من ملوك ونبلاء . وغضبة موزار الصبيانية على مدام بومبادور عندما قال لها : « من تكون تلك المرأة التى لا تقبلنى ؟ ان الملكة نفسها تقبلنى » ، شىء لايمكن لاحد أن يصدق أنه يصدر عن بتهوفن الذى كان فى ذلك الوقت جروا لم يلعق بعد ، بل حتى بعد أن شب وكبر وأصبح دبا كبيرا أشيب · كان فى موزار ارهاف التقاليد والمجتمع الارستقراطى كما كان فيه ارهاف الطبيعة وحدة الروح · كان ارهاف موزار وجلوك (١) أرهاف بلاط لويس الرابع عشر ، وكان ارهاف هايدن(٢) ارهاف سادة الريف الاقطاعيين فى زمانه · أما بيتهوفن فكان بوهيميا صخابا كرجل من أبناء الشعب . كان هايدن أرهف حسا وأسمى نفسا من أن يغار ويحقد عندما أعلن أن تلميذه موزار هو أعظم موسيقى عاش على ظهر الارض

---

(١) C.W. Gluke المؤلف الموسيقى التشيكى المعاصر لموزار ١٧١٤ - ١٧٨٧

(٢) F.J. Hayden ١٧٣٢ - ١٨٩٠ المؤلف الموسيقى الالمانى استاذ موزار

فى أى يوم من الايام ـ هايدن هذا لم يستطع مع بيتهوفن صبرا ، وقال موزار ـ وهو أبعد نظرا ـ عندما أصغى لعزف بيتهوفن : « سوف تسمعون عنه يوما ما » . وكان بيتهوفن يكن لموزار مهابة كبيرة بل فزعا معنويا شديدا : فقد كان فى استطاعة موزار أن يحيط أحد الاوغاد الارستقراطيين فى أوبرا دون جيوفانى ، بهالة من السحر والنشوة ، ثم يعمد بموهبته الدرامية المطبوعة على التقلب والتحول فى موقفه الاخلاقى وبلا تحرز ، فينسج هالة من القداسة والطهارة حول ستراسترو واضعا كلماته فى خدمة موسيقاه الفذة التى لم يؤلف موسيقى مثلها من قبل ولا من بعد ، موسيقى لايبدو أى صوت من أصواتها فى غير موضعه كما لو كان قد خرج من فم الله

لا . لم يكن بيتهوفن دراميا مطبوعا ، كان التقلب الاخلاقى فى نظره استهتارا يدعو الى الاشمئزاز ، ومع أن موزار كان لايزال فى نظره أستاذ الاساتذة (وليس هذا مديحا أجوف أو مبالغا فيه ، بل يعنى بكل كلمة أن موزار سيد المؤلفين الموسيقيين فعلا ، أكثر بكثير مما يعنى أنه مجرد مؤلف ذائع الصيت) فقد كان فى نظره أيضا خادما ذليلا فى حاشية البلاط يرتدى سراويل الخدم القصيرة بينما كان بيتهوفن رجلا من صميم الشعب Sans Culotte (١) وكان هايدن أيضا خادما من خدام البلاط يرتدى بزة البلاط التقليدية : حقا لقد وقفت الثورة بينهم حائلا كما وقفت بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . غير أن موزار كان فى نظر بيتهوفن أسوأ مكانا من هايدن لانه كان

---

(١) كلمة فرنسية كانت تعنى الشخص الذى لا يرتدى سراويل زى رجال البلاط ، أى الرجل من عامة الشعب . وكان رجال البلاط فى أوائل الثورة الفرنسية يطلقونها على رجال الحزب الديمقراطى (الشعبى) فى باريس سخرية منهم

فى موسيقاه يستهين بالاخلاق . فكان يعبر عن الرذيلة بنفس الاسلوب الساحر الذى يعبر به عن الفضيلة ، ومن ثم هب ثائرا فى وجهه بما فى قلبه من نزعة بيورتانية كامنة فى قلب كل رجل من صميم الشعب Sansculotte ضاربا صفحا عما لموزار من فضل عليه عندما أفضى اليه بكل امكانيات وأسرار موسيقى القرن التاسع عشر . وهكذا تراجع بيتهوفن فى بحثه عن البطل ، عائدا أدراجه الى هاندل (١) الذى كان هو الاخر عجوزا أعزب صلب الرأى من نفس طينته وعجينته ، وكان يحتقر جلوك معبود موزار وبطله مع أن كانتاتا « الباستورال » هى « واوراتوريو المسيح » أقرب فى الموسيقى للمناظر التى افتتح بها جلوك أوبراه « أورفيوس »

شكرا للاذاعة ، فبفضلها يستمع لاول مرة ملايين من ذوى الميول الموسيقية الى موسيقى بيتهوفن فى هذا الاحتفال السنوى بذكرى وفاته ، وقد سمت تطلعاتهم الى أعلى عليين بفضل مئات المقالات الصحفية التى أهالت على بيتهوفن جميع التقاريظ والمدائح والمراثى التقليدية التى تلقى بغير تمييز على جميع المؤلفين الموسيقيين العظام . غير أنهم سيعودون بالحيرة وخيبة الامل كما عاد معاصروه عندما استمعوا منه الى موسيقى لم يكونوا يتوقعونها ، بل كانت فى أغلبها ضوضاء أوركسترالية لم يروا فيها مايمكن أن يسمى موسيقى على الاطلاق — فى وقت كانوا يستطيعون فيه تقدير جلوك وهايدن وموزار أحسن تقدير — وتفسير ذلك بسيط كل البساطة . هو أن موسيقى القرن الثامن عشر كانت موسيقى رقص . والرقص نمط من الخطوات المتناسقة يلذ للراقص أن يحرك

(١) G. F. Handle ١٦٨٥ — ١٧٥٩ المؤلف الموسيقى الالمانى

جسمه وفقها ، وموسيقى الرقص نمط من الاصـــــوات المتناسقة يلذ للمستمع أن ينصت اليه حتى وان لم يرقص على ايقاعها . ومن ثم فالانماط الصوتية وان كانت تبدأ بسيطة كرقعة الشطرنج الا أنها بفضل الهارموني ، تطـول وتتعقد وتزداد ثراء وخصوبة حتى تصبح أشبهبالسجاجيد العجمي الفاخرة . والمؤلفون الموسيقيون الذين يصـممون هذه الانماط لايتوقعون من الناس أن يرقصوا على ايقاعها، فليس في مقدور بشر أن يرقص على سيمفونية لموزار الا اذا كان درويشا من الدراويش يظل يدور ويدور حـول نفسه بغير توقف : والواقع انى أرهقت اثنين من الشبان المدربين على الرقص — من أمرهم عسرا — عندماحملتهم على أن يرقصوا على احدى افتتاحيات موزار . بل ان نفس أسماء الرقصات القديمة سقطت من الحساب ولم يعد لهـــــا ذكر ، فبدلا من المتتابعات الموسيقية التى كانت تتألف من الساراباند « والبافان والجافوني والجيج (١) ، صممت السوناتات والسيمفونيات التى تتألف من أجزاء تسمى حركات ، وهذه الحركات موزعة على حسب سرعتها الى آليجرو وآداجيو وسكيرزو وبرستو (بالايطالية) . غير أن الموسيقى ظلت طوال عهدها ابتداء من مقدمات باخ(٢) الموسيقية الى سيمفونية « جوبيتر » لموزار ، تقدم لنـــا نمطا صوتيا متناسقا وتمنحنا في كل وقت المتعة التى كان يشعر بها الراقص القديم في شكل المقطوعة ومضمونها

وعلى أية حال ، تستطيع الموسيقى أن تصنع ماهو أكثر من مجرد ابداع انماط صوتية جميلة : ان الموســيقى تستطيع ان تعبر عن الوجدان ، فأنت يمكنك ان تنظـر

---

(١) أسماء رقصات قديمة كانت شائعة فيما قبل القرن السادس عشر وبعضها ذكرها شكسبير

(٢) J.S. Bach ١٦٨٥ — ١٧٥٠ أبو الموسيقيين الكلاسيكيين

الى سجادة عجمية ، وأن تنصت الى مقدمة موسيقية لباخ باعجاب مجرد لايتجاوز حدود الاعجاب ، ولكنك لايمكنك أن تنصت الى افتتاحية « دون جيوفانى » دون أن تجد نفسك وقد انتزعت انتزاعا من الحالة الوجدانية التى أنت عليها ، وطوح بك فى حالة وجدانية أخرى معقدة تهيئك لمجابهة قدر رهيب ومروع الى حد ما .. قدر يحجب وراءه ضربا من السرور العظيم الذى يحتوى مع ذلك ، على لفحة شيطان مريد . ولو اصغيت للحركة الاخيرة من سيمفونية « جوبيتر » لموزار ، لاستمعت فيها الى نفس الصخب والضجيج والعجيج الذى تسمعه فى الحركة الاخيرة لسيمفونية بيتهوفن السابعة : قصف من قرع الطبول المتتابع ــ تاو ــ تاو ــ راو ــ راو زاده حدة وصرامة وبأسا ، لون عجيب من الجمال الجامح الحزين .. جمال تلمحه كالخيط الدقيق الذى يتخلل نسيج النمط الموسيقى طولا وعرضا . ومع ذلك فالحركة عمل نموذجى للتصميم النمطى وتحفة موسيقية ترتفع شامخة فى جميع الازمان ..

والان ، ماذا فعل بيتهوفن ؟ ومالذى دعا عددا من فحول معاصريه الى أن ينفضوا أيديهم منه يأسا ، ويعتبرونه شخصا مخبولا تعتريه من آن لآخر نوبات صحو واعية يمتزج فيها التهريج بالذوق الردىء ؟ سبب ذلك أن بيتهوفن استخدم الموسيقى استخداما كاملا كأداة للتعبير عن الحالات النفسية والوجدانية وصرف النظر تماما عن التصميم النمطى كهدف فى حد ذاته . والحق يقال انه ظل طوال حياته يستخدم الانماط القديمة محافظا على التقاليد ومتمسكا بها (وهذه بالمناسبة صفة أخرى من صفات الرجل الشعبى الصميم Sans Culotte

لولا أنه حملها بشحنة جارفة من الطاقةالعاطفيةوالوجدانية التى ترتفع الى أسمى مراتب الحمــاسة الانسانية ــ الحماسة التى تصاحب الفكرة والتى تتضاءل الى جوارها نشوة الجسد وتتضاءل حتى تسقط الى مرتبة الحيوانية الخالصة ، لدرجة أنه يجعل من المستحيل على المستمع أن يعثر وسط عاصفة الانفعال الجارفة ، على أى نمط على الاطلاق . مثلا : تبدأ سيمفونية البطولة « ايرويكا »بنمط (مستعار من افتتاحية كتبها موزار فى صباه) يتبعه نمطان أجمل منه بكثير جدا ، ومع ذلك فهى مشحونة بطــاقة هائلة تفتك بالانماط فتكا وتمزقها بوحشية فى وســط الحركة ، وهكذا ينطلق بتهوفن باعتباره موسيقيا نمطيا .. فى جموح وجنون وهو يقذف المستمع بمجموعات كاملة من الالحان الرهيبة دفعة واحدة بحيث تسمع جميــع الحان المقطوعة فى وقت واحد لا لشيء الا لانه يريد ذلك ويحبه ، ويريد أن يحملك على أن تحس به وأن تريده وتحبه أنت أيضا ..

ها هو ذا بين يديك سر بتهوفن كله : كان فى مقدوره أن يصمم أنماطا كأفضل وأحسن ما تكون الانماط ، وكان فى مقدوره أن يكتب موسيقى يبقى جمالها معك ولك طوال حياتك ، وكان فى مقدوره أن يتناول موضوعات ناشــفة كالعصا ، بل كأنشف ماتكون العصا ، ثم يصوغها صياغة بهيجة ممتعة بحيث تجد فيها شيئا جديدا كلما اســتمعت اليها ولو استمعت اليها مائة مرة .. وبالاختصارفى مقدورك انت أن تقول فيه كل مايمكنك قوله فى أعظم مؤلفى الانماط الموسيقية قاطبة ، ولكن خاصيته المميزة ، العــلامة التى تجعل بتهوفن يختلف عن الاخرين كلهم ، هى قــدرته على احداث الاضطراب فى نفوسنا ، قدرته على فــرض مزاجه الجبار علينا

غضب برليوز (١) غضبا شديدا من موسيقى فرنسى عجوز أعرب عن الانزعاج والاضطراب الذى يبثه فيه بتهوفن بقوله أنا أحب الموسيقى التى تهدهدنى وتدغدغنى J'aime la musique qui me brace. حقا ان موسيقى بتهوفن لاتهدهد ولا تدغدغ بل هى الموسيقى التى توقظك من سباتك وتستفزك للوقوف على قدميك . أما الحالة النفسية الوحيدة التى تجعلك تصدف عنها ، فهى عندما تشعر بالرغبة فى أن تترك لحالك

اذا ما أدركت ذلك ، فستتمكن من أن تتخطى القرن الثامن عشر ومافيه من فرق موسيقى الرقص القديمة التى عفى عليها الزمن (وبهذه المناسبة أقول ان فرق الجاز هى نفسها فرق الرقص القديمة مصطبغة بالصبغة البتهوفينية) ، ولن تفهم موسيقى بتهوفن فقط ، بل كل ماهو أشد عمقا في الموسيقي التي جاءت بعد بتهوفن ايضا .

(١) L.H. Berlioz ١٨٠٣ - ١٨٦٩ المؤلف الموسيقي الفرنسي

شو وفاجنر - كنز الراين

دعنى أفترض هنيهة أنك فتاة شابة حسناء : ولتحاولى معى أن تتخيلى نفسك فى تلك الشخصية قاطنا فى كلونديك (١) منذ خمس سنوات مضت • المكان يغص بالذهب النضار . اذا قنعت بمشاهدة الذهب وتركته حيث هو كما يترك العقلاء أزهار الحديقة فلا يقطفونها ـ مكتفية منه ، ببساطة تامةوبروح نقية ، بمشاهدتهوالتمتع بلونه وبريقه وأصالته وقيمته الغالية ، فلن يضار أحد بحصولك على هذه المتعة . ومادمت فى هذه الحالة النفسية ، فان العصر « الذهبى » أو الفردوس الأرضى يبقى ويدوم

والان لنفرض أن رجلا أقبل ، رجلا ليس للعصر

(*) من كتاب الفاجنرى الكامل The Perfect Wagnerite طبعة كونستابل وشركاه لندن سنة ١٩٢٣ وتحتوى على أربع مقدمات للطبعات السابقة وكانت الطبعة الاولى سنة ١٨٩٨

(*) Rheingolde الحلقة الاولى من رباعية فاجنر أوبرا خاتم الاقزام أو Neblüng! Ring وتمثل فى أربع ليال متتالية أما الحلقات الثلاث الاخرى فهى : الفالكيرى ـ سيجفريد ـ الليل يرخى سدوله على الآلهة !

(١) Klundyke منطقة فى شمال كندا كانت محط رجال الباحثين عن الذهب فى أواخر القرن الماضى وقد نضب الان معينها من الذهب

« الذهبى » أى معنى عنده ولا يحس احساسك بالفردوس الارضى ، ولا يملك القوة التى تجعله يعيش فى العصر الحاضر ، وبالاختصار رجلا تستحوذ عليه الرغبات والشهوات والمطامع العادية كأكثر من تعرفينهم من الرجال • افترضى وأنت الشابة الحسناء ، أنك أفشيت لذلك الرجل سرا تعرفينه وحدك : انه لو قطف زهرة هذا الذهب الوهاج ثم صهره ثم حوله الى نقود وأموال فسوف يعمل ملايين من الرجال تحت سوط الجوع الخفى ، فوق ظهر الارض وتحت ظهر الارض ، بالليل وبالنهار ليكدسوا المزيد من الذهب له وحده حتى يصبح الرجل سيد العالم ! ولكنك سرعان ماتتبينين أن هذا المشروع لن يغريه كثيرا كما تتصورين لانه يتطلب أولا بعض المشقة البغيضة الى نفسه ، ثم لأن هناك شيئا آخر يرغب فيه ويشتهيه بأقوى مما يرغب فى الذهب ويشتهيه ،شيئا فى متناول يده لايتطلب مشقة ولا بغضا : ذلك الشيء هو انت نفسك . فما دام فؤاده مشغولا بحبك فالذهب لايعنيه ولا كل مايعنيه الذهب .ومن ثم فالعصر «الذهبى» يبقى ويدوم . غير ان عملية المفاضلة بين الحب والذهب ليست وقفا عليه وحده . فربما كان الرجل قميئا دميما بغيضا شحيحا ثقيل الظل لا تميل اليه نفسك ، ومشاعره وعواطفه التى يبديها نحوك ، ربما بدت لك سخيفة مضحكة تدعو الى الاحتقار . فى هذه الحالة قد تصدينه عنك صدودا وتذلينه أمر الذل وتخيبين أمله فيك خيبة كبرى . ماذا يتبقى له الا أن يلعن الحب الذى لايمكنه الحصول عليه ، وان يتحول الى الذهب بقلب متحجر وضمير لايعرف الندم ؟ ومن ثم يذهب هو بعصرك الذهبى ويتركك تندبين جماله المفقود وصفاءه ونقاوته .. وخلو البال الذى لن يعود ..

وفى تلك الاثناء يكون ذهب كلونديك قد وجد طريقه الى مدائن العالم وعواصمه الكبرى . ولكن المحنة القديمة ما فتئت تتجدد وتتكرر باستمرار بل انها تتوالد وتتكاثر: محنة الرجل الذى يعرض عن كل ماهو نافع وخلاق من الوان النشاط البشرى التى تدعم أركان الحياة حيث يمكن أن تنمو أشرف وأسمى طاقات الانسان ، يعرض عن ذلك ليكرس نفسه وكل جوارحه لجمع الذهب وتكديسه .. واقعا تحت تأثير حلم سحرى نشوان ، بأن يتسلط على ما فى الذهب من قوى بلوتونية سفلية (١) وأن يجد الذهب دائما طوع يمينه مستجيبا للمسته . ولكن الذين يقدمون على التضحية بالحب طواعية على هذا النحو .. هم قلة من الناس . فليس من السهل قمع الدوافع الانسانية السامية واعتبارها دوافع شاذة متحررة الا بعد أن تتدعم بسلطة المال البلوتونية ، وتصبح ثابتة الاركان بحيث ينكر على الانسان كل شىء حتى رغباته البسيطة البريئة ، فلا يستطيع اشباعها الا بعد أن يشتريها بالذهب ، هذا أو يكون نصيبه الذل والمهانة والحرمان ـ عندئذ فقط يضطر ذوو النفوس النشيطة والهمم العالية الى بناء حياتهم كلها على تل من الثروات والاموال ـ تل من الذهب . وعلى هذا النحو سارت بنا الامور ، كأنه القدر المحتوم . اما كيف حدث ذلك فواضح كل الوضوح للذين لديهم القدرة على فهم مايدور حولهم فى مجتمعاتنا البلوتوقراطية (٢) ، وفى كبريات عواصمنا ومدننا الحديثة ... لو تأملوا

(١) Plutonic نسبة الى « بلوتو » اله القوى السفلية (ما تحت الارض) الجهنمية فى اساطير الرومان القدماء . وهو واهب الثراء والبركات النابعة من جوف الارض

(٢) Plutocracy حكم الاغنياء

المشهد الاول

ذلك هو موضوع المشهد الاول من أوبرا كنز الراين . فبينما أنت جالس تنتظر رفع الستار تلتقط أذناك فجأة لحنا أرضيا مندفعا من الاعماق ، أعماق نهر جبار . واذا باللحن ينجلي ويتضح أكثر فأكثر ، وتجد نفسك كأنك تقترب رويدا رويدا من سطح الماء ، ويقع بصرك على الاضواء المنعكسة من صباب الماء الاخضر وفقاقيعه المتألقة وهي تتفلت هنا وهناك ثم يرتفع الستار وترى عيناك ماسمعته اذناك : أعماق نهر الراين وسمكات ثلاث غريبة النظرة ، مسحورة ، أشبه بحوريات الماء وهن يغنين ويمتعن أنفسهن متاعا جميلا . ولا يتغنين بأغاني الملاحين (١) ولا ينشدن أناشيد المداحين (٢) التي تدور حول لوريللي (٣) عذراء الراين ، بل كن يدندن بأي هراء يخطر على بالهن وينسجم مع وقع سباحتهن ، ورقص الماء من حولهن ، انه العصر « الذهبي » . أما البقعة التي ينجذب اليها حوريات الراين فكتلة هائلة من الذهب الوهاج هي كنز الراين الذي يحملن له كل تقدير — تقدير لا علاقة له على الاطلاق بقيمته التجارية — لجماله الباهر وسنائه الذي يخطف الابصار . وفي التو واللحظة ينكسف بريق الذهب لان الشمس لم تعد تضرب بأشعتها في أعماق الماء

وسرعان مايظهر شيطان قميء مسكين : قزم بائس يأتي متلصصا عبر الصخور الزلقة الرابضة في قاع النهر —

---

(١) Barcarolles (٢) Ballads

(٣) Lorelei علراء الراين التي تقول الاسطورة الجرمانية انها بعد يأسها من حبيبها الغادر قذفت بنفسها في النهر . وكان شبحها يظهر للملاحين على صخرة في وسط الراين وهي تمشط شعرها وتغني وتغري الملاحين لتهلكهم على الصخور . وكل من وقع بصره عليها يفقد عقله أو بصره ، وكل من استمع الى غنائها يظل هائما على وجهه الى الابد

مخلوق فيه من الطاقة مايجعله قويا فى البـــدن غنيا فى العاطفة ، ولكن فيه من ضيق الافق وقصور الذكاء ما يجعله وحشا أنانى الخيال : أى أنه أغبى من أن يدرك ان مصلحته الشخصية لا يمكن أن تقاس الا كجزء من مصلحة العالم ، ممتلىء حتى حافته بالقوة الوحشية الغاشمـــة بحيث لا تستطيع قبضته أن تمسك بشىء حتى ولو كان مكسبه الشخصى نفسه . مثل هؤلاء الاقزام معروفون فى لندن ومنتشرون فيها بكثرة . ها هو ذا يقبل وفى داخل نفسه يعتمل باعث قد يكون مثمرا : لقد جاء باحثـــا عن شىء يفتقده فى نفسه ، باحثا عن الجمال وخفة الروح والخيال والموسيقى . ولما كانت حوريات الراين يمثلن فى عينيه كل هذه المعانى فقد ملأته رؤيتهن بالامل واللهفة والحنين ،ولم يراجع نفســه لحظة واحدة ، فى انه لايملك مايقدمه لهن ؛ لا يملك شيئا أى شىء يرغبن فيه . لم يفكر فى هذا الامر لان ضيق افقه الطبيعى جعله عاجزا عن أن ينظر الى أى شىء من الزاوية التى ينظر بها اليـــه أى شخص اخر . وهكذا ــ وبكل بساطة ــ يعرض نفسه عليهن كعشيق . ولما كن خاليات البال من أمثال هذه الامور ، لانتمائهن الى عناصر الكون الاولية ، كن مجرد كائنات شبه حقيقية . وهن فى ذلك يشبهن كثيرا الفتيات الصغيرات العصريات.. ويرفضن رغبته فى الحياة ومطلبه فى الحب لان القـــزم المسكين صدم احساسهن بالجمال الجسمـانى وخالف مفهومهن الرومانسى للبطولة لانه كان دميما ثقيل الظـل جشعا ومثيرا للضحك والسخرية ، وهـــكذا يهزأن به بقسوة ، بل بفظاعة . يتظاهرن بالوقوع فى غرامه من أول نظرة ثم يتفلتن عنه مبتعدات ، عابثـــات به شر العبث ، والقين على المسكين اكواما من النكات والمهانات حتى خرج عن طوره من الغضب والكمد ، ثم ينسين كل شىء عنــه

عندما يبدأ الماء من جديد يتألق فى أشعة الشمس ويعكس الذهب سناءه وروعته . فيتركنه وحيـدا ليستغرقن فى صلاة نشوى لكنزهن الثمين ! ومع أنهن يعرفن جيداً مغزى حكاية كلونددايك فلم يشعرن بأى خـوف من أن يغتصب القزم الذهب منهن ، لان الكنز لن يذعن لاحد حنث بقسم الحب ، ولم يأت القزم اليهن الا ساعيا مخلصا وراء الحب. غير أنهن نسين أنهن قد سممن مسعاه بسخريتهن وقتلن رغبته بانكارها عليه ، وانه الان وقد أصبح موغر الصدر أيقن من أن الحياة لن تمنحه شيئـــا لايستطيع انتزاعه منها بالقوة ، بالقوة البلوتونية ، قوة المال السفليـة . ان الموقف هنا هو بالضبط كموقف رجل فقـــير خشن من العوام الاجلاف ، تقدم الى أحد النوادى الارستقراطيـة فعرض نفسه عليهم يريد أن يحتل مكانا بينهم ، فاحتقره القوم هناك ، وأذلوه وأهانوه وعرفوه انه لايمكن أن يطمع فى يوم من الايام ان يرغم هذا المجتمع الارستقراطى على الركوع عند قدميه الا اذا كان مليونيرا واشترى لنفســه من قلب هذا المجتمع زوجة حسناء كاملة الرفاهيةوالتربية والتهذيب . لا خيرة له فى الامر : فهو يقسم بقسم الحب كما يقسم به الالاف منا كل يوم . وما أن يصبح الكنز فى قبضة يده ، حتى يختفى فى الاعماق تاركا ساحرات الماء يصرخن ويولولن بلا جدوى : « أوقفوه ! امسكوا اللص ! » بينما يبدو النهر كما لو كان قد غرق فى الظلام وأخـــذ يغيب عن أنظارنا ــ ونصـــعد نحن رويدا رويدا من الاعماق الى فوق ــ الى مملكة السحاب

والان ترى أية قوة فى الدنيا يمكنها أن تقف فى وجــه « البريك » ــ قزمنا ــ بعد أن تقمص شخصيته الجديدة.. شخصية البلوتوقراطي الحقود ؟ وسرعان ماينهمك فى استغلال قوة الذهب فيحكم على قطعان غفيرة من زملائه

الاقزام بأن يكدحوا ويشقوا كالعبيد فوق ظهـــر الارض وتحت ظهر الارض يلهب ظهورهم ســـوط الجوع الخفى ويدفعهم دفعا الى العمل . وهم لا يرون سيدهم أبدا أكثر مما يرى ضحايا « الاعمال الخطرة » فى مجتمعنا ، حملة الاسهم الذين يبدو أثر سلطانهم مع ذلك ملموسا وظاهرا للعين فى كل مكان يسوق ضحاياه الى الهلاك سوقا . ان الثراء الذى ينتجونه بعملهم يصبح قوة اضافية تزيد من فقرهم واملاقهم . وبقدر مايسرعون فى جمع المال يتسرب المال من أيديهم الى أيدى ســـيـــدهم ليزيدوا من عتـــوه وجبروته . ويمكنك أن ترى بنفسك هذا وهو يحدث فى كل بلد متمدن حيث يكدح ملايين الرجال والنساء فى مرض ومسغبة ليكدسوا المزيد والمـــزيد من الثراء لاقزامنا من عينة « ألبريك » ، ولا يبقون لانفسهم الا المرض الفظيـــع والعذاب الاليم والموت المبكر . وهذا الجزء من قصـــة الاوبرا ليس رمزيا ، بل حقيقى بصورة مروعة وواقعى بصورة مروعة وعصرى بصـــورة مروعة ، والاثار التى يتركها على حياتنا الاجتماعية اثار فظيعة مدمرة لدرجـــة اننا لم نعد نعرف طعم السعادة الا قليلا ، والقليـــل الذى نعرفه منها لايكفى لان نأبه له ، أو نخشى ضيـــاعه . انه الشاعر وحده بماله من بصيرة نافذة الى صميم الحياة ، وما يجب أن تكون عليه الحياة ، الشاعر وحده هو الذى يضيق ذرعا بمثل هـــذه الاوضاع . ولو كنـــا جنسا من الشعراء لكنا جديرين بوضع حد لها قبل نهاية هذا القرن الشقى (١) . ولكن بما أننا جنس من الاقزام ، الاقزام فى أخلاقنا وطباعنا وتفكيرنا ، فنحن نعتبرها أوضـــاعا لائقة جديرة بالاحترام وتدعو الى الارتياح ونسمح لهـــــا بأن تضاعف شرورها فى جميع الاتجاهات . ولو لم تكن فى

---

(١) يكتب شو فى سنة ١٨٩٨

الدنيا قوة عليا ، تعمل ضد البريك ، لكان مصير الدنيا هو الدمار التام

ومثل هذه القوة موجودة فعلا . هنـاك على أية حال القوة الالهية ، وهناك ذلك الشيء الغامض الذى نسميه الحياة ، الحياة التي تنظم نفسها في جميع الاشكال والكائنات الحية ٠٠ الطيور والوحوش والخنافس والاسماك ، ثم تسمو منها الى تلك المعجزة الانسانية التى تتمثل على هيئة اقزام ذوى مكر ودهاء أو فى هيئة عمالقة كادحين ذوى عضلات مفتولة وقدرة على مواصلة الكد والكدح راغبين أبدا فى شراء الحب والحياة لا باللعنات العدمية والاستنكارات الانتحارية ، بل بالعمل اليدوى الصبور لخدمة قوى عليا أرقى منهم . وهذه القوى العليا بدورها تتمثل فى هيئة أدعى الى مزيـد من العجب ، هيئة الأفذاذ النادرين قد يسمون بالمقارنة بمن تحتهم ، آلهة ، أى مخلوقات قادرة على التفكير ، مخلوقات تمتد أهدافهـا بعيـدا الى ما وراء اشباع الشـهوات الجسمانية والعواطف الشخصية ، لانهم يدركون ان العالم لا يمكن أن ينهض من وهدة العبودية الا باقامة نظـام اجتماعى على أساس من الروابط المشتركة التى تتفرع كلها من عقيدة أخلاقية واحدة ٠ ولكن كيف للقوة الالهية ان تقيم هذا النظام فى عالم من العمالقة الاغبياء فارغى العقول الذين لا يسعون الا لتحقيق أغراضهم الشخصية المحدودة ولا يمكنهم بحال أن يفهموا الاهداف الآلهية ؟ وهكذا وجدت القوة الآلهية نفسها وجها لوجه أمام الغباء ، فكان عليها أن ترضى بحل وسط . ولمـا كانت غير قادرة على أن تفرض على العالم قانون الفكر الخالص ، اضطرت الى تطبيـق قانون آلى يتألف من بنود ووصايا وعقوبات وحشية صارمة تقضى على العصاة وتبيدهم ٠ وبالرغم من كل العنـاية

والحرص والدقة التى صيغت بها هذه القوانين وطبقت ؛ بحيث كانت تمثل فى لحظة اصدارها اسمى فكر وارقاه لدى الذين صاغوها وشرعوها ، الا أن هذا الفكر لا يكاد ينقضى عليه يوم واحد حتى يكون قد نما وتطور واتسع بنمو الحياة وتطورها واتساعها بغير توقف . واذا بقانون الامس يتقاصر عن فكر اليوم شكلا ومضمونا . ومع ذلك ما القول اذا ما جاء مشرعو ذلك القانون وواضعوه من أصحاب المقام السامى فانتهكوه وخرقوه قبل أن يبلغ من العمر أسبوعا، ويضربون بأنفسهم المثل فى الخروج على القانون ؟ انهم بذلك يقضون القضاء المبرم على كل ماله من هيبة على رعاياهم ، انهم بذلك يحطمون السلاح الذى صاغوه وصقلوه ليرسوا به قواعد الحكم بما فيه مصلحتهم . وعلى هذا فقد فرض المشرعون منذ البداية على أنفسهم أن يحافظوا من كل بد على قدسية القانون وان يتمسكوا بحرفية القانون وحصانة القانون حتى ولو لم يعد القانون يمثل فكرهم أو ينسجم معه ، وهكذا سارت بهم الامور حتى وجدوا أنفسهم فى نهاية المطاف منخرطين فى تلافيف شبكة معقدة لا نهاية لها من اللوائح والبنود والتشريعات — لم يعودوا يؤمنون بها البتة ، وان كانوا مع ذلك يضفون عليها من القداسة والحصانة — بحكم العادة والتقاليد ما يجعلها مرهوبة الجانب ويفرضون على من ينتهكها من العقوبات ما يجعل من المتعذر عليهم هم أنفسهم الفكاك منها . على هذا النحو التجأت القوة الآلهية الى القانون ، وأدى بها ذلك الى أن كلفها القانون نصف حريتها ونصف استقلالها ونصف شرفها — وسيضطر كبير الالهة لكى يكتسب لنفسه سلطة زمنية ، الى أن يقتلع بيده احدى عينيه رمزا لذلك كما سوف نرى — ثم أخذت فى نهاية الامر تتطلع تطلعا خفيا وتحن حنينا مستترا الى لحظة قدوم قوة أسمى

منها وارقى : قوة تنهض بعبء تدمير امبراطوريتهاالقانونية الزائفة واقامة جمهورية حقيقيـــة مكانها ، جمهـــورية الفكر الحر ..

وليست هذه بحال ، هي العقبة الوحيدة التى تعترض عالم القانون ، فهناك القوة الغاشمة وضرورة شرائهالتنفيذ القانون ، ثم هناك ضرورة ارغام أكثرية الرعايا على احترام السلطة التى تستخدم هذه القوة الغاشمة . ولكن كيف السبيل الى غرس مثـــل هذا الاحترام فى الرعايا اذا كان الرعايا عاجزين عن فهم افكار مشرع القانون ؟ واضح أن هذا لا يتيسر الا بجعل السلطة التشريعية مرتبطة فىأذهان الرعاية بمظاهر العظمة والهيبة والفخفخة بحيث يكون لها أكبر وقع فى مشاعرهم ، وتقذف بالرهبة فى أفئدتهم .

وبالاختصار ينبغى على الاله الذى أصبح مشرعا للقوانين ، أن يصبح فى نفس الوقت عاهلا كبيرا أو ملكا ذا صولجان. فاذا تعذر على عامة الناس أن يعرفوه كشخصية أرقىمنهم منزلة فى مجال الفكر والحكمة ، فليعرفوه اذن كشخصية أرقى منهم فى مجال الثراء والبذخ ، وليسـكن القـــلاع المنيفة وليلبس الذهب والقطيفة والمخمل الارجـــوانى . وليولم الولائم الحافلة وليقود الجيوش الجرارة ولتوضع فى يده سلطات الحياة والموت ، بل ليقض على الارواح اما بالخلاص واما باللعنة الابدية بعد الموت . لابـــد من شيء يعمل فى هذا الصدد ، بدون فساد أو افساد أى بشرط أن يبقى العصر الذهبى ويدوم . وفى هذا قد لا تجـــد آلهتك لهم حيلة مع الاقزام فليلجأوا اذن الى العمالقـة الامناء الذين يقدمون لك عمل يوم مقابلاجريوموليحملوهم على تشييد قلعة شامخة تكون مقرا للقوة الآلهية ، قلعـة كاملة من كل شيء : فيها قاعة كبرى ، كنيسة ، برج ، ناقوس ، دوار للاهالى الذين سينمو عددهم ويتكاثرون من

حول القلعة ذات الكنيسة فى سلام وامان ، وبقاء هذا كله ودوامه على أية حال مرهون ببقاء العصر الذهبى ودوامه. وما ان تفلت القوة البلوتونية -قوة المال السفلية- من عنانها حتى يخطو «البريك» -القزم الحاقد المحروم من الحب الى الميدان بملايينه الفاسدة المفسدة . وعندئذ ، تواجـــه الاله خطر الفناء . فما دام « البريك » - ومعه سوط الجوع الخفى- قادرا على ارغام الاقزام على العمل وقادرا على شراء خدمات العمالقة ، فهو قادر على أن يطفىء أنوار العصر الذهبى كلها ويكسف مظاهرها الزمنية ، وعلى أن يجعل من نفســـه سيدا للدنيا مالم تتمكن الآلهة - بعقولها المتفوقة - من الاستيلاء على ذهبه . وهذه هى محنة الكنيسة فى يومنا هـــذا ، وهى بعينها المحنة التى تسبب فيها « آلبريك » واستغلها لصالحه فى أعماق نهر الراين

المشهد الثـــانى :

من قاع النهر ، ترتفع بنا الموسيقى فى سحب وغيـــوم بعضها فوق بعض ، وفى نهاية المرتقى نأتى الى خلاء عريض رائق الجو - مرعى مترامى الاطراف حيث يرقد «ووتان» اله الالهة وزوجته « فريكا » ، نائمين . وسوف تلاحظ على الفور أن «ووتان» فقد احدى عينيه ، وستعرف حالا انه اقتلعها بنفسه طواعيه كثمن كان لابد من دفعه لزواجه « بفريكا » التى قدمت له بدورها دوطة من ســـــــلطات القانون كلها . ويقع المرعى على حافة احـــد الجـــــداول السريعة الانحدار ، والى ما وراء الجدول ، يتعالى شامخا على المرتفعات البعيدة ، مقر الاله الكبير ، وهو قلعة منيفة هائلة شيدت مؤخرا لتستخدم كمقر لعرش الآله الاعور وزوجته الحاكمة بأمرها فريكا . ولم يكن «ووتان» قـــد

شاهد بعد هذه القلعة الا فى أحلامه : فقد فرغ من بنائها له للتو والساعة ، عملاقان من العمالقة وهو مستغرق فى نومه . واذا بحقيقة القلعة تتبدى امامه لاول مرة عندما توقظه فريكا من سباته . وفى تلك المدينة الملوكيـــة ومن خلالها ، عليه أن يحكم مع زوجته هؤلاء العمالقة الاذلاء الخانعين الذين يملكون عيونا فاغرة مبهورة تحملق فى القلاع العظيمة التى شيدتها أيديهم بتدبير الآله ومن وحيه، ولكنهم لا يملكون العقول التى تدبر وتخطط لهم قلاعا يسكنونها هم ، او تكشف لهم سر الالوهية المكنون . اما بصفته الها ــ فقد قدر له أن يكون عظيما وجبارا وآمنا ، ولكن قدر عليه أيضا أن يكون خاليا من العواطف مبرءا من الانفعالات محايدا لا ينحاز قط أو يميل ؛ لان القوة الآلهية اذا كان لها أن تتعايش مع القانون فيجب أن تخلو من أى ضعف أو ميل مع الهوى أو اعتبار للاشخاص . فتلك صـــغائر وتوافه كالحلوى الرخيصة ينبغى أن تترك للعمالقة الاذلاء الاغبياء لتجعل كدهم وكدحهم حلو المذاق فى افواههم ، ثم كان على الالهة بعد ذلك أن يدفعوا لسلطان الاوليمب نفس الثمن الذى دفعه القزم للسلطة البلوتونية ، سلطة المـــال السفلى ..

وقد نسى « ووتان » ذلك فى غمرة احلام العظمـــة التى ساورته واستغرقته . ولكن فريكا لم تنس . فالشىء الذى يشغل بالها الآن ، هو الثمن الذى أتفق ووتان على دفعه، وانه قد تعهد فى ذلك اليوم بالذات ، بأن يسلم للعمالقـــة أخت فريكا الآلهة « فريا » ومعها تفاحات الحب الذهبية . وتنهال «فريكا» على «ووتان» تقريعا ولوما لانه بكل أنانية نسى كل شىء عن تعهده ، وفى اثناء ذلك تتبين أنه مثلها هو الاخر راغب عن اتمام الصفقة والوفاء بعهده متكلا وهـــو مطمئن على قوة عالمية أخرى تعهدت بمساعدته فى خداع

العمالقة وحرمانهم من مكافآتهم ـ تلك هى قوة الاكذوبة (ومن قبل قال فرديناند لاسال ان للاكذوبة فى أوربا دولة وسلطانا) (١) وهذه القوة لا تكمن فى ووتان نفسه بل فى اله آخر غيره ، اله كان قد انتصر عليه من قبل اسمه «لوكى» اله الذكاء والجدل والوهم والحيلة • وقد وعده لوكى بأن يحرره من العقد الذى التزم به وأن يحتال له على العمالقة ويخدعهم ، ولكن لوكى لم يصل بعد لانجاز ما وعد • حقا ! لم لا تخذل الاكذوبة « ووتان » ـ كما ألمحت اليه « فريكا » بمرارة ـ فالخذلان هو جوهر الاكذوبة وروحها

وسرعان ما أقبل العملاقان ، وتهرب « فريا » محتمية « بووتان » . وكانت مقاصد العملاقين شريفة تماما ، ولم يخامرهما شك فى اخلاص الاله وشرفه • فها هما قد أوفيا بنصيبهما من العقد حجرا من فوق حجر ، وشيدا القلعة بابا وبرجا ـ وتم انجاز ذلك باخلاص تام وفقا لتصميم ووتان وبفضل عملهم الجبار وكدحهم الشديد • لقد جاءا من غير شك ليقبضا اجرهما المتفق عليه : « فريا» وتفاحات الحب الذهبية • وهنا وقع ما بدا لهما كشىء لا يمكن ان يصدق أو أن يتصور

بدأ الاله الكبير يتمحك ! وليس فى العمر كله لحظة أشد فجيعة من اللحظة التى يكتشف فيها الرجل العادى الذليل ، الطاعم بعمل يده ـ بعد أن ترك كل المسائل العليا لمن هم أفضل منه وأعلى مقاما ، واثقا فيهم ثقة باطنية خالصة ، محترما اياهم كأشخاص جديرين بالاحترام حتى لقد قبل عن طيب خاطر وظيفته المتواضعة التى يراها لائقة

---

(١) فردیناند لاسال مؤسس الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى المانيا فى منتصف القرن الماضى . وعبارته التى يتمثل بها :

The lie is an European Power

بمقامه المتواضع فى الحياة ، وهى أن يعفيهم من وعثاء العمل اليدوى الكادح وما فيه من آلام وخشونة ومشقات ـ بعد ذلك كله يكتشف لاول مرة ان سادته «وتاج رأسه» غشاشون نصابون ، جشعون طماعون ، ظالمون غادرون . وترسل الصدمة الهائلة فى رأس أحد العملاقين شعاعاناقبا من الفكر يكشف حجب المستقبل ، فيمنحه ذلك فصاحة مؤقتة وينطلق لسانه . وفى تلك اللحظة يرتفع العملاق فوق مستوى عملاقيته الغبية ويلقى أمام الاله الكبير ابن النور ، بانذار خطير بأن كل ما يملكه الاله من سلطان ورفعة وربوبية وملوكية ، يواجه مصيرا حاسما : فاما ان يصمد له واما أن يتهاوى من القواعد . وأن محك ذلك هو ما تبقى لديه كمشرع شريف من عظمة وعدل وحيدة لاتميل . غير أن «ووتان» الذى كانت شخصيته كمشرع زائفة كل الزيف ، وتكذب طبيعة الالهية كل التكذيب ، يرفض هذا الانذار باحتقار . وفى الحال يتلاشى الشعاع الكاشف من رأس العملاق ويضيع فى غمامة المذلة الحقيقية

وفى وسط النزاع ، يقبل « لوكى » أخيرا معتذرا عن تأخيره بمسألة هامة احتجزته مسألة وعد بعرضها على «ووتان» . وعندما يلح عليه «ووتان» بأن يركز التفاته على المسألة الراهنة المستعجلة أى أن يخلصه من ورطته ـ لم يجد لديه ما يقوله الا أن الحق واضح تماما وانه مع العمالقة لامراء . لقد شيدوا القلعة حسب الاتفاق، وبنفسى اختبرت كل حجر فيها ، ووجدت الذى تم عملا من الدرجة الاولى اتقانا وكمالا . ليس ثمة شىء يمكن عمله الا أن يدفع لهم «ووتان» الثمن المتفق عليه ، بتسليم «فريا» للعملاقين . وثارت ثائرة الآله وأعلن أنه لم يوافق على الصفقة الا بعد أن وعده « لوكى » بالعثور على مخرج له منها . ولكن « لوكى » يقول له : لا لقد وعدت بالعثور

على مخرج من هذه الورطة ـ لو كان لمثل هذا المخـــرج وجود ، ولكن لم أعد بايجاد مخرج حيث لا مخرج • لقد ظل يطوف فى جميع أنحاء الارض بحثا عن كنز عظيم يفتدى به «فريا» ويستردها من العمالقة ، ولكنه لم يجد فى الدنيا كلها شيئا يغرى الرجل بالتفريط فى امرأته التى يحبها • وهذا ـ بالمناسبة ـ يذكره بالمسألة التى وعد بعرضها على «ووتان» • لقد اشتكت له عذارى الراين من أن «آلبريك» سرق منهن الكنز ، وهو يذكر هذه الواقعة لانها هى الاستثناء العجيب للقانون الكونى العام الذى ينص على أن الحب لا يشترى بالمال ، ذلك أن سارق الكنز هذا كان قد أقسم حانثا بقسم الحب للحصول على الكنوز الاسطورية فى الامبراطـــورية البلوتونية ، وعن طريقها يسيطر على العالم

وما أن ختم «لوكى» قصته حتى انحنى العمالقـــة وانكمشوا وتصاغروا حتى أصبحوا أقصر قامة من القزم. ان آلبريك لم يحنث بقسم الحب الا عندما أنكر عليـــه الحب وحرم عليه ، فاستخدم الحب أداة يغتـــال بهـــا احترامه لنفسه بقسوة ووحشية • غير أن العمالقة وقد وجدوا الحب فى متناول ايديهم فعلا ، « فريا » وتفاحاتها الذهبية ، اذا بهم يعرضون التخلى عنها فى مقـــابل كنز «آلبريك» • لاحظ أن الكنز وحده هو ما يريدون • فليست لديهم أحلام عنيفة للسيطرة أو للتسلط على من فوقهم أو لصياغة العالم وفقا لاى فكرة من ابتداعهم • فهم ليسوا بأذكياء أو طموحين : انهم بكل بساطة يشتهون المال ـ ذهب آلبريك ـ هو مطلبهم • أما الذهب واما أن يحملوا معهم « فريا » حسب الاتفاق ، وقد حملوها الان فعـــلا كرهينة ، تاركين ووتان يفكر فى انذارهم النهائى

وبذهاب فريا ، تذبل الالهة وتهبط عليهم الشيخوخة : لقد تبينوا الآن أن «فريا» وتفاحاتها الذهبية التى اضاعوها

فى تلك الصفقة الخاسرة ، أصبحت بالنسبة لهم مسـألة بقاء أو فناء . فحتى الآلهة لا يمكنهم أن يعيشوا بالقانون والقوة الآلهية وحدها مهما شمخت قلاعهم ودامت روعتها الى الابد . لوكى وحده هو الذى يقف جانبا غير متـأثر بشيء : الاكذوبة بكل أعاجيبها الماكرة ، بومضاتها وتقلباتها وسرابها المتنقل ، هى مظهر خارجى مجرد ليس له جسد او مضمون ولا يحتاج الى طعام . ماذا على « ووتان » أن يصنع؟ ويبدو الجواب على هذا واضحا كل الوضوح أمام « لوكى » الذى يقول بصراحة تامة : يجب أن ننهب ذهب آلبريك ولا يقف دون ذلك بالطبع الا المانع الادبى وحـده .. « فآلبريك » على كل حال مخلوق مسكين أعشى البصر قميء ساذج يستطيع أى اله أن يتفوق عليه فى حـدة البصر وتستطيع أية اكذوبة ان تتفوق عليه فى المكر والدهاء . اذن : نزولا .. نزولا الى القاع ! « ووتان » « ولوكى » يهبطان الى المنجم ، فى جوف الارض ، حيث يكدس عبيـد « آلبريك » أكوام الثراء من أجله تحت نير ذلك السـوط الخفى .. سوط الجوع

المشهد الثالث

هذا المكان الكئيب المقبض ليس من الضرورى أن يكون منجما : قد يكون مصنعا من مصانع الكبريت بما فيه من فوسفور أصفر ، وعظام العمال التى نخرها الفسفور خاصة عظام الفك ، وبأرباحه الكبيرة لحملة الاسـهم ، وبالعدد الكبير من رجال الدين الحاملين لهذه الاسهم ، او قد يكون مصنعا للرصاص الابيض او احد المعامل الكيميائية أو مصنعا للفخار أو حوش ورشة للسكك الحديدية او دكان ترزى أو مغسلة منداة ببخار الماء المختلط ببخـار العرق والخمر أو مخبزا أو متجرا كبيرا أو أى محـل

آخر من المحلات التى يضحى فيها بحياة الانسان وراحته كل يوم لكى يتمكن مخلوق ما ، جشع وغبى من أن يركع عند قدمى معبوده البلوتونى ويرتل صلاة مزهوة منتشية قائلا :

أحمدك اللهم ! جعلتنى آكل بينما يتضـــور الآخرون جوعا

وجعلتنى أغنى بينما يبكى الآخرون ويعولون
مثل هذه النعم تفيض على من قبلك
كما لو كنت أنا ـ وحدى ـ محل عنايتك

وفى المنجم ـ فى جوف الارض ـ حيث تتردد أصـــداء المطارق والسندانات ممسكة بها أيدى الاقزام الكادحين كدح التعاسة والشقاء لتكدس أكوام الثراء لسيدهم ، عهـــد «آلبريك» الى شقيقه «مايم» أو المعروف أكثر من ذلك باسم « ميمى » بأن يصنع له خوذة يرتديها على رأسه . ويدرك ميمى ادراكا غامضا أن تلك الخوذة سوف تنطوى على قوة سحرية معينة . فيحاول الاحتفاظ بها ، ولـــكن « آلبريك » ينتزعها منه ويريه ـ بعـــد أن جعله يدفع الثمن غاليا ـ ان الخوذة هى القناع الذى تنكر به السوط الخفى ، وأن من يرتديها يستطيع أن يظهر فى أى هيئـــة يشاء أو أن يختفى تماما عن الانظار . وهذه الخوذة مع ذلك ـ أداة مألوفة تماما نراها فى شوارعنا العصرية حيث تتخذ بصفة عامة هيئة القبعة . فتحت القبعة العاليـــة يختفى الرجل او يتنكر ليصبح واحدا من حملة الاسهم ثم ليصبح فى مختلف الهيئات والاشكال : فالقبعة العالية تجعله يبدو في هيئة المسيحى الورع فاعل الخير المتبرع للمستشفيات أو زوج صالح أو أب نموذجى أو مواطـــن انجليزى فطن وعملى ومستقل التفكير أو فى غير ذلك من الهيئات بينما الرجل فى حقيقة أمره ، طفيلى يســـتحق

الرثاء ويعيش عالة على الصالح العام ويستهلك الكثير ولا ينتج أى شىء ، لا يشعر بشىء ولا يعرف أى شىء ولا يؤمن بشىء ولا يفعل الا كما يفعل سائر الناس أو لانه يخشى الا يفعل كما يفعل سائر الناس أو على الاقل يتظاهر بانه يفعل كما يفعل سائر الناس

وعندما يصل «ووتان» و «لوكى» يزعم «لوكى» أنه أحد معارف «آلبريك» القدماء . ولكن القزم لاثقة عنده فى هؤلاء الغرباء المتمدينين : فالجشع بغريزته لا يثق بالذكاء أو بالثقافة حتى ولو ارتدت الثقافة رداء الشعر وخطرت أمامه بصحبة القوة الآلهية مع أنه يحسد الشعر على روعته ويحسد القوة الآلهية على هيبتها وجلالها .وينفجر «آلبريك» فى وجهها بعاصفة رهيبة من التفاخر والتباهى بالقوة التى أصبحت الآن طوع يمينه وملء قبضته . ويجعل يخطط لهما الدنيا كما سوف تكون بعد أن تكتمل له السيطرة عليها أى بعد أن تتبدل أجواؤها الوادعة ووديانها ومراعيها الخضراء لتصبح دخانا أغبر وقذارة ونفايات لفظتها المصانع ، وليصبح المجتمع قائما على العبودية والمرض والدمامة والقذارة يخفف من وطأتها الادمان على الخمر والعربدة وتحكمها عصا رجل البوليس وبعد أن يحل الخراب بكل شىء ، ما عدا الاماكن الجميلة والفتيات الحسان التى يشتريها بماله وفق هواه واشباعا لشهواته الخاصة .. فى مملكة الشر هذه ، يرى «آلبريك» الا وجود لقوة غير قوته ولا قيام لسلطان غير سلطانه .أما هؤلاء الآلهة بأخلاقياتهم وشرائعهم وعقولهم وثقافتهم المرهفة ، فليذهبوا الى أسفل سافلين ولتنطو صفحتهم بالموت جوعا وحرمانا الى غير رجعة . وهو يحذر «ووتان» و «لوكى» أن يلقيا مثل هذا المصير ، وتحمل تحذيره صرخة تنطلق منه مهولة بشعة فيها من الخبث بقدر ما فيها من

الخُشونة . ويستولى على ووتان حنق شديد يهز أعمق أعماقه ، فهو لا يستطيع بعد ذلك ان يكتم اللعنات التى تنفجر كالحمم فى داخله . ولكن «لوكى» يبقى جانبا لا يتأثر بشيء : فليس لدى لوكى مشاعر اخلاقية ،فالحنق والثورة من أجل الكرامة والشعور بالمذلة كلها سخافات بالنسبة له كالحماسة والانفعال . بل انه ليرى فى الموقف متعة فذة لا نظير لها ! و «لوكى» لايخلو من لمسة المرح وخفة الروح . ذلك أن القزم عندما حرك فى ووتان حميته الاخلاقية ، قد أزال المانع الادبى الذى كان يزعمه من أن يصبح سارقا . الآن سوف يقدم «ووتان» على سرقة القزم بلا وازع ولا مانع ولا ندم ، ألم يثبت لديه أن من أسمى واجباته آن ينتزع هذه القوة من براثن هذه الايدى الشريرة وأن يستخدمها بنفسه لصالح القوة الآلهية ، وهكذا يسمح ووتان للوكى بعد أن استند الى اسمى الاسانيد الاخلاقية ، بأن يستخدم أسوأ ما فى جعبته من حيل والاعيب

وبشيء قليل من التملق المقنع بالدهاء والمكر ، ينتهى أمر « آلبريك » : يتظاهر « لوكى » بأنه بات يخشى جانبه ويرتعد خوفا من هيبته ،واذا بالقزم يبتلع الطعم بلا تردد. ويتساءل لوكى كيف «لآلبريك» أن يحترس من حقد ونقمة الملايين من عبيده ، الا يحاولون ـ وهو نائم ـ سرقة الخاتم المسحور رمز قوته الذى صاغه من ذهب الراين ؟ فيجيب « آلبريك » مستهزئا : تحسب نفسك ذكيا جدا؟ ثم يتفاخر من جديد بما لخوذته المسحورة من خوارق وأعاجيب . ويرفض لوكى ان يؤمن الا اذا رأى رأى العين. ولا يجد «آلبريك» مايدخل السرور على قلبه من ان يجعله يشاهد قواه الخارقة فيرتدى خوذته ويجعل نفسه فى هيئة أفعى هائلة بشعة المنظر . ويشبع « لوكى » غروره

حتى الحافة عندما يتظاهر بأنه فقد صوابه من الروع ، ولكنه يتجاسر فيلفت نظره الى أنه قد يكون من الافضل مع ذلك لو استطاعت الخوذة تحويل صاحبها الى مخلوق صغير دقيق بحيث يمكنه ان يختبىء وينسل في اصغر شق. وبكل سرور وبسرعة تامة يحول «آلبريك» نفسه الى ضفدعة . وفى لمح البصر ، يضع « ووتان » قدمه عليه . ويمزق « لوكى » الخوذة تمزيقا : ويكبلون القزم بالاغلال ويجرونه جر السجين عبر طبقات الارض السحيقة ، من الاعماق الى السطح ، الى المرعى الفسيح القريب من القلعة ..

المشهد الرابع

وهناك فى القلعة ، يتعين على «آلبريك» أن يفتدى نفسه وحريته بدعوة عبيده وارقائه من الاعماق لكى يضعوا عند قدمى ووتان كل ماجمعوه وكدسوه من الذهب . وبعد ذلك يطالب بحريته ، ولكن ووتان يتمسك بالخاتم أيضا. وهنا يشعر القزم ــ كما شعر العملاق من قبل ــ أن الركائز التى يرتكز عليها العالم تميد وتتزلزل من قواعدها بعد أن يكتشف أن ما يتصف به من جشع ووضاعة وخسة، تتصف بها أيضا القوة العليا ، الاسمى منه مقاما . قد يكون ــ فى نظره ــ من العدل الطبيعى ان تعمل روح الشر اليائسة المحرومة من الحب على ابتكار مزيد من قوى الشر الخبيثة التى لا يستطيع ابتكارها احد حتى القوة الالهية نفسها ــ اما أن تلجأ تلك القوة الآلهية الى نفس الاساليب فتسرق قوى الشر الخبيثة من روح الشر ثم تستخدمها بنفسها وتسلطها عليه ، فذلك انحراف شنيع تميد منه أركان العالم . ويتوسل الى ووتان أن يصفح عنه لاعتناقه الاثم وايمانه بالشر .. ويبدو توسله فى مظهر رهيب مروع .

ولكن بلا جدوى . ويستند «ووثان» مرة أخرى الى حميته الاخلاقية فيذكر «آلبريك» بأنه سرق الذهب من عذارى الراين ويقعد منه فى مقعد القاضى العادل ، فارضا عليه أن يعيد المسروقات الى أصحابها . ولما كان آلبريك يعلم تماما أن القاضى سيأخذ المسروقات ويضعها فى جيبه ، فقد نزع الخاتم من اصبعه .. ويعودعلى الفورمرة أخرىفقيرا معدما كما كان عندما قدم متعثرا بين الصخور الزلقة فى أعماق الراين ، ينهض مرة ليقع مرة أخرى

هذه حال الدنيا . ففى ماضى الايام كان الفارس من النبلاء المترفين يعتصر دم العامل المسيحى حتى يجف عوده ، وكان المرابى اليهودى يعتصر دم الفارس المترف حتى يجف عوده ، وكانت الكنيسة والدولةوالدين والقانون ينقضون على اليهودى ليعتصروا دمه حتى يجف عوده ، ويرون فى ذلك فريضة مسيحية واجبة الاداء . وعندما غرست قوات الجشع والحرمان من الحب حرابها فوق اطلال أنظمتنا الرأسمالية القذرة ، يرويها نظام خفى للملكية ـ الملكية التى تنهب الفقراء وتشوه وجه الارض وتفرض نفسها كلعنة كونية شاملة تصيب الجميع حتى الاسخياء والانسانيين منا ـ عندئذ يثبت الدين والقانون عجزهما عن اكتشاف فساد ذلك النظام لان طبيعتهما موجهة نحو الحياة والاقتصاد والمصلحة العامة وليست موجهة نحو الفساد والضياع والموت . فلم يحرصا على مصادرة قوى الشر بالشر ومقاومة الخديعة بالخديعة والعنف بالعنف مهما كان الزعم بأن ذلك فى سبيل الخير. وهكذا يقع المحظور : فبعد ان جعلت الكنيسة والقانون والعقل من سرقة الشعب قضية عامةبدعوىان سرقةالشعب هى فى سبيل الشعب ، وبررتها التبرر الانسانى ،اصيبت الكنيسة بصفة خاصة بصدمة زلزلت كيانها لان عدم

اخلاصها لنفسها أضر بها اكثر مما أضر بحليفيها المتواطئين معها تلقائيا ، فبعد أن تجلل الكنيسة بالعار وتتلاشى ثقة الناس بها ، ينقلب عليها القانون والعقل ، بل يوسعانها سلبا ونهبا ، وفى ذلك يلقون من لوكى كل معاونةوترحيب كما حدث فى فرنسا وايطاليا مثلا (١)

ويعود العملاقان بالرهينة ، وما ان تتبدى فريا للانظار حتى تدب الحياة فى القوة الآلهية وتخضر وتورق وتزهر من جديد • هاهو ذا الذهب جاهز للعملاقين • ولكن ما هذا الذى يحدث ؟ عندما حانت اللحظة التى يفارق فيها العملاقان فريا ، لم يعد الذهب يغريهما ويسيل لعابهما كما كان يغريهما ويسيل لعابهما من قبل ، واذا بهما يشعران بمرارة غصة وهما يخليان سبيلها • لا ، لن يخلياسبيلها الا اذا جمعوا لهما من الذهب كومة هائلة تحجبها وتحجب جمالها عن عيونهما تماما ــ لن يخليا سبيلها الا بعد أن تعلو كومة الذهب وتعلو حتى لا ترى عيونهما الذهب ولاشىء غير الذهب ــ أى حتى يقف المال بينهما وبين كل شعور انسانى • لم يكن هناك من الذهب ما يكفى لتحقيق هذا المطلب ، ويشرع لوكى مستخدما خبثه ودهاءه يجمع الذهب ويبسطه ، يعلو به ويهبط ، يكومه على هذا النحو او ذاك ، ولكنه مهما فعل بالذهب ، فلن تزال هناك ومضة من بريق شعر فريا الذهبى تعبر من فوق الذهب فتلمحها عين العملاق « فافنير » ، ولا يجدون مناصا من أن يلقوا بالخوذة المسحورة على رأس الكومة لاخفاء هذا البريق عن عين العملاق . ومع ذلك استطاعت عين « فاسوليت » ــ توأم العملاق « فافنير » ــ ان تلتقط شعاعا من عين فريا من خلال

---

(١) لعل شو يعنى انقلاب الايديولوجية اللبرالية والعقلانية (وهى ايدلوجية البورجوازية) على الكنيسة والدين فى القرن الثامن عشر . وكانت فرنسا وايطاليا مسرحا لها

شق فى الكومة فأصبح عاجزا عن التخلى عنها . ولم يكن هناك ما يسد الشق الا الخـــــاتم ، وكان ووتان تواقا الى الاحتفاظ بذلك الخاتم يحركه فى ذلك جشع يضارع جشع آلبريك . فقال لا ، ولم يتمكن الآلهة الآخرون من زحزحته عن موقفه واقناعه بأن فريا تساوى هذا كلـه وزيادة . فالحب عند كبير الآلهة ليس هو الخير الاسمى ، ولكن الخير الاسمى عنده هو السرور الشامل الذى يغرى جميع الكائنات بالعمل بحيوية متجردة ، فليس ثمـــة قوة فى الوجود يمكن أن يحنى ووتان راسه لها ويعبدها الا قوة واحدة : قوة الحياة نفسها ، الحياة بمعجزاتهـا التى تتحقق كل يوم ، الحياة بامكانياتها اللا نهائية . وهـــكذا لا يرضخ «ووتان» ولا تلين قناته الا بعد أن يتناهى اليه صوت الارض الخصبة . . الارض أم الحياة ، فيبلغه بأن فى صدرها المحتدم بالحياة تكمن بذرتهم جميعا : الآلهـــة والاقزام والعمالقة والقانون والاكذوبة أو ما الى ذلك من الاشياء والكائنات ، وتكمن أيضا بذرة شىء آخر لعله أن يكون أرفع وأسمى مقاما منه هو نفسه ، من كبير الآلهة : شىء سيحل محله ويقطع جميع الارتباطات والمحالفـــات وينهى جميع المعاهدات والصفقات ، التى كلفته حتى الآن احدى عينيه . وتنهض «أردا» أم الحياة الاولى من مرقدها فى قلب الارض تحذره وتنذره وتأمره بأن يتخلى عن الخاتم ويصدع بأمرها ، ويضم الخاتم الى كومة الذهب ، وتنقطع على الفور كل رابطة تربط العملاقين « بفريا » ويتلاشى منهما كل شعور حتى بوجودها

ولكن أى قانون بقى لهذين العملاقين المسكينين الغبيين الكادحين ، ليحكم بينهما بعد ان أصبح على كل منهما أن يتنازل للآخر عن نصف الكنز ، الكنز الذى دفع كل منهما فيه الثمن كاملا بتخليه عن « فريا » ؟ . . واذا بهمـــا يحكم

العادة المجردة ، يحتكمان الى الذهب ليقضى بينهما ، غير أن الذهب وقلبه مشرئب الى قوى اسمى منه ، يشيح بوجهه عن تلك القوى المنحطة الوضيعة . فيسوى العملاقان الامر فيما بينهما كما يسويه ذئبان مختصمان . يصرع «فافنير» أخاه بهراوته فيرديه قتيلا . وانه لشيء بشع يراه ويسمعه أى انسان يعرف كم من الدماء سفكت في الدنيا بهذه الطريقة نفسها وبأيدى كادحين فى الارض عوملوا بوحشية حتى صاروا هم وحوشا ، كادحين كانوا أمناء وشرفاء ومخلصين حتى خانهم من فوقهم وغدروا بهم واغتصبوا حقوقهم . وينطلق «فافنير» وحده بغنيمته ، غنيمته التى لا فائدة له فيها قط . فليس لديه من الدهاء ولا من الطموح ما يجعله يقيم لنفسه امبراطورية بلوتونية بها . كان يملكها لمجرد أن يحرم الآخرين منها . ذلك هو الغرض الوحيد الذى أوحى به اليه الكنز . وهكذا ذهب الى أحد الكهوف وجعل يكوم الذهب ويكوم فى كومة هائلة ، وحول نفسه بواسطة الخوذة المسحورة الى تنين وكرس حياته لحراسة الكنز ، أى لان يكون عبدا له بقدر ما يكون السجان عبدا لسجينه . ولقد كان خيرا له وابقى لو انه القى به ثانية فى الراين وحول نفسه الى حيوان من اقصر الحيوانات عمرا ، حيوان يستطيع على الاقل أن يستمتع بركضة يركضها فى ضوء الشمس طليقا خالى البال . ومع ذلك فطراز العملاق «فافنير» طراز عادى ومألوف عندنا تماما ، ولا يثير دهشة أو غرابة . فعالمنا متخم بأشخاص يضحون بكل عواطفهم وبأجمل مشاعرهم ، ويصرعون رفاقهم بجنون ووحشية من اجل المال ، فاذا ما حصلوا على المال عجزوا عن الاستفادة منه — أقل فائدة — وأصبحوا عبيدا له . وما أتعسهم من عبيد !

وسرعان ما تنسى الالهة «فافنير» وأمره ، فى غمرة سرورهم

«بفريا» واحتفالهم بها . ويقفز «دونار» اله الرعد فوق احدى القمم الصخرية ويدعو اليه السحب كما يدعـــو الراعى قطعانه . وتلبى السحب نداءاته واذا به وبالقلعة يختفيان وراء جحافلها السوداء . والى جـــواره يسرع الاله «فروة» اله قوس قزح . وبضربة من مطرقة «دونار» يتشقق الغمام الاسود فى جميع الاتجاهات بشرارات البرق الخاطفة وتتصدع السحب كسفا ، وبينما يصفو الجـو رويدا رويدا ، تتبدى القلعة للانظار بكامل جلالها وبهائها ، ويكون الوصول اليها الآن عن طريق قوس قزح الذى مده الاله « فروة » كالقنطرة عبر الجدول السريع الانحدار

وفى جلال هذه اللحظة السنية ،تخطر «لاوتان» فكرة عظيمة . فهو ، كبير الآلهة ويضمر فى صدره كل التطلعات لاقامة دولة للفكر الرفيع وللشرف وللنظام وللعدالة ،ومع ذلك تبين فى ذلك اليوم أنه لم يظهر على الارض بعد ،جنس من المخلوقات حقق مثله الاعلى هذا بطريقة فطرية تلقائية تماما . لقد تبين بنفسه مبلغ عجز القوة الالهية وفشلها الذريع فى أن تحقق ما تتصوره وما تتخيله بنفسها .. حقا .. ! ان الالوهية شىء جدير بالرثاء !

ولكن خصوبة الام الاولى لم تنفد بعد . فالحياة التى تتدفق منها تصعد وتصعد الى أعلى دائما ، الى تنظيمات أرقى والى مخلوقات ارقى والى كائنات أرقى من الضفدعة والافعى الى القزم ، ومن الدب والفيل الى العملاق ، ومن القزم والعملاق الى الاله مبدع الافكار الذى يملك مفهوما واضحا عن العالم ، صاحب المثل العليا . لمـاذا ينبغى على الام ، على الحياة ان تتوقف عند هذا الحد ؟ لماذا لا ترتقى من الاله الى البطل ؟ الى ذلك المخلوق الذى يتحول فيـه فكر الاله العقيم العتيد،الى ارادة فعالة والى حياة ايجابية منطلقة ؟ المخلوق الذى سيشق طريقه مباشرة الى كبـد

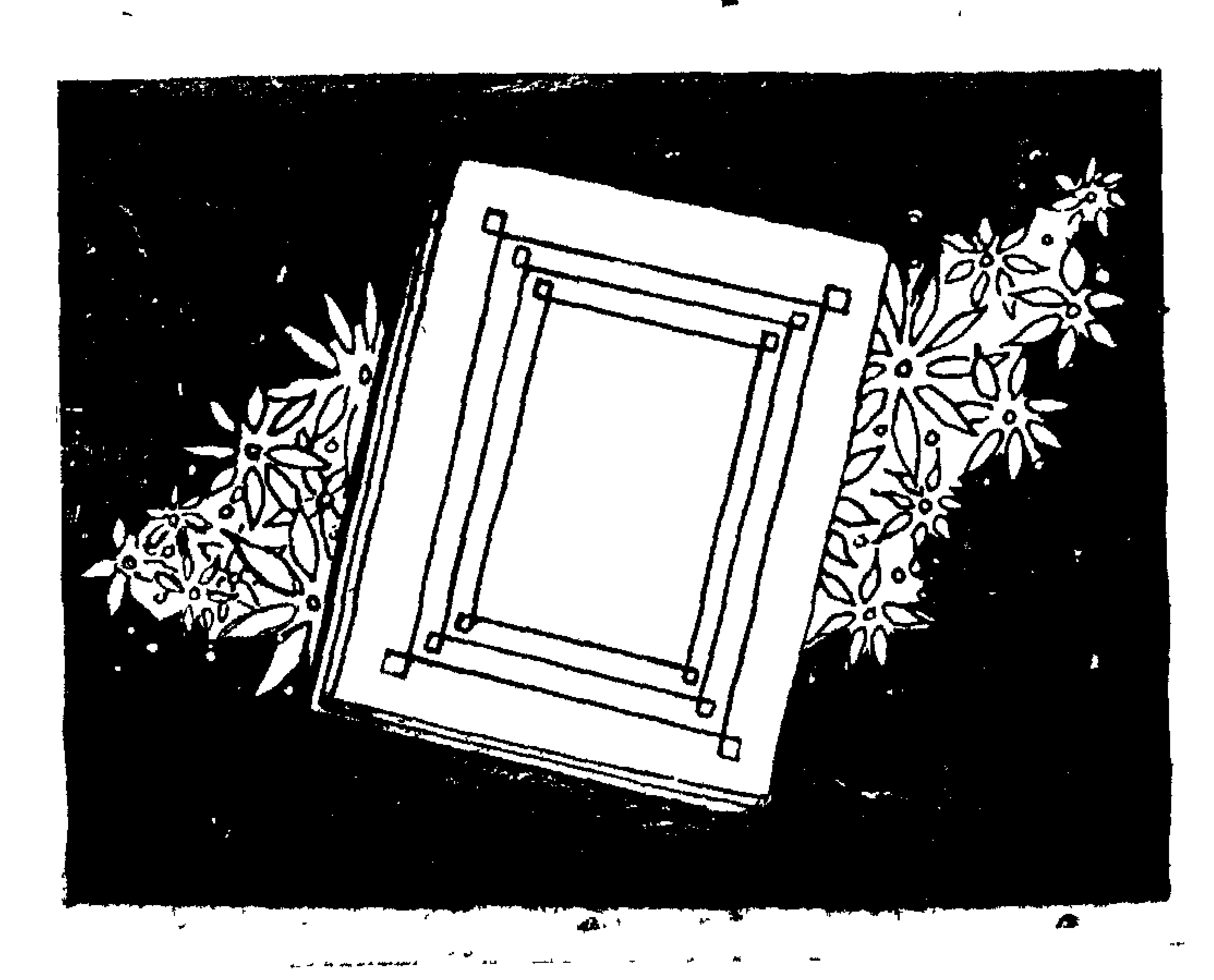
الحقيقة متخطيا قوانين «فريكا» وأكاذيب «لوكى» بقوة تغلب قوة العمالقة ودهاء يغلب دهاء الاقزام ؟ أجل ،على «اردا» الام الاولى ان تلد له جنسا من الابطـــال يخلص العالم ويخلصه هو نفسه من سلطاته التى تقيـــده ومن صفقاته التى تشينه وتزرى به . هذا هو الخاطر العظيم الذى سطع فى فكر «ووتان» كبير الآلهة ، وهو يتجه نحـو قنطرة قوس قزح ، ويدعو اليه زوجته لكى تأتى وتقيم معه فى « الفالالا » أو بيت الآلهة

ويستولى عليهم اجمعين بهاء «الفالالا» ويأخذ بألبابهم جلالها . . فيما عدا «لوكى» الذى يقف جانبا ،متواريا وراء الستار ينظر الى هذا النظام المشترك من الحكم ، المشترك بين ما هو قانونى وما هو الهى . هو يحتقر هذه الآلهـة كلها بمثلها العليا وتفاحاتها الذهبية ويقول : « انى لاخجل واستحى من نفسى أن تكون لى أية ارتباطات أو معاملات مع هــذه المخلوقات العقيمة التى لا غناء فيها . » وعلى هذا ، يسير فى أعقابهم الى قنطرة قوس قزح ، ولكن ما ان تطأها الاقدام ، حتى تعلو وتتصاعـــد من تحتهم ولولة عذارى الراين ، يبكين كنزهن المفقود . واذا «بلوكى» يصرخ ساخرا بهن سخرية وحشية : « أنتن يا هؤلاء ! يا من تقطن هناك فى أعماق النهر ، لقد اعتدتن حتى الآن على التمرغ فى بريق ذهب الراين كما يتمرغ الناس فى ضوء الشمس، من الآن ستقنعن بالتمرغ فى سناء الآلهة وجلال عظمتها !» فيجبنه العذارى قائلات : « ان الحقيقة هنا ، فى الاعماق، فى الظلام ، اما ما يتوهج بالنور الباهر هناك فوق الاعالى، فزيف وبهتان »

وعلى أثر قولهن هذا ، يمر موكب الآلهة من فوق القنطرة الى قلعتهم المجيدة ، مقرهم المكين

الفصل الرابع

- شو وفاجنر - فاجنر الثورى .
- شو وشكسبير - لوم الشاعر .
- شو وإبسن - المثاليات والمثاليون .
- شو وإبسن - المرأة الكاملة .
- شو وإبسن - مغزى المسرحيات .



شوفاجنر - فاجنر الثورى

قبل أن أترك هذا الشرح الذى قدمته لاوبرا « كنز الراين » «Rheingolde» ينبغى أن أتبادل مع القارىء كلمة أو كلمتين بهذا الشأن

ان هذه الحلقة « كنز الراين » أقل حلقات الرباعية « خاتم النبلونج Neblung's Ring حظا من اقبال الجمهور . فمسرات الناس وآلامهم تنحصر عادة فى المجال الشخصى والعائلى ، وعقائد الناس وأفكارهم السياسية هى عقائد وأفكار تقليدية بحتة تكتنفها الاوهام والخزعبلات ،فأوبرا « كنز الراين » فى نظرهم تتلخص فى أنها صراع يدور بين نصف دستة من الشخصيات الاسطورية حول « خاتم » ذهبى ، ويستغرق صراعهم هذا ساعات من الزجر والغش والغدر . ثم من منظر واحد طويل فى منجم مظلم كئيب تصاحبه موسيقى مظلمة كئيبة ولا تتاح لهم لمحة واحدة من شاب وسيم أو فتاة حسناء . وليس من بين الجمهور من يستطيع أن يتتبع الحلقة مبهور الانفاس حقا ، الا من كان لديه وعى أرحب وأفق أوسع من ذلك . هؤلاء يرون فى « كنز الراين » مأساة التاريخ الانسانى برمتها ، وفظاعة المحنة التى تستغرق الدنيا فى الوقت الحاضر . رأيت فى

« بايروث » لفيفا من السياح الانجليز وقد تجرعوا غصص الملل واحتملوا كؤوس العذاب من منظر « آلبريك » رأيتهم ينهضون وسط المشهد الثالث ويكادون يشقون طريقهم عنوة الى خارج المسرح المظـــلم يلتمســـون غابة الصنوبر المشمسة فى الخارج • ورأيت أناسا آخرين تأثروابالمشهد تأثرا عميقا ويكاد الحنق يخرجهم عن طورهم من هــذا الازعاج الذى سببه لهم الخارجون • غـــير انه كان من الطبيعى جدا ان يفعل السياح التعساء ما فعلوه لانه لا توجد استراحة بين الفصول اثناء عرض مقدمة « كنـــز الراين » لتكون مهربا لمن يريد ان يهرب • ويمكن القول على وجه التقريب أن الناس الذين ليس لديهم أفكار عامة أى ليس لديهم لمسة من اهتمام الفيلسوف ورجل الدين بالجنس البشرى عموما ، لا يمكنهم ان يستمتعوا بمقدمة « كنز الراين » كعمل درامى ! ربما وجدوا ما يعوضهم عن ذلك فى شيء من الموسيقى البديعة المفرطة فى الابداع ، والتى قد تبلغ أحيانا مرتبة العظمة الحقيقية ، فتتيح لهم من حين لاخر نجوة من الصراع الدائر بين «آلبريك» و « ووتان » ، ولكن اذا كانت طاقتهم محدودة واستعدادهم للاستماع يتساوى بما لديهم من فهم للعالم ، فخير لهم وللعالم أن يبقوا بعيدا ••

والآن ، أيها القارىء الواعى ، لقد بلغنا من مسيرتنــا من فاجنر ، نقطة سيأتى عندها بكل تأكيــد واحــد من المغفلين فيعترض سبيلنا ويعلن أن « كنز الراين » هى ما يسمونه عملا فنيا خالصا أى من اعمال الفن الخالص لوجه الفن ، وأن فاجنر لم يحلم قط بحملة الاسهم ولم تخطر بباله قط القبعات العالية ولا مصانع الرصـــاص الأبيض ولا مشاكل الصناعة والسياسة ولم ينظر اليهــا لا النظرة الاشتراكية ولا النظرة الانسانية . ولا حاجة

بنا الى مجادلة هذه الوقاحات ، فمن الايسر اسكات أصحابها بحقائق دامغة من واقع حياة فاجنر نفسه

ففى سنة ١٨٤٣ حصل فاجنر على منصب مدير للاوبرا فى درسدن بمرتب ٢٢٥ جنيها فى السنة مع المعاش . وكانت هذه وظيفة دائمة وتعتبر من وظائف الدرجة الاولى فى خدمة الدولة السكسونية وتعنى ان لصاحبها مركزا اجتماعيا مضمونا وموردا ثابتا للعيش . وفى سنة ١٨٤٨ سنة الثورات ، كانت الحكومات الاوروبية تتألف فى ذلك الوقت بالاشتراك بين الكنيسة والدولة وقد عجزت الطبقة الوسطى الساخطة عن انهاضها من عبوديتها للتقاليد وللنظام الطبقى وللقانون عندما توسلت اليها بالذرائع الاخلاقية أو بالاثارة الدستورية لتنفيذ الاصلاحات المبرالية التى كانت تطالب بها . فكانت أن ضمت الطبقة الوسطى قضيتها الى قضية الطبقة العاملة الاجيرة الجائعة ، ولجأت الى الثورة المسلحة . وامتدت شرارة الثورة الى درسدن فى سنة ١٨٤٩ . ولو كان فاجنر مجرد موسيقى أبيقورى مدلل أو قطبا تافها من أقطاب الفن الذين يعزفون عن السياسة والاشتراك فى السياسة ، أو لو كان فنانا مجردا كما قد توحى به كلمة فنان مجرد فيما يبدو لاذهان كثير من النقاد والهواة .. وبالاختصار لو انه كان مخلوقا على غرارهم تفاهة وبلادة وغرورا لما كانت به حاجة لان يساهم فى المعارك السياسية الطاحنة التى كانت دائرة فى أيامه ، بأكثر مما ساهم بيشوب (١) فى الزوبعة السياسية التى ثارت حول قانون الاصلاح الانجليزى فى سنة ١٨٣٢ ، أو بأكثر مما ساهم به

---

(١) H.R. Bishop ١٧٨٦ – ١٨٥٥ قائد أوركسترا ومؤلف موسيقى صاحب اغنية Home, Sweet Home المشهورة

ستراندل بنيت (۱) فى حركات الميثـــــاقيين الانجليز وأنصار حرية التجارة . ولكن هذا هو ما قام به فاجنر فعلا : قدم التماسا يائسا للملك مطالبا فيه الملك أن يطرح عنه قيوده وان يستجيب لحاجة العصر ومطالب العصر وان يأخذ على عاتقه واجبات الملك الحقيقية ويقود شـعبه للخلاص من الشرور التى نزلت به ولتقويم الاعوجـاج الذى لم يعد يطاق . (ولك أن تتصور شعور الملك المسكين حين وصله الالتماس) . وبعد أن وقعت الواقعة ، انضم فاجنر الى صفوف الفقراء الذين كانوا على الحق ضـد الاغنياء الذين كانوا على الباطل . فلمـا فشلت حـركة الانقلاب وحلت بها الهزيمة اختير ثلاثة من زعماء الانقلاب خصيصا ليحل بهم الانتقام والتنكيل وهؤلاء الثلاثة هم : أوجست روكل صديق فاجنر الـــذى وجـــه اليـــه سلسلة من الرسائل ذات الشهرة الذائعة ، وميشـيل باكونين الذى أصبح فيما بعد الداعية الشهير للفوضوية الثورية ، ثم فاجنر نفسه . وقد فر فاجنر الى سويسرا . أما روكل وباكونين فقـد احتمـلا فترات مختلفـة من السـجن . وحل بفاجنر طبعـا ، الافلاس التام ماليـا واجتماعيا . (وكان ذلك مبعثا لرضاه التام) . ودامت فترة منفاه أثنتى عشرة سنة . وكان أول خاطر خطر له ، أن يعمل على اخراج أوبراه « تانهاوزر » فى باريس . وكانت ثمة فكرة تدور فى رأسه فى الوقت نفســه هى ان يشرح للباريسيين وجهة نظره فوضع كتيبا بعنـوان : « الفن والثورة » تدل النظرة الخاطفة اليه ، على مدى عطفه التام على الناحية الاشتراكية فى الثورة وعلى مدى

---

(۱) **Strendale Bennette** ١٨١٦ ـ ١٨٧٥ مؤلف موسيقى انجليزى من أعماله « عذراء أورليانز » مأخوذة من مأساة الشاعر فردريك شيللر

تحرره التام من سلطان الكنائس القائمة فى أيامه . وظل ثلاث سنوات يدفع الى المطبعة بسيل من الكتيبات ، كان بعضها عبارة عن ابحاث بارعة ومقالات رائعة الصياغة سواء من حيث حجمها أو مستواها الفكرى الرفيع ، ولكنها كانت مع ذلك وبصفة اساسية كتيبات مهيج ثورى مطبوع : وتدور حول الثورة الاجتماعية والدين والحياة والفن ونفوذ المال ونفوذ أصحاب المال . وفى سنة ١٨٥٧ طبعت قصيدة « الخاتم » سرا ، وفى سنة ١٨٥٤ أى بعد انقلاب درسدن بخمس سنوات تمت الصياغة الموسيقية « لكنز الراين » الى آخر ضربة من ضربات الطبول ..

هذه الحقائق مسجلة رسميا فى المانيا حيث يصف منشور حكومى فاجنر باختصار بأنه « له نشاط سياسى خطر » ويمكن الرجوع الى هذا المنشور الى يومنا هذا ، كما ان الكتيبات فى متناول يد القراء الانجليز الان مترجمة بقلم المستر آشتون اليس . فاذا كان الامر كذلك ، فقد يحاول شخص ربما سمع بأننى اشتراكى ، أن يقنعك بأن تفسيرى وشرحى « لكنز الراين » ليس الا مذهبى الاشتراكى ، ألصقته الصاقا بمؤلفات احد محبى الفن ، استعار من الملاحم القديمة حكاية مملة ليؤلف منها أوبرا . من الاسلم أن تسقط مثل هذا الشخص من حسابك باعتباره انسانا جهولا

فاذا ما أصبحت الآن مقتنعا بأن « كنز الراين » عمل رمزى فلا تنس أن الرمز لا يكون متماسكا بل لا ينهض على ساقين الا اذا كتبه شخص ليست لديه الملكة الدرامية وفى هذه الحالة يصبح غير قابل للقراءة . هناك طريقة واحدة لوضع الفكرة فى الاطار الدرامى هى أن تضع على خشبة المسرح انسانا حيا تتسلط عليه هذه الفكرة ، ولكنه

مع ذلك انسان حى فيه جميـع البـواعث والانفعـالات الانسانية التى تجعله قريبا منا قرابة الرحم ومن ثم تثير اهتمامنا به . لم يحاول بانيان فى « رحلة الحاج » أن يفعل مايفعله مقلدوه الذين لايقرأ لهم أحد ، فيجد معانى المسيحية والبسالة في شخصيات ، ولكنه صور لك الانسان المسيحى والانسان الباسل فى صورة درامية . مثل هذا هو ما حدث بالضبط فى « كنز الراين » . فبالرغم من أننى بينت أن « ووتان » هو القوة الالهية والقوة الملوكية، وأن « لوكى » هو المنطق وهو الخيال المجرد بدون الارادة الحية (أو اذا عبرنا عن ذلك تعبيرا عاميا قلنا هو : عقل بلا قلب) الا أن « ووتان » فى الدراما رجل متدين متخلق بالاخلاق الدينية و « لوكى » رجل مستهتر ساحر مكار عبقرى ذو خيال . أما « فريكا » التى كانت تقوم مقـام الدولة فلا تتخذ شخصية رمزية فى « كنز الراين » على الاطلاق . ولكنها فقط زوجة «ووتان» وشقيقة «فريا» : لا بل انها تناقض نفسها الرمزية عندما تتواطأ مع «ووتان» فى جميع جرائمه . وهذا الموقف بالطبع هو ما عساه أن يقفه قانون الدولة ولكننا لا يجب أن ننقذ سـمعة الرمز بالتقذف فى حقه . فان دور « فريكا » المرسوم فى الفكرة الرمزية لا يتضح تماما الا بعد عودتـها الى الظهـور فى المسرحية التالية « الفالكيرى » «Die Walkure»

وثمة فكرة مسبقة قد توقع المشاهد فى حيرة لا مخرج منها ما لم ينبهه أحد اليها أو ما لم يتخلص هو منها من تلقاء نفسه : فى التقسيمات العتيقة لمراتب الخلق ، ينظر دائما الى الشخصيات التى فوق مستوى الطبيعة البشرية على انها أعظم من الانسان مكانا سـواء كانت خـيرة أم شريرة . اما فى التقسيم العصرى الانسانى لمراتب الخلق ـ وهو ما اخذ به فاجنر ـ يعتبر الانسان أسمى مراتب

الخلق على الاطلاق . وفى « كنز الراين » يتخيل فاجنر انه لا يوجد ، ولم يوجد بعد على ظهر الارض بشر . هناك اقزام وعمالقة وآلهة . والخطورة تكمن فى انك قد تقفز الى الاستنتاج بأن الالهة على الاقل أرقى منزلة من الانسان . والامر على العكس من ذلك ، فالدنيا كلها تقف على قدم وساق فى انتظار الانسان ليخلصها من حكومة الالهة العرجاء الحاقدة . وما ان تفهم هذا حتى يصبح المغزى واضحا امامك بما فيه الكفاية . والحق ، أن الاقزام والعمالقة والالهة هى نماذج درامية للمراتب الثلاثة الاساسية التى ينقسم اليها الناس : الغرائزيون أو المتبعون غرائزهم وشهواتهم وهم أيضا المتحذلقون الجشعون ، والكادحون الاغبياء ممن رزقوا الصبر وقوة الاحتمال كما تمتلىء نفوسهم احتراما للمال وعبادة للمال . ثم هناك المثقفون الاخلاقيون وهم ايضا الموهوبون الذين يخططون الدول والكنائس ويتولون ادارتها . والتاريخ يبين لنا أن ثمة مرتبة واحدة هى الارقى والاسمى من هذه المراتب الثلاث : مرتبة الابطال

ومن الواضح تماما الان ــ وان لم تكن قد فكرت فى الامر قط ــ أن الجيل الجديد من الانجليز لو كان يتألف كله من شخصيات من طراز يوليوس قيصر فان جميع انظمتنا السياسية والاكليريكية والاخلاقية ستفنى وتتلاشى ، أما بقايا المستعصية على الفناء فستدرج مع شواهد القبور الاثرية وجنبا الى جنب مع الرحى الحجرية والابراج المستديرة كمخلفات قديمة غامضة لنظام اجتماعى باد واندثر . ولن يزعج القياصرة الجدد أنفسهم بعد ذلك باختراع قوانين أو كنائس كقوانيننا وكنائسنا ، أكثر مما يزعج عضو الجمعية الفلكية نفسه ليلمس قبعته احتراما للمحافظ الطاعن فى السن او يصغى احيانا لموعظة يلقيها

قسيس القرية . هذا بالضبط ما سوف يحدث وما ينبغى أن يحدث يوما ما اذا مضت الحياة فى اندفاعها الى الامام نحو تنظيم اجتماعى أرقى .. فأرقى .. فأرقى . كما فعلت وتفعل حتى الان . وفى يوم من أيام المستقبل البعيد أو القريب ، سنفترض أو ينبغى أن نفترض ان منزلة الرجال من أوساط الناس ستعلو على منزلة يوليوس قيصر بنسبة ما تعلو منزلة أرباب الحرف من مواطنينا الانجليز اليوم بالنسبة لرجال الغابات من الاستراليين الاصليين . وليتأمل أى شخص فى منتصف العمر ما حدث خلال جيل واحد لايات الايمان وبنود العقيدة التى كان ابوه يعتقدانها خالدة وابدية ، لا بل دعه يتأمل ما حدث لانواع الزندقة والالحاد والتجديف فى شبابه (مثال ذلك النقد الذى وجهه الاسقف كولنصو (١) لاسفار موسى الخمسة !) وسوف يدرك مقدار ما سوف يستغنى عنه انسان المستقبل ، ويطرحه وراءه ظهريا من علومنا الدينية ومن قوانيننا البربرية . لقد وضع باكونين زعيم درسدن الثورى الذى ثار معه فاجنر فى سنة ١٨٤٩ ، برنامجه فيما بعد ، يشير اليه أكثر الناس الان بفزع غبى أحمق ، وفى هذا البرنامج يدعو الى الغاء كافة الانظمة والمؤسسات أيا كانت دينية أو سياسية أو تشريعية أو مالية أو قانونية أو أكاديمية او ما اليها بحيث تترك ارادة الانسان حرة لتكتشف طريقها بنفسها . كانت أسمى الارواح وأرقى النفوس فى ذلك الوقت تتحرق شوقا لان ترفع الانسان الى اعلى عليين ، لان تمنحه الاحترام الذاتى ، وان تهزه

---

(١) Bishop Colenso ١٨١٤ — ١٨٨٣ الاسقف الانجليزى المتحرر . عاش طويلا بين قبائل الزولو . وعاد من افريقيا ينتقد أسفار موسى الخمسة Pentateuch مما تسبب فى طرده من الكنيسة ووقف فى صف الاهالى الوطنيين ضد البوير والاستعماريين الانجليز

هزأ وتوقظه من العادات الـــذميمة التى خيمت عليه : تعوده التذلل والخنوع امام مثل عليا صنعتها مخيلته هو، وتعوده ان ينسب الخير المنبعث من كافة الحيـــاة التى لا ينقطع سيلها المتـــدفق من ذاته هو ــ الى قوة عليـــا مجهولة رابضة فى الســـحب ، وتعـــوده أن يصـــوغ من التضحية بالذات ونكران الذات تعويذة يتبرك بها وصنما يتعبده ، لا لشىء الا ليبرر جبنه وتخاذله

وسنشاهد فيما بعد فيما يتلو من حلقـــــات أوبرا « الخاتم » قدوم البطل الذى سيضع حدا لعهد الاقزام والعمالقة والالهة • ولكن لا يجب ان ننسى في خلال ذلك أن القوة الالهية عند فاجنر تعنى العجز وقبول أنصـــاف الحلول ، وأن الرجولة عنده تعنى القوة والتكامل . وفوق كل شىء ينبغى أن نفهم ان ارادة الاله ما دامت تتجه نحو حياة أرقى واكمل ، فلابدأن روحه تشتاق وتتطلع من اعمق أعماقها الى قدوم تلك القوة الكبرى التى ستكون أولى مهامها القضاء عليه وعلى منجزاته ، وان لم يكن قد رأى ذلك ببصيرته ، بعد

ومن الممتع أن نجد فاجنر وهو فى قلب هذا الحشـــد الحاشد من الافكار المترامية الابعـــــاد ، لا يزال مفعم الوجدان بموهبته التى طبع عليها : موهبته كفنان مسرحى محترف فاذا به يدخل بحيوية وجدية تأثيرات مسرحيـــة مبتكرة تبدو الان عتيقة عفى عليها الزمن ولكنه يعتبرها أرقى مبتكراته الملهمة • فعندما ينتزع « ووتان » الخـــاتم من « آلبريك » يطلق القزم على خشبة المسرح لعنة مكفهرة تجعل الدم يجمد فى العروق ويدعو بالهم والكرب والخوف والموت على كل من يمتلك الخاتم فى المستقبل • والجملة الموسيقية المصاحبة لهذه اللعنة الغاضـــــبة ترن فى آذان

أبناء منتصف هذا القرن (١) رنين صـــوت الشــيطان نفسه ، مع أن الزمن ســـلب منها رهبتها وهــولها · ثم يسمعون صوتها من جديد عندما يذبح « فافنير » أخاه التوأم « فاســلوت » ، وفى كل مناسبة تتلو بعد ذلك ، ويتسبب فيها الخاتم فى موت حامله · ولهذه المقطـــوعة ما يبررها باعتبارها عملا من أعمـــال الاثارة المسرحية ، ولكننا اذا نظرنا اليها بتعمق أكثر ، رأينـــاها زائدة لا لزوم لها ، وشيئا يبعث على الحيرة · فالخـــراب الذى يؤدى اليه الطمع فى المال لا يحتاج لتوضيحه الى لعنـــة شيطانية ، وكذلك ليس هناك مغنى فى أن يخلع المؤلف على « آلبريك » قوى ربانية فى هذا الصدد ··

---

(١) يكتب شو فى سنة ١٨٩٨

شو وشكسبير - لوم الشاعر

أعترف بأن من الصعب على بل من المستحيل أن أشعر فى هذه اللحظة أنى انسان متمدن فبعد أن هربت من الريف حيث يقيم سادة انجلترا الاقطاعيون المهذبون ويستمتعون بنشوة ذبح الفراخ وصيد الطيور ، اذا بى أعود الى المدينة لأجد من هم أكثر منهم ذكاء وتهذيبا ، مجتمعين لمشاهدة مسرحية عمرها تلثمائة سنة ، تظهر فى مشهدها الرئيسى المثير ، امرأة تصحو من نومها لتجد زوجها بين ذراعيها ملطخا بالدماء ، ورأسه مفصولة عن جسده (١)

اياك أن تحسب أيها القارىء ، أننى بذلك أدافع عن سيمبلين ! فهى فى معظم أجزائها نفاية مسرحية وفى أحط مرتبة يمكن أن تنحط اليها الميلودراما ، وفى بعض أجزائها مكتوبة بأسلوب مقيت منفر ، ومن أولها الى آخرها مبتذلة فكريا ، لاننا اذا طبقنا عليها المعايير الفكرية العصرية وجدناها عملا فجا منفرا وبذيئا ، يضيق به الصدر عن

(*) نقد مسرحية « سيمبلين » ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ ، ستردای ريفيو . ويختص الانجليز شكسبير بوصفه الشاعر «The Bard» تبجيلا له ، ويذكرها شو سخرية به

(١) ليتذكر القارىء ان شو كان نباتيا متعصبا لاياكل اللحم

كل احتمال • وتمر على الانسان لحظات يتساءل فيها وهو يائس لماذا يكتب على مسرحنا أن يبتلى بهذا «النشال الخالد» الذى ينشل قصص وأفكار غيره من الناس والمعروف باطنابه الممل وفصاحته البشعة وأحاديثه التى لا تطاق ، وهبوطه المفتعل بأدق مشاكل الحياة وأرهفها الى مستوى الحوادث اليومية الدارجة مما هو جدير بأن تثور عليه ثائرة أى ناد من نوادى المناظرة ، وبجموده التام عن الايحـاء بالافكار جمودا لا يمكن تصوره ، وبقدرته الفذة على أن يجمع فى جملة واحدة بين الفكرة المطبوخة الجاهزة والعقم الفـكرى الكامل ومن ثم يكشف عن عجزه عن الخروج بشىء من أعماق جمهور المشاهدين حتى ولو كانوا أجهل الناس ـ هـذا الا عندما يطلق فى وقار وترفع نكتة قديمة أو حديثا معادا بحيث لا يستطيع أقل مستمعيه عقلا أن يصدقوا أن رجلا عظيم المقام مثل شكسبير يقصد حقا أن يتحدث حـديث جداتهم العجائز المخرفات • أقول ، اننى لا أجد باستثناء كاتب واحد ـ هو هوميروس ـ كاتبا مشـهورا ولا حتى سيروولتر سكوت يمكننى أن أحتقره احتقارا جامعا كمـا أحتقر شكسبير عندما أقيس عقليتى بعقليته • أشـهد أن ضيقى به يتفاقم فى بعض الاحيان فيبلغ من الحدة والعنف بحيث لا يسرى عنى فعلا الا أن أذهب رأسا الى قبره فأنبشه وأستخرج رفاته وأرجمها بالحجارة لاننى أعلم ـ وأنا أفعل ذلك ـ مدى عجزه وعجز مريديه وعباده عن أن يفهموا أية صورة أخرى من صور الاهانة أوضح وأبلغ من هذه •ومن عاداتى المتأصلة التى أصبحت بمثـابة طبع ثان لى ، هى الالتزام بالاعتدال والتفكير المدروس فى جميـع بياناتى وتصريحاتى التى أدلى بها ، بفضل سنوات قضيتها فى حمل المسئولية العامة كصحفى ، ولكن هذه العـادة المتأصلة تتعرض لخطر الضياع كلما قرأت سيمبلين ثم فكرت بعدها

فى جوته وفى فاجنر وفى ابسن

ثم اننى مضطر لان أضيف الى ذلك أنى أرثى ـ مع ذلك ـ للشخص الذى لا يستطيع أن يستمتع بشكسبير • فلقد ظل أثره باقيا ، متخطيا رءوس الاف غيره من مفكرين أكثر منه اقتدارا وأطول باعا ، وسيبقى أثره ويتخطى ألفا آخرين منهم•فموهبته كراوية قصاص (بشرط أن يقص عليه القصة شخص آخر أولا) وقبضته الجبارة على ناصية اللغة التى تتضح بأبلغ بيان فى معجزاته البلاغية فى التعبير خاصة عندما يسىء استخدامها بسفاهة وحمق ، وفكاهته واحساسه بالشخصية وهى فى حالتها الفطرية الاولى، وذخيرته الاسطورية من الطاقة الحيوية التى هى فيما يبدو ـ صفة كل عبقرى وتقف دائما من وراء أصحاب المواهب جميعا أشرارا كانوا أم خيريين أم مستهترين ، كل هذا ـ يجعله قديرا على امتاعنا وادخال السرور علينا بحيث تصبح المشاهد والشخصيات التى خلقها من الخيال أكثر واقعية من حياتنا الواقعية نفسها ـ ويستمر هذا التأثير فينا على الاقل الى أن تبدأ معرفتنا بالحياة الواقعية فى التعمق ،الى ما تحت العادى السطحى من الامور • وعندما كنت فى العشرين من عمرى كنت أعرف كل شخصية من شخصيات شكسبير ابتداء من هاملت الى « آبورسون » (١) معرفة وثيقة صحيحة لدرجة أنهم كانوا أقرب الى وألصق بى من معارفى الاحياء ، بل لا زلت حتى يومنا هذا اذا ما استوقف نظرى فى احدى الصحف اسم « بيستول » (٢) أو « بولونيوس (٣) يحملنى الفضول على قراءة العبارة التى

(١) الجلاد فى مسرحية « دقة بدقة »
(٢) المهرج فى « هنرى الرابع » وفى « زوجات وندسور المرحات »
(٣) من شخصيات « هاملت » رئيس الديوان الملكى وفيها يسخر شكسبير من الفلسفة والفلاسفة

ورد فيها الاسم بلهفة أشد مما لو كان الاسم ـاسم٠٠٠ـ ولكن لعل من الخير الا أذكر اسم شخص بالتحديد

وعلى هذا ، ترى كم من الشخصيات الجديدة يمكنك أن تتعرف عليها من قراءتك لسيمبلين ٠ اذا كان لديك من الصبر وطول البال ما يجعلك تشق طريقك الوعر خلالها ، وتخوض كل ما فيها من مستنقعات الاطناب ؟ هذا على شرط أن تكون قد بلغت من الكبر عتيا حتى تحررك الشيخوخة من الفكرة العصرية الشائعة التى تقول بأن سيمبلين لابد أن يكون اسما لاحد مستحضرات التجميل (١) وأن ايموجين (٢) اسم لاحدث الاكتشافات العلمية فى طبيعة غاز من الغازات لم يزل مجهولا حتى الآن ٠ سيمبلين ليس شيئا مذكورا ، وزوجته الملكة لا شيء ، وان بذلت المحاولات لوصفها بالمرأة التى تلقى كل ثقلها فى عقلها ٠ « وبوستهيومس » (٣) لا شيء لحسن الحظ والا كان كلبا حقيرا لا يحتمل ، وبيلاريوس (٤) لا شيء أو على الاقل بعد شخصية كنت (٥) فى « الملك لير » « كالملكة التى تعد لا شيء بعد « ليدى ماكبث » وأياكومو (٦) ليس بالشيء الكثير فليس سوى لزوم الشيء (diabolus ex machina) وبيزانيو (٧) أقل شأنا من اياكيمو ٠ ومن جهة أخرى لدينا كلوتن (٨) أمير البلهاء البلداء (التنابلة) ، ودوره بكل ما فيه من بذاءات وفحش وغير ذلك يعتبر تحفة أدبية من أول سطر الى آخر سطر ويمثل الاميران تمثيلا رائعا

---

(١) سيمبلين هو ملك بريطانيا فى المسرحية التاريخية
(٢) ابنة الملك سيمبلين من زوجة سابقة
(٣) زوج ايموجن (٤) اللورد المنفى ، جاء متنكرا
(٥) ارل أوف كنت فى « الملك لير »
(٦) شخصية الايطالى فى سيمبلين (٧) خادم بوستهيومس
(٨) ابن الملكة من زواج سابق

أسطورة البربرى النبيل بما فيها من سخاء ووقع قوى ، و «كايوس لرشيوس» (١) الجنرال الرومانى المتمدن فى وسط البرابرة ، وفوق الجميع تأتى « ايموجين » ورجائى أن تذكر أن هناك شخصيتين لايموجين : احداهما نموذج هادىء وقور محكم الصياغة لما ينبغى أن تكون عليه السيدة الكاملة كما يراها شكسبير ، وفى تلك المرأة التى لا يمكن وصفها بالكلمات ، تعتبر ثورتها من أجل الفضيلة مرضا مزمنا ، هدفها فى الحياة الانتقام لكرامتها الشخصية وشرفها ، وأن تشك فى شرف كل انسان غيرها وخاصة شرف زوجها • وهى مثل «لوتاو» (٢) فى دكان الجواهرجى فى رواية برت هارت (٣) الهزلية لا يمكن أن تترك بمفردها مع أية منقولات فضية الا بعد التنبيه على أصحابها وطمأنتهم على أنها لن تسرق منها شيئا ــ لن تسرق من الفضة شيئا مع أنها وجدت الذهب النضار منثورا على أرض الدكان • ثم هناك امتلاء جعبتها تلقائيا بالافكار القذرة التى لا ينبغى التصريح بها : فأنت لا تملك وأنت تقرأ عبارة واحدة من دورها ، أن تغمز بعينيك • غير أن «ايموجين» هذه لها « ايموجين » أخرى مرتبطة بها بحبال من قصائد الشعر غير المقفى (وهى لحسن الحظ حبال بالية يمكن قطعها بسهولة) ــ ايموجين التى هى من خلق عبقرية شكسبير ، الشخصية الساحرة الرقيقة بل أرق ما تكون حسا ، والمليئة بل أملأ ما تكون بالتقلبات النفسية المفاجئة : فمن نوبات الحنان العميق الى نوبات الغضب الصبيانى ، جسورة جريئة فى كل من الحالين غير ناظرة للعواقب : تجرح فى لحظة وتضمد الجرح فى اللحظة

---

(١) جنرال رومانى فى سيمبلن

(٢) Lothas (٣) Bert Harte

التالية ، ثم هى تتمتع بأعلى درجة من الشجاعة ، وذات محتد كريم وأصل عريق . ولولا هذه « الايموجين » الثانية لكانت الفرصة المتاحة لبعث مسرحية سيمبلين من موتها مثل الفرصة المتاحة لمسرحية « تيتوس آندرونيكوس »(١) الآن ، وما أضألها من فرصة !

***

ان شخصية ايموجين الهوائية المتقلبة المتبعة لغرائزها ، هى الجانب الحى من المسرحية ، ينبغى أن تقتطع وتنتزع انتزاعا من بقية المسرحية التى لا تصلح للتمثيل على الاطلاق، وان كان للهواة من الشبان أن يحفظوها عن ظهر قلب ويطالعوها بتأثير مناسب فى أحد العروض التى تقدمها جمعية المسرح الاليزابتى . ان بقية المسرحية هذه ، لا يمكن أن تنطق عباراتها على خشبة المسرح العصرى حيث ينفر احسن الممثلين من الادوار المصطنعة ويأبونها . وبناء على هذا، لابد من اقتضاب سيمبلين واقتضابها بحرية . ولا يرجع هذا التأكيد من جانبى ، الى أننى أخشى أن يتهيب المخرج من الاقتضاب ، بل الامر على العكس تماما . فلو أقيمت للفن جمهورية حقيقية لكأن سير هنرى ارفنج (٢) قد كفر عن سيئاته على المشنقة ، لكثرة ما أدخل فى النصوص المسرحية من تعديلات ، فهو لا يقتضب المسرحيات فقط باقتطاع أطرافها ، بل يبقر بطونها ويستخرج أحشاءها . وفى سيمبلين تفوق على نفسه باستئصال القصيدة الثالثة من المرثية الشهيرة . وأى شخص يجرؤ على ذلك يمكنه أن يفعل أى شىء ــ كان يقتطع « الكودا » من الحركة الاولى لسيمفونية بتهوفن التاسعة ، أو يقتضب احدى لوحات

---

(١) لشكسبير
(٢) المخرج والممثل الانجليزى الشهير . وكان شو على خلاف دائم معه

فيلاسكويز (١) للملك فيليب ليصنع منهـــا « كتيكات » ينطبق على حجم المدفأة فى حجرة جلوســـه • ان الخطوط الارابسك (المتشابكة) لشخصية كلوتن التى هى بـكل تأكيد ليست أعلى من مســتوى عصر علم ستيفنسون (٢) بحيث لا يقدرها حق قدرها ، ومع ذلك فقد طمست هــذه الخطوط وشوهت بقسوة كرومولية لا تعرف الرحمة ،كما أن المشهد الوطنى الحماسى الذى تلقى فيه الملكة خطبتهــا العظيمة عن الشجاعة الفطرية المتأصلة فى جزيرتنا قدمزق شذر مذر بالرغم من أنه كان من السهل تقديم الخطبة فى مشهد الحديقة • ومع ذلك احتفظ المخرج الهمام بخطب مطولة من نفاية القول لانافلته تدور حول ... التشـــهير الذى حده أمضى من حد السيف •• وما الى ذلك ـ احتفظ بها مخرجها الهمام وحرص عليها حرص البخيل أو حرص صاحب الوسواس على حذافير صـلاته • حقا ، ما أفقـر سير هنرى ارفنج فى المعرفة الحقيقية للادب ! ان فقـــره هذا عجيب ، وسيصيبه حتما بعجز خطر لو كان ممثـــلا يتحتم عليه أن يوضح دوره ويفسره ، ولكنها لحسن الحظ غلطة ارتكبتها احدى المواهبالكبيرة•• موهبةالخلق•ولقد انهالت كمية خرافية من الهراء عن فهم سير هنرى ارفنج لهذه الشخصية الشـــــكسبيرية أو لهذه أو لغيرها ••• والحقيقة أنه لم يفهم فى حياته ولا عبر عن شـــخصية أى كاتب قط ، الا نفسه • وهو فى الواقع عاجز عن تمثيـل مسرحية أى شخص آخر عجز فاجنر عن كتابة أى«ليبريتو»

---

(١) Velazquez الرسام الاسبانى الشهير ١٥٩٩ ـ ١٦٦٠ رسم سلسلة شهيرة من اللوحات للملك فيليب وهو راكب فرسه

(٢) R.L. Stevenson الروائى الانجليزى ١٨٥٠ ـ ١٨٩٤ صاحب روايات المغامرات المشهورة مثل جزيرة الكنز ودكتور جيـكل ومستر هايد . وشو يسخر منه ومن العصر ومن شكسبير ومن ارفنج

لشخص آخر · وكان ينبغى عليه ـ مثل فاجنر ـ أن يكتب مسرحياته التى يمثلها بنفسه · ولكن بما أنه لم يكتشف نفسه الا فى وقت جد متأخر ، فلم يتلقن أصول تلك الحرفة الثانوية ـ حرفة كتابة المسرحيات ـ فقد كان مضطرا لاستعمال مسرحيات ناس آخرين كاطار يعرض فيه ابتكاراته هو · وكان أول نجاح كبير له ـ فى هذا الطراز من الاقتباس ـ تاجر البندقية · لم تكن هناك مشكلة بشأن « شيلوك » الطيب أو « شيلوك » الشرير : لم يكن الشخص الذى أبرزه «شيلوكا» على الاطلاق. كلما اصطدمت شخصيته المبتكرة بشخصية شكسبير كما فعلت ذلك على رءوس الاشهاد فى مشهد المحاكمة ، جعل الممثلون يتناقضون صراحة مع سطور النص الشعرى ـ وبكل قوة طردوا شكسبير طردا من فوق خشبة المسرح · وقال النقاد انها سياسة تتميز بالاصالة ، وبشدة الامتاع : ومع ذلك كان من الواضح أن مشقاتها ستتزايد كلما كان الابتكار فى المؤلف الدرامى أكثر قوة ووضوحا · ان شكسبير عندما تكون موهبته فى أحسن حالاتها ، ونبرته فى قمة ارتفاعها ، لا يمكن تجاهله أو طرده بيد أى ممثل من لحم ودم ، مهما كان ذلك الممثل موهوبا · وعندما حاول سير هنرى ارفنج أن يحشر فكرة شديدة الغرابة ـ ادخال رجل عجوز بين سطور النص المسرحى للملك لير شوه النص الاصلى ثم أجهز عليه اجهازا · ومن جهة أخرى ، ففى المسرحيات التى يؤلفها أشخاص لا وزن لهم ، حيث يلعب الكاتب الدرامى دورا تافها فى المسرحية تنطلق طاقة مستر ارفنج الخلاقة ، حرة لا يعوقها عائق ، ولا يعترضها شىء ، ان عقم المؤلف هو فرصة الممثل ليقدم روائعه .

شو و إبسن - المثاليات والمثاليون

رأينا الانسان وهو ينضج خلال العصور كلما نضجت شجاعته ، وأعني شجاعة روحه (لان الناس يسمونها بهذا الاسم) فيزداد جراة واقداما على الحب وعلى الثقة ويطرح عنه الخوف وينصرف من القتال . غير أن لهذه الشجاعة اثارا أخرى .. فبالشجاعة يرتفع الانسان بنفسه من مرتبة الوعى المجرد الى مرتبة المعرفة كلما ازدادت جراته على مواجهة الحقائق ، وأن يقول لنفسه الصدق . ولقد كان الانسان فى طفولته الاولى، طفولة العجز والفزع، غير قادر على مواجهة المحتوم ، ولما كانت الحقائق المحتومة هى أشد الاشياء صلابة وقسوة وعنادا ، فقد كان الانسان كلما اكتشف حقيقة خطرة تتهدده أخفاها عن شعوره وغطاها بالاقنعة بنفس السرعة التى يكتشفها بها ، وكانت الاقنعة هى الاخرى صلبة وغليظة وعاتية ، بحيث كان كل قناع منها يحتاج الى بطل ليمزقه ويهتكه . وعلى عرش المفازع والاهوال التى كانت تهدد الانسان

(*) الفصل الثانى من جوهر الابسنية Quintessence of Ibsenism الطبعة الثالثة كونستابل وشركاه لندن سنة ١٩٢٢ وكانت الطبعة الاولى سنة ١٨٩٠

تتربع حقيقة الموت ، فلم يكن فى وسع الانسان أن يحتمل رهبة الموت المحتوم ، وتعين عليه أن يقنع نفسه بأن من الممكن أن يتزلف للموت وأن يداريه ويحتال عليه ثم يوقع به فى النهاية ـ وكلنا نعرف كيف ركب الانسان على وجه الموت المخيف قناع الخلود الشخصى ليبلغ مأربه ذاك . وصنع نفس هذا الصنيع بجميع الحقائق المحتومة التى لا قبل له بها ولا رغبة له فيها ، كان لا بد من ذلك والا جن جنونا من الفزع الذى تبعثه فيه الحقائق الرهيبة المحيطة به والتى يقف على رأسها الهيكل العظمى ممسكا باحدى يديه ساعة رملية وبالاخرى منجلا كبيرا (١) . فكان الانسان يسمى أقنعته هذه « مثلا عليا » ، وكان دائما يتساءل ـ وله الحق فى تساؤله ـ أى قيمة للحياة بل أى طعم للحياة بدون مثل عليا ؟ وهكذا أصبح الانسان « مثاليا » وبقى مثاليا على هذا النحو حتى تجاسر دون أن يمد يده ليجذب الاقنعة ويخلعها ويمزقها اى الى أن تجاسر ونظر الى الاشباح وجها لوجه وعينا لعين . وتجاسر هنا بمعنى أصبح « واقعيا » . غير أن الناس ليسوا جميعا على درجة متساوية فى الشجاعة والجسارة ، فاذا ما مد أحد الواقعيين يده على أحد الاقنعة التى لم يجرؤ بقية الناس على أن يمسوها بسوء ، ولم يتصوروا امكان العيش بدونها ، هاجت الدنيا وماجت من الهول والفزع ، وكأن الارض قد زلزل زلزالها ..

وما زال حولنا الكثير والكثير من هذه الاقنعة وبعضها أشد غرابة مما نشاهده معروضا فى المتحف البريطانى

---

(١) رمز الموت

مما كان يرتديه أهالي جـزر الســندوتش (١) . وفى رواياتنا وقصصنا الغرامية خاصة نشاهد أجمل الاقنعة التى صنعناها ونسجنا خيوطها بأيدينا وصممناها خصيصا لاخفاء الغريزة الجنسية فى مراحلها البدائية المبكرة ، وللتخفيف من شدة القوانين الحديدية التى يفرضها المجتمع لتنظيم وسائل اشباعها ، فقد كان من المحتوم على الانسان ككائن اجتماعى ، وما دام قد عول على السير فى طريق المدنية ، أن يفرض على نفسه نظام الزواج وحياة الاسرة ، لانه لا سبيل الى بقاء النوع البشرى وخلوده وتكاثره اذا ما بقى الحب مجرد نزوات عابرة وبقيت العلاقة الجنسية مقتصرة على الشهوة الجسدية . ويحاول الناس ترقيع اللذة بالضرورة فيزعمون يائسين ، أن نظام الاسرة المفروض عليهم بالاكراه هو النظام الامثل والنظام الملائم ويضعون شروطا وتقاليد لمعانى الاحتشام والعرض والشرف واللياقة الاجتماعية وما الى ذلك ، فيقولون ان الناس دائما يحبون أقرباءهم تلقائيا أكثر من حبهم لاصدقائهم ومعارفهم العابرين ، وان الرجل اذا اشتهى امرأة مرة ، فسيظل دائما يشتهيها كل مرة ، وأن الاسرة هى المجال الملائم للمرأة ، وأن ليس ثمة امرأة كاملة ، تنشىء أية علاقة برجل أو حتى تعرف لها معنى ، الا اذا بداها الرجل وطلب منها انشاء مثل هذه العلاقة .. الخ .. والان ما القول فى الشخص الذى امتلأت طفولته بالمرارة لان أمه كانت تكرهه ولم تكن ترغب فى انجابه ، أو لان أباه ضاق به صدرا ؟ والزوجة التى

---

(١) Sandwitch Islands الاسم القديم لجزر هاواى الواقعة فى قلب المحيط الهادى وعاصمتها الان هونولولو

كفت عن حب زوجها ؟ والزوج الذى سئم زوجته ومجهـا من صميم قلبه ؟ والاخ الذى يخاصم أخاه أمام المحكمة على قسمة أملاك الاسرة ؟ الاب الذى يرى ابنه يفسـد عليه مشروعاته عامدا متعمدا ويتحدى رغباته ويعقـه عقوقا ؟ .. من الصعب على هؤلاء اقنـاع أنفسـهم بأن صلة الرحم صلة أبدية وخالدة ، وبأن الدم دائمـا يكون أغلى من الماء . ومع ذلك فلو قال واحد من هؤلاء الحقيقة لنفسه ، لبدت حياته فى ضوئها هباء وضياعا وفشـلا ذريعا . ولا بد ان ينتهى به الحال الى أحد أمرين : اما أن يتفق مع قوم على أن نظام الاسرة كله ، نظام فاشـل وغلطة كبرى وان عليهم أن يطرحوه جانبا ويستبدلوا به نظاما جديدا تماما ــ وهذا ما لا يمكن أن يحدث الا بعد أن ينضج النظام الاجتماعى ويتطور ويسبق فى نضـجه وتطوره نظام الزواج بشـوط بعيد ، بحيث يسـتطيع المجتمـع أن يسـتغنى عنه ويضمن مع ذلك بقـاءه واستمراره ، وأما ان بقومه سيكبحون جماحه ويبقـونه على الرغم منه فى حظيرة النظام القائم بالاصرار الحازم على أن الاوهام المستخدمة كأقنعة لهذا النظام هى حقائق واقعة لا يأتيها الباطل

ولمزيد من الدقة فى الايضاح ، دعنا نتصور مجتمعـا يتألف من ألف من الاشخاص يشـملهم تنظيم اجتماعى يهدف الى بقاء النوع البشرى واستمراره ، وينهض هذا التنظيم الاجتماعى على نظام الاسرة البريطانية المألوف لنا فى الوقت الحاضر . ولنفرض أن سبعمائة من الالف يرون أن نظام الاسرة البريطانية صالح لهم تماما ، وأن ٢٩٩ يرونه نظاما فاشلا وان كانوا يرتضونه لانفسـهم مرغمين لانهم أقلية .. أما الشخص الباقى فيحتل مـكانا سنأتى الى بيانه حالا . ان الـ ٢٩٩ من الفـاشلين فى

زواجهم لا تتوفر لديهم الشجاعة لمواجهة فشلهم الذى لا يرجى له علاج لانهم لا يسعهم أن يمنعوا الـ ٧٠٠ السعداء من اجبارهم على قبول قانون الزواج السائد والرضوخ له . وعلى هذا سيحاولون اقناع أنفسهم بأنه مهما كانت بيوتهم منهارة وزيجاتهم فاشلة فان نظام الاسرة بصفة عامة ، نظام جميل ومقدس وطبيعى . فالثعلب الذى يستعصى عليه العنب لا يكتفى بوصفه بأنه عنب فج وحامض بل يصر على أن النبق الذى فى متناول يده حلو ولذيذ . واليك ما حدث : الاسرة كما هى فى الواقع الراهن ـ نظام تقليدى ينفذه قانون الاغلبية لانه نظام ملائم للاغلبية ولان الاغلبية تعتقد أنه يلائم أيضا الاقلية مع أن الواقع يقول انه لا يلائمها على الاطلاق .. فالاسرة كنظام جميل ومقدس وطبيعى ليست سوى صورة خيالية مثالية لما تريده كل أسرة فيما لو أعطى كل شخص ما يلائمه ، وهذه الصورة الخيالية هى من اختراع الاقلية لانها تستخدمها كقناع لواقعهم المر الذى لا صبر لهم عليه اذا ما تجرد وتعرى أمام أعينهم . ونحن نطلق على هذا النوع من الصور الخيالية اسم المثل الاعلى . والسياسة المثالية او التى توصف بهذا الوصف هى سياسة اكراه الافراد على أن يتصرفوا على أساس أن جميع المثل العليا حقائق واقعة ، وعلى الرضى بتصرفهم هذا كسلوك أخلاقى نموذجى صالح فى جميع الظروف ، وعلى أن يشيحوا بوجوههم عن كل سلوك مغاير له ويوقعوا عليه العقاب باعتباره عملا منافيا للاخلاق والاداب العامة . وهكذا يصبح أصدقاؤنا الـ ٢٩٩ فاشلا فى زيجاتهم مثاليين فى نظرتهم للزواج ، والعجيب أنهم يتحمسون للمثل الاعلى حماسة شديدة ويدعون له فى رواياتهم وأشعارهم وخطبهم المنبرية ومواعظهم الكنسية

وأحاديثهم الشخصية الجادة بأشد واقوى مما يدعو له السبعمائة الاخرون الذين رضوا بالزواج واطمأنوا اليه كوظيفة روتينية يقومون بها ، ولم يحلموا بتسميته نظاما فضلا عن أن يسموه نظاما جميلا ومقدسا وطبيعيا بل ان السبعمائة يرون ببساطة تامة أن المثالية ضرب من اللغو الصادر عن عقول مشوشة محتلة ، تحاول أن تثير به زوبعة حول لا شيء . وتتألم مشاعر المثاليين الحساسة بهذا الرأى الذى تراه الاغلبية فيهم ، ويكيلون للسبعمائة بنفس الكيل فيصفونهم بأنهم «ماديون» (1) وهكذا ينقسم مجتمعنا الى ٧٠٠ ماديين و ٢٩٩ مثاليين وواحد لا يندرج تحت أى تقسيم ، ذلك هو الشخص الذى بلغ من القوة ومن الشجاعة ما يجعله يواجه الحقيقية التى يشفق منها المثاليون

مثل هذا الرجل يقول فى الزواج : « هذا نظام فاشل لعدد كبير منا . فاذا ما ارتبط شخصان بعلاقات معينة لا يبقى عليها الى الحب الصادق والعاطفة المخلصة ، فمما لا صبر لانسان عليه ، أن يجبر هذان الشخصان على الارتباط بها بعد زوال الحب وبرودة العاطفة ، أو اذا لم يكن للحب وللعاطفة مكان فيها منذ البداية . فليس صحيحا ما يزعم بأن هناك عوامل للجاذبية والنفور مركبة فى طبيعة الانسان منذ الازل ، وأن المثل الاعلى للاسرة ينهض عليها .. كما ثبت تاريخيا بطلان الزعم بأن نظام

(1) Philistines وهى كلمة وردت كثيرا فى الاناجيل ومعناها الكلبيون أو الارضيون أو الماديون . والماديون لا بالمعنى الفلسفى ولكن بالمعنى الدارج المألوف للكلمة ـ أى الناس الذين لاهم لهم الا قضاء مصالحهم المادية والشخصية ولا يتعبون رءوسهم بالتفكير فى امور عامة أو فى مستقبل بعيد . وقد اخترت كلمة الماديين لانها المقابل المباشر لكلمة « المثاليين » التى استخدمها المؤلف آملا ألا تحدث بلبلة عند القارىء
(المترجم)

الاسرة انما قام بهدف اشباع هذه العوامل وحدها . فلنعمل اذن على اقامة نظام آخر يساعد على تحقيق الاغراض الاجتماعية للاسرة ولنلغ كل ما فيه من قهر واجبار » ..

ترى ما الموقف الذى يتخذه الاخرون من هذا الرجل الصريح الذىلايعرف المواربة؟ الماديون سيعتبرونه ببساطة تامة مخبولا فقد عقله . أما المثاليون فسوف يصيبهم فزع يتجاوز كل حد ، لان شخصا ما جاء فصرح علانية بأفكارهم المكتوبة وعبر عما فى ذات صدورهم - لان خائنا قد وجد بينهم ، بين المتآمرين على الصمت والسكوت (١) فتجاسر وهتك القناع الجميع الذى نسجوا خيوطه هم وشعراؤهم ليخفى وجه الحقيقة البشع الذى لا يطيق أحد النظر اليه . لسوف يحرقونه حيا ، لسوف ينتهكون مثلهم العليا نفسها ليشفوا غليلهم فيه ، لسوف يحطمون الحب العائلى - المثل الاعلى - فينتزعون أولادهم من أحضانه ويقاطعونه وينفونه من الارض ويصبون عليه ركاما من اللعنات والوصمات : ليس عنده أخلاق ، منحل ، داعر فاسق ، فاجر ، قذر . لسوف يقيمون عليه الدعوى أمام « الماديين » السبعمائة الذين أدرجوا فى خانة «المثاليين» خصيصا لهذا الغرض ، بوصفهم «المجتمع» . أما الى أى حد سيسيرون فى اجراءاتهم ضده ، فيتوقف على الحد الذى تتفوق فيه شجاعته على شجاعتهم واصراره على اصرارهم ، فاذا كان فى أسوأ حالاته جبنا وترددا ، سموه ساخرا مستهترا متناقضا ، مخالفا ... الخ فاذا كان فى أحسن حالاته شجاعة وحزما بذلوا أقصى ما فى وسعهم لتحطيم حياته ان لم يكن للقضاء

---

(١) ماأكثر ما ذكر ماركس فى كتاباته عن مؤامرة الصمت هذه التى دبرها ويدبرها البورجوازيون

عليه جسدا وروحا . وهكذا نرى الاخــــلاقيين من ذوى الشجاعة الواهنة الضعيفة من أمثـــال « ماندفيل » (١) و « لاروشفوكو » (٢) الذين لم تتجاوز شجاعتهم أكثــر من حد التصريح لاقوامهم بحقائق غير سارة ولم يستنكروا المثل العليا السائدة ولم يشكوا فى صحتها بل انهم فى واقع الامر اعتمدوا على صحة هذه المثل العليا لتأييد حجتهم فيما صرحوا لقومهم به ـ أقول ـ هكذا نرى أمثال هذين الرجلين يخرجون من المعمعة بما لا يزيد من وصفهم بصفة ساخر أو مستهتر . وقد أصبح من المألوف اطلاق هذه الصفة على كل مثالى متحمس بلا قيد او شرط. ولكن خذ « شيللى » كمثال يساعدنا على ايضاح المثل الذى نضربه : فالمثاليون لم يصفوا « شيللى » بأنه ساخر أو مستهتر بل وصفوه بأنه شيطان رجيم فى البداية . فلما لم يتمكنوا بعد ذلك من اختراع قناع وهمى جديد يتيح لهم الاســـتمتاع بجمال قصائده الغنائية اكتفوا بتســـميته ســـاخرا أو مستهترا وهو وهم آخر لا يقل عن زعمهم بأن شيللى «مثالى» فى أعماقه . ومن ثم لابد وأن تكون مثله العليا مطابقة لمثل

---

(١) B. Mandeville ١٦٧٠ ـ ١٧٣٣ مؤلف The Fable of the Bees اثبت من دراسة خلية النحل ان الانانية هى سبب البقاء وأنه لو أنكر ذاته ومصلحته الذاتية لهلك . تأثر بأفكاره صمويل جونسون ثم هوبز ثم بانتام

(٢) F. Larochefoucauld ١٦١٣ ـ ١٦٨٠ الكاتب الفرنسى الكلاسيكى صاحب الحكم والامثال المجموعة فى : ...Reflections وفكرته الاساسية متشائمة تدور حول أن الانانية والمصلحة الشخصية هى محور سلوك الانسان

من اقواله : « ان الفضائل تصب فى المصلحة الشخصية كما تصب الانهار فى البحر »

تينسون (١) ولونجفللو (٢) وان لم يكتب بيتا واحدا من الشعر يتضمن شيئا أى شيء من مثلهم العليا « المحترمة » (٣)

وهنا يبدو أن القول بأن شيللى « الواقعى » كان مثاليا أيضا ، يفسر الامر كله ، وهو بكل تأكيد يفسر الانسجام اللفظى للكلمات · وسبب ذلك أننا لسوء الحظ نستعمل كلمة « مثـــل أعلى » بلا تمييز ، ونقصد بها النظام الذى يخفيه قناع المثل الاعلى كما نقصد بها أيضا القناع نفسه ،

---

(١) Tennyson ١٨٠٩ – ١٨٩٢ الشاعر الانجليزى الرومانسى مؤلف أشعار Idylls التى هى خليط من القيم الاقطاعية وقيم العصر الفيكتورى التى يثور فيها على عصر العلم والصناعة

(٢) H.W. Longfellow ١٨٠٧ – ١٨٨٢ الشاعر الامريكى كان أستاذا فى جامعة هارفارد ويجيد عشر لغات · Poems on Slavery ثم ترجم كوميديا دانتى الالهية الى الانجليزية نظما

(٣) حاشية بقلم شو ·

فيما يلى نموذجان من المرحلتين اللتين مر بهما نقد شيللى :

... نحن نشعر كما لو كان واحد من أشد شياطين الجحيم سوادا ، وقد تقمص جسد انسان ليشبع من خلاله حقده على الجنس البشرى وعداوته له : ان كراهية « شيللى » للناس تفوق الكراهية الطبيعية التى يحس بها البشر ، ولا يزيدها الا قدرته على الايذاء · لقد انطبعت هذه الصورة فى أذهاننا عنه ، انطباعا قويا لدرجة أننا طلبنا فعلا من أحد الاصدقاء ـ رأى ذلك الشخص «شيللى» رأى العين ، أن يصفه لنا كما لو كان له حافر فى رجله أو قرن فى رأسه أو ألسنة من اللهب تتصاعد من فمه لتميزه عن سائر البشر فى مظهره الخارجى ـ ذلك العدو اللدود من أعداء الجنس البشرى ·· » عن مجلة ليترارى جازيت ١٩ مايو سنة ١٨٢١

... ان «شيللى» ملاك جميل يذهب ولا يترك أثرا ، يخفق فى الفراغ بأجنحته المضيئة عبثا وبلا جدوى ··· » ماتيو آرنولد فى مقدمة «المنتخب من أشعار بايرون » بتاريخ سنة ١٨٨١

وليس من شك فى أن الرأى الذى أبدى فى شيللى سنة ١٨٨١ كان أسخف وأشد سفاهة من الرأى الذى أبدى فيه فى سنة ١٨٢١ · ويمكن العثور على مزيد من النماذج لهذا النقد فى مقالات هنرى سولت أحد الكتاب القلائل الذين تعرضوا لشيللى ووضعوه فى مكانه الحقيقى كأحد الرواد الاجتماعيين

وبذلك نحدث بلبلة فكرية لا مخرج لنا منها • قد يكون النظام فاسدا فعلا ، ولكن القناع الذى يغطيه قد يكون صورة لما نتمناه ، صورة للبديل الذى نريده • فاذا سمينا الحقائق الواقعة وهى مرتدية أقنعتها مثلا عليا ، فسوف نسمى احتمالات المستقبل أيضا مثلا عليا • ومرة أخرى ، اذا سمينا الرجل الذى يدافع عن الانظمة القائمة مدعيا انها تنطبق وتتفق مع أقنعتها رجلا مثاليا ، ثم أطلقنا نفس الاسم على الرجل الذى يسعى لتحقيق احتمـــالات المستقبل او لتهيئة السبيل لها ، بتمزيق القناع وما تحت القناع ، فلن يستطيع قلم بيد بشر هائك ، أن يعرض الموضوع بطريقة مفهومة ، وسوف تتعارض اهدافنا ـ أنا وانت أيها القارىء ـ فى كل جملة نتبادلها ما لم تسمح لى بتسمية الرواد الاوائل من أمثال شـــــــيللى وابسن « واقعيين » وتمييزهم عن المثاليين فى المجتمع الـــــذى تخيلته من قبل ويتألف من ألف من الاشخاص • ولـــو أنك سألتنى لماذا لم أستخدم المصطلحات بوجهها الآخـر فسميت شيللى وابسن مثاليين وسميت التقليديين واقعيين لاجبتك بأن أبسن نفسه وان لم يخترع هذه التسميات ويحدد تلك الفروق رسميا ، الا أنه ألح وأكد فى أقواله ان التقاليد هى المثل العليا ، وأن التقليديين هم المثاليـون بحيث لو جئت واستخدمت كلمات « حقـائق واقعـة » و « واقعيين » فى غير ما استخدمها فيه ابسن ، لاحدثت بلبلة فى أذهان قراء « البطة البرية » وال روزمرزولم من حيث ظننت أنى أساعدهم على فهم ما يقرءون • ولا شك أن بعض اللوم سيكون من نصيبى لاننى حيرت الناس بتحديد معنى كلمة « مثالى » على هذا النحو ، ولكنى أقول بدورى ، ان هذه الحيرة العابرة لا تقارن بالبلبلة البالغة التى كنت حريا بايقاع القراء فيها اذا ما استخدمتها بوجهين متعارضين

أشد التعارض ؛ فاذا ما اعترض أحد على اصطلاح «واقعي» بسبب بعض الملابسات العصرية المرتبطة به ، فلا يسعني الا ان أؤيده بشرط ألا يلصقه « بزولا » (١) وموباسان (٢) ٠٠ ولكن بأفلاطون ٠٠

والان لنعد الى مجتمعنا المكون من ٧٠٠ مادى ، ٢٩٩ مثالياً وواحد واقعي ٠٠ ان الغموض اللفظى الذى أقمت الحجة عليه منذ هنيهة ، ليس شيئا اذا قيس بالغموض الجوهرى الذى ينتج من محاولة وصف العلاقات القائمة بين هـــذه القطاعات الثلاثة بكلمات مأخوذة من المعانى العادية كالحكمة والواجب ٠ فمع أن المثالى أرقى منزلة من المادى فى سلم التطور الا أنه يمقت صاحب المنزلة الارقى من منزلته ، ويهاجمه فى رعب ولدد وعنف مما لا يعرفه المادى ولاقبل له به ٠ ان الرجل الارقى الذى ارتقى وتسامى فوق الاخطار التى تهدده والمخاوف التى تحوطه ، فلم تعد تقوده غريزة التملك الى السرقة ، ولا نوبات الغضب الى القتـــل ، ولا العواطف الى الخلاعة والتهتك ، هو الذى تصب على رأسه اللعنات ويوصف بأنه أكبر الاوغاد ، ورأس الانحلال ، انه يوصف بأنه أحط الناس لانه على وجه التحـديد ، أرقى الناس ٠ والعجيب أن الذين يقعون فى هذا الخطأ البين ليسوا الجهلة أو الاغبياء ، بل المتعلمون والمثقفون ٠ فعندما ينطق النبى بالحق سرعان ما يثبت علميا أنه وغد وأحمق ، وليس من يثبت ذلك الجهلة الذين لم يطلعوا على أنبـــاء

---

(١) E. Zola ١٨٤٠ ـ ١٩٠٢ الكاتب الفرنسى الواقعى الذى وصف كثيرا كفاح الطبقات العاملة فى رواياته : La terre, Germinal وغيرها ٠٠

(٢) Guy de Maupassant ١٨٥٠ ـ ١٨٩٣ اشهر كتاب القصة القصيرة الواقعية ٠ نظير تشيكوف الروسى ٠ مؤلف كرة الشـــحم ـ الاشارة ـ ذلك الخنزير موران ـ العقد ـ قطعة الحبل..الخ (معظمها مترجم) ٠ كما أن له روايات ٠ حياة بل امى ـ يوميات مجنون

تلك المظاهرات العلمية الزائفة فى الماضى ولا كيف انتهى بها مصيرها ، بل الذين كتبوا بأيديهم المجلدات بعد المجلدات عن جرائم الصلب والحرق والرجم وقطع الرءوس والشنق والنفى الى سيبيريا والتشهير والمقاطعة ، أى الجرائم التى ارتكبتها البشرية فى حق الرواد الاوائل كما ترتكبها الان فى حق تابعيهم الحاليين ورفاقهم فى السلاح • اننا نسمع من أفواه ذوى الشهرة الادبية الثابتة وذوى السمعة المحترمة من النقاد ، أن وليم بليك كان مجنونا وان شيللى كان شابا منحلا أفسده اختلاطه بمجموعة من الشباب الفاسد المنحل ، وان « روبرت أوين » كان غرا مأفونا لا خبرة له بالعالم ، وأن راسكين كان عاجزا عن هضم الاقتصاد السياسى وأن « زولا » كان وغدا أفاقا وأن « ابسن » كان شبيه زولا ولكن برجل خشبية • والموسيقار الذى يرضى عنه المستمع العادى غير المحترف يناله التشهير والتشنيع عادة من زملائه الموسيقيين المحترفين • فلقد كان مثقفو أوروبا من الموسيقيين هم الذين أعلنوا أن فاجنر أدنى مرتبة من مندلسون ومايربير • ويجد الرسام العظيم أعداءه دائما بين الرسامين لا بين رجال الشارع : فلقد كانت الاكاديمية الملكية فى لندن هى التى وضعت نكرات لا وزن لها فى مرتبة تعلو مرتبة بيرن جونز (١) • وليس من المنطقى ولا من الواجب أن يكون الامر على هذا النحو ، ولكنه على هذا النحو بالرغم من كل شىء

وفى نهاية المطاف ، ينفد صبر الواقعى الشجاع ،

---

(١) Burne-Jones ١٨٣٣ ــ ١٨٩٨ أحد الرسامين الاجليز من رفاق وليم موريس وراسكين • كان يرسم بالزجاج الملون والقماش وورق الحائط

واكاديمية لندن للفنون اسست سنة ١٧٦٨ برعاية الملك جورج الثالث• ثم علاها صدأ الرجعية والجمود فى القرن التاسع عشر حتى أصبحت كلمة «اكاديمى» وظلت الى الان تحمل معنى التقليد والرجعية والتعصب والبلادة

ويضيق ذرعاً ، بالمثل العليا برمتها فلا يرى فيها الا ضباباً وغشاوات تحجب أبصارنا ، وبدلا من أن تكون/ أدوات فى أيدى البشرية لمقاومة الموت اذا بها تجرد الموت من سلاحه المخيف ، ولكن بالدعوة الى الانتحار . فالمثالى الذى لجأ الى حمى المثل العليا لانه يكره نفسه ويخجل من نفسه يظن أن مصيره الحق ونهايته المثلى هما فى التشبث بالمثل العليا • والواقعى الذى انتهى به الامر الى احترام نفسه والايمان العميق بسلامة ارادته هو ، يعتقد أن اللجوء الى المثل العليا هو أسوأ مصير وأحقر نهاية يمكن أن ينتهى اليها • المثالى لا يكبح جماح الطبيعة البشرية بنزواتها الفاسدة واسرافها المدمر الا بانكار الذات والغاء شخصيته، وتحقيق الاندماج التام فى المثل العليا • والواقعى ينظر الى هذه المثل العليا على انها ملابس ضيقة كبر الانسان عليها فباتت لا تلائمه بل وتعوق حركته بصورة لا تطاق • ولا عجب أن يعجز الاثنان عن أن يتفقا • يقول المثالى : « الواقعية معناها الاناوحدية ، أن أقول أنا وحدى وبعدى الطوفان ، ومعنى الاناوحدية الانحراف • » ويقول الواقعى: « ان الرجل عندما يلغى ارادته فى أن يحيا ويكون حرا فى عالم من الاحياء الاحرار ، لا يسعى للانسجام مع المثل العليا بهدف تحقيق ذاته ، بل ليكون «رجلا طيبا»او«رجلا صالحا » فاذا ما بلغ مسعاه هذا ، فقد مات موتا أدبيا ، وتعفنت أخلاقه ويجب أن يترك وشأنه حتى تحين ساعة بعثه من جديد اذا أسعده الحظ وحانت تلك الساعة قبل موته الجسدى ، ومن سوء الحظ ان هذا النوع من القول لا يفهم ولا يدركه الا الواقعى • ومن الممتع ـ وان كان فى نفس الوقت أقل قدرة على الاقناع « اقناع المثاليين» أن نتناول بالعرض نموذجا واقعيا حقيقيا لواحد من المثاليين وهو ينتقد واحدا من الواقعيين

شو وإبسن - المرأة الكاملة

كان اهم حادث ادبى وقع فى سنة ١٨٩٠ ، هو نشر يوميات مارى باشكرتسيف (١) ، وقد قدم وليم ستيد (٢) رئيس تحرير مجلة ريفيو أوف ريفيوز فى يونية سنة ١٨٩٠ عرضا لليوميات مشفوعا بسلسلة من التعليقات . وكان ستيد قد ضم اليه جمهورا غفيرا من الحواريين والتابعين بقيامه باحدى الخدمات الوطنية التى استهدف من ورائها الصالح العام ، واضطر فى سبيل ذلك الى أن يتظاهر بارتكاب جناية خطيرة وسجن من جرائها لكى يثبت للرأى العام وللقضاء أن تلك الجريمة يمكن ان

(*) الفصل الثالث من جوهر الابسنية

(١) Marie Bashkirtseff ١٨٦٠ - ١٨٨٤ رسامة وكاتبة روسية شابة عاشت متنقلة بين المانيا والرفييرا . وقد احتفظت منذطفولتها بيوميات تحكى بصراحة تامة أسرار حياتها . وقد تبادلت مع جي دى موباسان خطابات مشهورة باسم مستعار . وقد طبع جزء من يومياتها بعد وفاتها واحدث ضجة ادبية فى أوروبا وانجلترا وترجم الى لغات كثيرة

(٢) W. T. Stead ١٨٤٩ - ١٩١٢ الكاتب الصحفى الانجليزى . أصدر وتولى تحرير عدد من الصحف الناجحة . وشن حربا صليبية ضد الرذيلة وانحرافات الاحداث ، أدت الى تعديل القانون الجنائى فى انجلترا وكان نصيرا للسلام

تحدث وتحدث فعلا . ثم شغل بحملة صحفية شنها لارساء قواعد المثل الاعلى الذى يقول : ان طهارة الانسان في الامور الجنسية شرط من شروط الخدمه الوطنية . وكانت لديه بكل تأكيد خصائص ابسنية واضحة : الثقة بالنفس وقوة الارادة واتباع ما يمليه عليه ضميره بلا تحفظ ، وان يكون قادرا فى كل وقت على أن يجعل صوته مسموعا . ومن بين مثالياته التى آمن بها ، مثل أعلى هو أبرز مثله العليا وإعلاها مقاما : المثل الاعلى للانوثة أو المرأة الكاملة . وهو كسائر المثاليين يستطيع فى سبيل تعزيز هذا المثل الاعلى ــ أن يقرر اى شيء وان يصدقه مهما خالف الواقع والحقيقة بشكل واضح وبشكل مضحك معا . وما ان وقع على يوميات مارى باشكرتسيف وعرف ان روايتها لقصة حياتها تتعارض تعارضا تاما مع الصورة التى كونها لعقلية المرأة فى مثله الاعلى للأنوثة اذا به يقع فى ورطة محيرة : اما ان مارى ليست امرأة واما أن مثله الاعلى زائف بطبيعته . ولكن تردده لم يطل فقد اختار الرأى الاول فعلا . قال : « ليس فى مارى الا أثر قليل ، بقية تافهة من المرأة الكاملة ، انها على التحديد نقيض المرأة الحقيقية تماماً »

وكانت ورطة وليم التالية ان كان ضبط النفس هو احدى الصفات الاساسية واول الشروط التى يتطلبها فى مثله الاعلى ، ومن ثم يستحيل ــ منطقيا ــ ان تتمتع مارى بصفة ضبط النفس والا كانت شبيهة بمثله الاعلى . ومع ذلك اضطر لان يسجل فى مقالاته انها قد صنعت من نفسها فنانة (١) على درجة عالية من المهارة بدون أى قهر

---

(١) تكاد كلمة فنان أو فنانة Artiste تقتصر فى اللغة الانجليزية على الرسامين والنحاتين . فنانة معناها رسامة أو نحاتة

خارجي عليها ، وذلك بمثابرتها على العمل عشر ساعات كل يوم لمدة ست سنوات • ولندع اى واحد يظن أن هذا ليس برهانا على ضبط النفس ، يحاول ان يصنع ما صنعته ماري لمدة ستة شهور فقط • ومع ذلك جاء حكم وليم القاطع عليها فى قوله : « انها لا تتمتع بأى مقدرة على ضبط النفس . » وعلى أية حال قد تبلورت خصومته الكبرى لماري فى السطور التالية « .. كانت ماري رسامة وموسيقية وفيلسوفة لبقة الحديث ، وباحثة وبالاختصار كانت تتمتع بأى شيء تحب أى امرأة ان تتمتع به الا أن تكون امرأة طبيعية لها قلب يحب وروح ترى ذروة اشباعها فى التضحية من اجل زوجها الحبيب وولدها • » وانى لاشك فى أن هناك منكرا بين جميع منكرات المثاليين التى تجعل من مجتمعنا بؤرة عطنة ، يمكن ان يبلغ فى بشاعته ذلك التقليد المنكر الذى يفرض على المرأة أن تضحى بنفسها بمثل هذه الطريقة اللئيمة على زعم انها تحب التضحية ، فاذا ما تجاسرت المرأة وعارضت هذا الزعم ، عرضت على الملأ فوق منصة التشهير وقيل انها ليست امرأة • وفى الهند تمادى المثاليون فبالغوا فى هذه المثالية الى حد الزعم بأن المرأة الكاملة لا يمكن ان تحتمل الحياة بعد موت زوجها ، وانها تريد دائماً بطبيعتها المحبة المخلصة ان تضحى بحياتها على المحرقة التى حرقت عليها جثة زوجها . والعجيب ان النساء هناك كن يسمحن لقومهن أن يسكروهن بالخمر حتى تتبلد أحاسيسهن ويصبحن فى حالة منافية للانوثة تماما ، وذلك قبل حرقهن احياء حتى لا يوصمن بوصمة التناقض مع المثل الاعلى للانوثة الكاملة . ولقد وضعت المادية البريطانية الانتهازية ، حدا لمثاليات الارامل

الهنديات فقامت حكومتها فى الهند بالغاء تقاليد «الساتى» بالقوة الجبرية . غير ان النسخة الانجليزية من تقليد « الساتى » (١) ما زالت شائعة مزدهرة . وكان ستيدمنقذ الاطفال من الرذيلة (٢) واحدا من كبار كهنتها . ولنتصور مشاعره مثلا وهو يجابه بهذه العبارة الافتتاحية فى يوميات امرأة : « أنا احب نفسى » أو بعبارة : « أقسم جادة ـ بالكتب المقدسة وبحب المسيح و «بنفسى» ـ على أننى سأصبح فى مدى اربع سنوات امرأة مشهورة . » لقد اعلنت الفتاة الصغيرة فى حزم واصرار انها ستكرس جميع القوى التى لم توضع فى خدمتها ـ على حسب رأى ستيد ـ « لمصلحتها الشخصية لا للتضحية فى سبيل زوجها وولدها . » لا عجب اذا ان نراه يندفع صائحا : « كانت ذكية بلا شك ، وذكية جدا ، ولكنها لم تكن امرأة »

كان من الواضح تماما ان مارى بشكرتسيف أبعد ما تكون عن المرأة التى تنطبق عليها شروط المثل الاعلى للانوثة ، أى أنها كانت مثالا فذا للمرأة الواقعية . وستيد فى كتابه عنها ، يبدو كما لو كان قد وقع فى غرام يومياتها وتاريخ حياتها ، فقد لذ له أن يعرضها فى صورة باهرة ساحرة عندما يقول : انها كانت مصدرا لبهجة كل المحيطين بها بفضل ما كانت تشيعه حولها من جو التفاؤل والتهلل الحافل بالأمل ، وأن ذلك يرجع الى

---

(١) Suttee

(٢) حاشية بقلم شو :
لجأ ستيد الى تجربته الجنائية البائسة المشار اليها لكى يحمل الحكومة على اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع بغاء الاطفال والرقيق الابيض . وقد نجح فى مسعاه

ارادتها الصلبة القوية • والحق ان المرأة الكاملة ـ فى نظر ستيد ـ أى التى تضحى بنفسها وبارادتها وبرغباتها فى الحياة ، هى مجرد ضحية بائسة للاستغلال ، وليس ذلك فحسب بل انها ـ ككل حمالى الهموم شخصية بغيضة يكرهها الناس لما هى فيه من كرب دائم وهم مقيم • وليس من شخص يمكنه أن يزعم ان روحه تبلغ ذروة اشباعها فى التضحية بنفسه • ان مثل هذا الزعم جدر بأن يدمغه الى الابد بالجبن والتهافت • ان الرجل كامل الرجولة ، هو الذى يتبنى وجهة نظر بشكرتسيف فى الحياة . ونحن لا يقل حبنا للرجال بسبب ارادتهم القوية واستقلالهم ، فما من انسان يشعر بالعجز او بانه ضعيف لا حول له ولا قوة وهو يمشى بصحبة شخص من هذا الطراز ، اى بصحبة شخص يساعد نفسه بنفسه .أما ذلك المضحى بنفسه ، المنكر لذاته دائما ، حمال الهموم، فذلك هو العبء الثقيل المزمن ، انه كالمسئولية الثقيلة ينبغى حمله على الاكتاف ، فضلا عن انه مصدر ازعاج دائم غير طبيعى ، وليس فى وسع شخص قوى النفس حقا ، أن يعيش أو يتعايش معه . . ان الذين يساعدون أنفسهم هم وحدهم الذين يعرفون كيف يساعدون الاخرين ، وكيف يحترمون حق الاخرين فى مساعدة أنفسهم . . (١)

وعلى الرغم من أن المثاليين الرومانسيين يصرون على أن

---

(١) حاشية بقلم شو :

على اثر نشر هذه العبارة بوقت قصير جاءتنى سيدة المانية فقالت انها تعرف « المصدر الذي استقيتها منه » وكان واضحا انها لاتقصد انى استقيتها من ابسن اذ اردفت تقول لى : « لقد كنت حتما ـ تطالع كتاب نيتشه فى الخير والشر وفى الجانب الاخر » . وكانت تلك اول مرة اسمع فيها عن نيتشه . ولا اذكر هذه الواقعة لغرض سخيف هو الدفاع عن « اصالتى » جريا على موضة القرن التاسع عشر ، بل لاننى اعطى =

اخضاع النفس او اذلالها هو عنصر لا غنى عنه فى الحب الأنثوى الحقيقي ، فان كلا من افراد الجنسين يعرفون تأثير ذلك معرفة تامة ، فهو تأثير بغيض وممقوت فى الواقع ، ومن ثم يصدون عنه صدودا . ان أقصى الأمثلة تطرفا فى هذا الصدد ، هو ما نراه ونلمسه عندما يسلم شخص مقاليد نفسه بنزق وطيش للشهوة الجنسية . وكل شخص يقع فريسة أو نهبا للفتنة الجنسية سرعان ما ينفر منها تلقائيا ، وبطبيعة الغريزة الجنسية نفسها. فالحب بطبيعته يفقد سحره عندما لا يكون حرا ،وسواء كان القهر فى الحب من العادة او من التقاليد او من القانون او من الفتنة الجنسية ، فنتيجته سواء فى جميع الحالات : يفقد الحب قيمته ويصبح منفرا وبغيضا كمداعبات مجنون . ان الرغبة فى الذل لا تلهم الانسان باى حب ما لم تكن هناك ايضا رغبة فى الاحتفاظ ، والمحب الناجح فى كلا الجنسين على السواء هو الذى يضع لحبه شروطا مشرفة ويتمسك بها الى النهاية ، فاذا ما خاب امله فيها نفض يده من الامر كله ، ومضى لا يلوى على شيء . والزواج الشرعى كما يتم اليوم لا يوفر مثل هذه الشروط لاى من الجنسين ، لان العلاقة الزوجية الشرعية تقوم بطبيعتها على القهر والالزام ، ومن ثم تبعث على النفور الشديد ، وهذا النفور يضع الزواج فى أول الامر فى مرتبة المثاليات مع أنه يبقى كوسيلة لا غنى عنها

= اهمية كبرى للدليل الذى يثبت ان الحركة التى دعا اليها شوبنهور وفاجنر وابسن ونيتشه وستريندبرج كانت حركة عالمية ،وكانت خليقة بأن تجد اللسان الذى يعبر عنها حتى ولو كان كل واحد من هؤلاء الكتاب قد ادركته المنية وهو طفل فى المهد . وقد تناولت هذه القضية فى مقدمة مسرحيتى « ميجوربربارا » والحركة مازالت حية تتنفس اليوم فى فلسفة برجسون وفى مسرحيات جوزكى وتشيكوف وفى الدراما الانجليزية فى الحقبة التالية لابسن

لاستمرار النسل ، ثم يحوره بعد ذلك ويتحايل عليه بالطلاق وبالغاء العقوبات المفروضة على عدم الامتثال للاحكام القضائية الخاصة بتعويض الحقوق الزوجية واخيرا بعدم استخدام هذه الاحكام بالتدريج وتلاشيها كلما انتقلت مسئولية رعاية الجيل الناشيء من الاب الى المجتمع .. » (١)

ولقد قوبلت لوائح الزواج التى نظمتها كنيسة انجلترا بنفور متزايد أدى بكثير من مشاهير الرجال والنساء

---

(١) حاشية بقلم شو :

ان أى بحث فى عيوب قانون الزواج فى حالته الراهنة لابد وان يخرج بنا من سياق الموضوع ومن ثم لايجمل ادخاله فى هذا السياق ، وان كان من المستحسن الاشارة الى الذين يعتبرون الزواج نظاما مقدسا لايمكن انتهاكه او الخروج عليه . والواقع ان الضرورة قد أكرهتنا على العبث به عبثا فاضحا لدرجة انه الان (١٨٩١) وامام اعلى محكمة فى المملكة ، يقف زوج وزوجة ليحكم بينهما القضاء : يقول الزوج هل للمرأة ان تحمله كافة مسئوليات الزوج ثم ترفض ان تعيش معه ؟ وتتساءل الزوجة قائلة : هل يسمح القانون لزوجها بأن يرتكب فى حقها جرائم الاختطاف والسجن والاغتصاب (وما اقرب هذا بنظام بيت الطاعة عندنا — ع.م.) ؟. فلو قالت المحكمة للزوج نعم ، أصبح الزواج عقدة لايمكن حلها ، وشيئا لايطيقه الرجال . واذا قالت للزوجة نعم أصبح الزواج جحيما لايطاق بالنسبة للنساء . ومن الواضح ان الفرصة ينبغى ان تتاح لفصمعرى هذه الزيجات وامثالها اذا كان لنظام الزواج كله ان يبقى ويدوم. ان اتاحة هذه الفرصة امر ضرورى الى أن تتاح للمجتمع نفسه طريقة اخرى أو نظام اخر يحل محله ويقوم بوظيفته . وهكذا يضطر نظام الزواج فى سبيل استمرار النسل وبقاء النوع ، الى اباحة الطلاق والتوسع فيه ، كالسجين الهارب الذى يضطر لتعطيل ذئب يقتفى اثره ، لان يقتطع له اجزاء من قلبه . ولقد حكمت المحكمة فى القضية المشار اليها لغير صالح الزوج . غير ان انجلترا مازالت متخلفة وراء أوربا البروتستانتية فى ادخال التعديلات الضرورية على قانون الطلاق . انظر مقدمتى فى مسرحية « زواج » التى تزود القارىء بالبحث الذى يخرج عن نطاق هذه الملاحظة العابرة » سنة ١٩١٢ »

الى نبذ البنود الخاصة بأهداف الزواج كنظام ، وبالرغم من ذلك فليس من المرجح أن نستغنى عن الروابط والالتزامات الشرعية وأن نضع كل ثقتنا فى دوام الحب، حتى لا يتوقف استمرار النسل وبقاء النوع على البيت باعتباره روضة أطفال أو دارا للحضانة وتفريخ الاطفال كما هو حادث الان . ان الحب كعامل فعال يلعب دوره فى المجتمع لا يزال مجرد لذة وشهوة . أما تلك المرحلة العليا فى تطور الحب ، مرحلة الحب الناضج التى يصفها لنا ابسن ممثلة فى شخصية « ربيكاً وست » فى مسرحية آل روزمرزولم فغير معروف لاكثرنا الا من خلال أوصاف الشعراءالعظام الذين لم يعرفوها هم انفسهم من واقع تجاربهم الشخصية كما تدل على ذلك ترجمات حياتهم ـ بل عرفوها عن طريق الالهام ، كومضات خاطفة . لقد احب « دانتى » بياتريس هـذا الحب السامى ومع ذلك لم يكن دانتى مخلصا لها لا فى أثناء حياتها ولا بعد مماتها ،بل ولم يكن مخلصا للمرأة التى تزوجها فعلا . ومن ذا الذى يزعم ان عقله أرقى من عقل دانتى ؟ ان من يفعل ذلك لهو بورجوازى وقح . وقد يموت تانهاوزر (١) وهو يعتقد اعتقادا جازما ان لحظة عاطفية واحدة قضاها مع سانت اليزابث كانت أحفل بالسعادة من جميع الساعات التى قضاها مع فينوس فى نشوة غامرة . ولكن هذا لا يغير من الواقع شيئا وهو أن حبه الحقيقى قد بدأ مع فينوس وأن التجارب النهائية التى مر بها فى طريقه الى هدفه النهائى قد تخللتها نكسات . . ان افتتان تانهاوزر بفينوس

---

(١) Tannhauser بطل اوبرا فاجنر المعروفة بهذا الاسم . وتانهاوزر قسيس من العصور الوسطى كان موزع القلب بين حبه المقدس لسانت اليزابث وشهوته الجسدية لفينوس الهة الحب

تطور للشهوة البدائية المبتذلة ، تلك الشهوة التى احس بها جاك البورجوازى نحو حبيبته جيل ، وهو تطور أرقى ولكنه فى نفس الوقت أخطر من المادية الانتهازية . الشهوة هى بذرة الفتنة : والفتنة هى بذرة الحب الاكمل . وعندما قال « بليك » لقومه انهم لن يتعلموا الاعتدال الا من خلال الافراط كان يعلم ان الطريق الى الحاضر ، قد مر بفينوسبورج (١) وان الجنس البشرى لم يهلك ولن يهلك فى فينوسبورج حتى وان هلك فيها بعض الافراد مهما اشفق البوريتانى المتزمت وظن أننا سنلقى حتفنا جميعا هناك مالم نعثر على طريق آخر يدور حول مدينة الشهوة . ولا شك أن بليك قد تنبأ أيضا بالزمن الذى سيولد فيه أطفالنا على الجانب الاخر من الصراط المستقيم ، وبذلك يفلتون من عملية التطهير الجهنمية ، التطهير بالنار ..

ولكن الحقائق كلها تؤكد أن بليك لا يزال يعتبر عرافا مجنونا ، وان النقاد التقليديين لمسرحية آل روزمرزولم لا يزالون يفشلون حتى فى ملاحظة تطور افتتان ربيكا بروزمرزولم الى ان اصبح الافتتان حبا حقيقيا ، فضلا عن أن يقدروا ماصحب ذلك من تجليات اخلاقية رفيعة . وهذه الحقائق نفسها تبين مبلغ السخافة التى ينطوى عليها الزعم بأن الزواج الروتينى فى هذه الايام هو اتحاد بين رجال من طراز « وليم بليك » ونساء من طراز « ربيكا وست » وان من الممكن انكار الشهوة الجنسية وضرورة اشباعها لاشخاص لم يبلغوا بعد هذه المرحلة الارقى ، حتى ولو كان هذا الانكار سياسة رشيدة . ان الاكثرية

---

(١) هى مقر فينوس الهةالحب فى الاسطورة ، اى مدينة الشهوة الجسدية

السـاحقة من أمثال هذه الزيجات ـ وهى لا تعـدو أن تكون من قبيل زواج المصلحة ـ انما يقبل عليها الناس لاشباع شهوتهم الجنسية وهى فى أشد صورها بدائيـة وفجاجة ، أو وهى مقنعة بتلك الاوهام المثـالية التى ينسجها خيال الشباب بكل هذه البراعة المثيرة للاعجاب، وان كانت تثير ضحك الشيوخ وسخريتهم العريضة

اذا كان الامر كذلك ، فليس من المستغرب أن ينتهى مجتمعنا الخاضع لسـيطرة الرجال المباشرة ، الى أن ينظر «للمرأة» لا على انها شخص ، له كيـان قائم بذاته كالرجل ، بل كمجرد أداة لتثير شهوته ثم تتعهد هـذه الشهوة بالرعاية والاهتمام . الزوجة المثالية اذن هى الزوجة التى تفعل كل شىء يحبه الرجل المثالى ، ولا شىء آخر . والان أقول انك اذا عاملت شخصا باعتباره أداة لاهدفا فى ذاته فمعنى ذلك أنك تنكر عليه حق الحياة . فاذا كنت أنت ذلك الشخص الذى يلقى مثل هذه المعاملة، أى اذا كنت الاداة المستخدمة فى مباشرة العـلاقة الجنسية مع الذين ينكرون حقك فى الحياة ، فلن تحتمل هذا الوضـع ، ولن يحتمله أى أنسان . والمرأة التى تتجاسر على أن تنظر بعين مفتوحة الى حقيقة معاملتها على هذا الاساس ، ينتهى بها المطاف الى أحد أمرين : إما أن تعيش وهى تكره نفسها وتحتقر وجودها ، واما ان تثور وتعلن العصيان . والقاعدة أنها تثور فعلا اذا مكنتها الظروف من اعلان ثورة ناجحة ـ كأن تكون عبقـرية بالصدفة تمكنها عبقريتها من أن تخسر شخصيتها «كأنثى» دون أن تخسر وظيفتها ، او ان تقطع صلتها بالمجتمع الذى تقدره حق قدره ، غير ان الظروف قلما تمكنها من ذلك فهل تكره نفسها وتحتقر وجودها ؟ كلا بكل تأكيد . إنها بدلا من ذلك ، تخدع نفسها على الطريقة المثالية عندما

تنكر ان الحب الذى يبديه نحوها حبيبها موســـوم بالشهوة الجنسية ، وعندما تعلن انه حب طاهـــر جميل خال من دوافع المصلحة ، وأنه شيء سام يمكن كلا منهما من تكريس حياته للاخر ، وان بفضله تتطهر حيـــاة الرجـــل ويسمو الى أعلى عليين ، وتتقدس حياة المراة وتصبح نعيما كلها وبركة . أما الشـــخص الذى لا يرى فى عروض الرجل الشريفة التى يتقدم بها الرجل لزوجته المقبلة ، الا الذكر الادمي وهو يسعى وراء انثاه الادمية ، فانه فى نظر المرأة المثالية ، أقذر مستهتر بالقيم الشريفة. والرجل بدوره يعمل على ابقائها سادرة فى أوهامها ، بل ويثبت هذه الاوهام تثبيتا ، لانه هو نفســـه لا يطيق الحقيقة ولا يحتمل مرارتها ، فهو يريد ان يقيم رابطـة على الحب ، لا ان يبرم صفقة مهينة . ولكن بذرة الحب الاسمى كامنة فيهما على اية حال — وان كانت حتى لذلك الحين لا تزيد عن الشهوة التى يخفونها ويموهونها على انفسهم بغاية الحرص والدقة . وهكذا يأتى السمسار — والشخص الذى عنيناه لا يزيد عن كونه سمسارا ، ليعقد صفقة الزواج التجارية . ولكنه يقدم لصفقته بمغـازلة امرأته بكلمات الوهم التقليدية ، أى بالحب الرومانسى . ثم يتم الاتفاق بين الطرفين على زعم أن زواجهما سيحقق لهما المثل الاعلى الرومانسى للزواج . ثم تفشل الخطة وتنهار . اذ سرعان ما تتبين الزوجة الشابة أن زوجهـا يهملها من أجل عمله ، وان مصالحه واوجه نشاطه وحياته كلها تقع بعيدا بعيدا خارج نطاق البيت فيما عدا تلك الناحية الجسدية الوحيدة فى زواجهما والتى أشار اليها ذلك المستهتر القذر من قبل ، وان عملها أصبح يتلخص في الجلوس هناك فى البيت ، لتجتر كآبتها وتبلى نفسهـا من الحسرة الى ان يتعطف بطلها ويبدى رغبة فيهـا .

وماذا يمكنها أن تصنعه بعد ذلك ؟ لو انها اشتكت لاستغنى هو عنها لانه قادر على مساعدة نفسه بنفسه ، بينما هى تعتمد عليه للمحافظة على مكانتها الاجتماعية وعلى حياتها وبيتها واسمها وخبزها اليومى القديد (١). وعندما تنفجر شكواها وحسرتها ، أول انفجار ، تتجلى أمامها كل هذه الحقائق ، وتطعنها فى الصميم . ولكن الامور ـ لحسن حظها ـ لاتتوقف عند هذا الحد الى الابد ـ وان كانت تلك اللحظة أتعس اللحظات فى حياة أى امرأة . ذلكأن احترامها لنفسها الذى فقدته كزوجة، تسترده كأم ، وبخدماتها التى تقدمها للمجتمع وأهميتها فيه كأم وربة أسرة ، وهى بصفتها هذه ـ صفة الامومة ـ تنافس أنجح رجال الاعمال وتتفوق عليه . والان اذا بالمرأة ، تصبح بضاعة مطلوبة فى البيت مطلوبة فى السوق الى جانب الاولاد . وبدلا من أن تبكى المرأة حظها العاثر لان زوجها مسافر خارج المدينة ، أو يفكر فى الاسهم والسندات والارباح أكثر مما يفكر فى امرأته المثالية ، اذا بها تنظر الى بقائه فى البيت طول النهار مصدر ازعاج لا يطاق واذا بها بعد زوال غشاوة الوهم من عينيها بشأن الحب المثالى ، تجد أن الامور ليست سيئة الى

---

(١) حاشية بقلم شو :
كان ينبغى على ان انبه قرائى من الرجال لان يتحروا الدقة وهم يفكرون فى هذه الاوضاع . فالزواج فى الواقع يهبط بالرجل الى درجة الاعتماد الكامل على المرأة بما ليس فى صالح الطرفين معا . ولكن المرأة لاتستطيع ان تستبد اوتطغى او أن تسىء السلوك ، بينما الرجل يستطيع ذلك وبقوة القانون ، ومع ذلك فلابد من القول بأن جانبا كبيرا من القانون الخاص بالتهرب من الالتزامات الزوجية ، قد وضع حدا لطغيان الرجل ، بل تمادى فى ذلك حتى أصبح مجحفا بالرجل الى حد كبير . ومؤلفات بلفور باكس مفيدة فى هذا الصدد . « سنة ١٩١٢ »

حد كبير على أية حال ـ وتعود الى الوهم مرة أخرى فترضى زوجها وتحرص عليه باعتباره أداة غير ضارة بل نافعة ، نافعة لتزويج أبنائها وبناتها وكفالة الاستقرار لهم مع أنها تشعر بأنها لو عرفت فى اليوم السابق لزواجها ما عرفته بعد ستة شهور من زواجها ، لصعب عليها أن تحمل نفسها على الزواج على الاطلاق

ويرضى الجميع بهذا الحل الروتينى المفتقر الى الجمال والخيال ، ويكتفون به ولكن الى حدود معينة فالمسألة كلها تتوقف على استعداد المرأة الطبيعى للادارة والتدبير المنزلى ورعاية الاطفال ـ وهو استعداد جاءها بمحض الصدفة ـ كما أنها تتوقف على ما يتمتع به الرجل من لين جانب ولطف معشر بحيث يمكن معايشته بصورة معقولة . ومن هنا ينشأ الوهم المثالى الاخر ، الذى يصف موهبة الادارة والتدبير المنزلى ورعاية الاطفال ، بأنها موهبة فطرية مركبة فى جميع النساء منذ الازل ، وان المرأة التى تفتقر اليها ، ليست امرأة على الاطلاق ، وينبغى ادراجها فى ذلك الجنس الثالث الذى لا هو بالنساء ولا هو بالرجال ، جنس بشكرتسيف . وحتى اذا صح هذا فان النسوة اللواتى من طراز بشكرتسيف اذا ما أتيح لهن حق الحياة ، وجب أن يباح لهن حق اقامة النظم الملائمة لهن كما يباح لغيرهم من الرجال والنساء على السواء ، ولكنه ليس هو الواقع . فوظيفة التدبير المنزلى لم تعد وظيفة طبيعية ولا فطرية فى جميع النساء ، الا اذا كانت الوظيفة العسكرية طبيعية وفطرية فى جميع الرجال مع العلم بانه فى حالة وقوع ازمة فى تعداد السكان ، فقد يكون من الضرورى على كل امرأة قادرة ان تخاطر بحياتها فى ولادة الاطفال وفى البقاء بجوار اسرتهم تماما كما يحدث عند وقوع

أزمة عسكرية عاجلة ويكون من الضرورى على كل رجـــل قادر ان يخاطر بحياته في ميدان الحرب · وحتى فى هذه الحالات الاستثنائية فلن تكون النتيجة - بأى حال من الاحوال - ان ترث المرأة فى دمائها مواهب التدبــــير المنزلى ، أو أن تبض اثداؤها باللبن · من الصحيح تماما بالطبع ، أن أكثر النساء يحملن للاطفال عطفا وحنـانا ، ويفضلن اطفالهن على اطفال الاخرين ، غير أن هذا يصدق أيضـــا على الرجال · مع أن الرجـــال لا يرون فى دار الحضانة مجالهم الطبيعى للعمل · ويمكن اعطاء صورة كاريكاتورية للقضية ، بالقول ان أكثر النساء اللواتى يحتفظن بكلاب مدللة يحملن لها العطف والحنــــــان ، ويفضلن كلابهن على كلاب الآخرين ومع ذلك فليس هناك من يقترح على النساء أو يدعوهن الى حصر نشـــاطهن فى تربية الجراء · ولو انتهى بنا الظن الى أن دار الحضانة والمطبخ هما المكان الطبيعى للمرأة على النحو الذى انتهى به ظن الاطفال الانجليز الى أن القفص هو المكان الطبيعى للببغاء لان أطفال الانجليز لم يروا فى حياتهم ببغاء واحدا خارج القفص · ولا شك ان هناك ببغاوات مادية انتهازية يوافقون سجانيهم على أن الحياة داخل القفص افضل لهم من الحياة خارجه ما دام القرطم متوفرا هناك · بل قـــد يكون هناك ببغاوات مثالية تقنع نفسها بأن رسالة الببغاء فى الحياة ، هىفى أن يعملعلى اسعاد وتسلية الاسرةالتى تملكه ، بالصفير وبالترنم بأغنية « بولى الجميـــلة » وأن الببغاء الكامل الذى يضحىبحريته فى سبيل هذا الهدف « الانسانى » النبيل ، انما يجد الاشباع الاسمى لروحه· ولن اتمادى فأؤكد ان هناك ببغاوات دينية مقتنعـــة كل الاقتناع بأن السجن هو ارادة الله ، لان السجن قطعــة من العذاب ، ولكنى واثق من أن هناك ببغاوات منطقيــة

سفسطائية يمكنهم أن يثبتوا ان هناك قسوة رحيمة عاقلة وان هناك رحمة قاسية بلهاء ، وان من الرحمة القاسية البلهاء أن نطلق سراح الببغاء ليقع فريسة للقطط أوالطيور الجارحة ، أو على الاقل لينسى ما تعلمه فى سجنه القاسى الرحيم من فنون الغناء والصفير ، فضلا عما قد يؤدى اليه صراعه فى سبيل البقاء وهو بدون حماية من تشويه لحباله الصوتية الرقيقة واصابتها بالخشونة . ومع ذلك فالببغاء الوحيد الذى يمكن للانسان المتحرر أن يتعاطف معه هو الببغاء الذى يصر على اطلاق سراحه لان اطلاق سراحه أو حريته هى أول شرط لان يكون طائرا مرغوبا فيه. قد تقول : ياله من طائر أنانى ، يشبع حاجته الخاصة قبل اشباع حاجة الاسرة التى أولعت به الى هذا الحد — أى قبل تحقيق أكبر قدر من السعادة لاكبر عدد من الناس(١) طائر يقلد الانسان بروحه المستقلة وبذلك يلغى صفته كببغاء ، فقد طبيعته كطائر منزلى وليست له قوة الصقر الجارح ولا جرأته . ولكنك مهما قلت فيه ، فأنت تحترمه بالرغم من منطقك الجبار المحكم . فاذا ما أصر الببغاء على ركوب رأسه والسير فى خطته ، فليس أمامك الا أحد شيئين : أن تطلق سراحه أو أن تقتله

والخلاصة ، ان المرأة: اذا لم تخلع عنها صفتها كامرأة كاملة وتطرح عنها واجبها نحو زوجها ونحو أولادها ونحو المجتمع ونحو القانون ونحو أى انسان آخر غير نفسها : فلن تتمكن من تحرير نفسها . ولكن واجبها نحو نفسها ليس بواجب قط لان الدين يلغى من تلقاء نفسه ، عندما يكون الدائن والمدين هما نفس الشخص ، ويكون سداد

---

(١) يعرض شو بشعار النفعيين أو المنفعيين utilitarians وكان مذهبهم سائدا فى انجلترا فى أواخر القرن الماضى ابان نشر كتابه

الدين فى هذه الحالة، هو بكل بساطة فى تحقيق ارادة الفرد التى ترى فى كل واجب عليها قيدا على حريتها على أساس التصور المثالى للارادة الفردية بأنها بطبيعتها ارادة خبيثة وشيطانية . وعلى هذا يتعين على المرأة أن ترفض كلمة الواجب برمتها • ففى هذا الرفض ، تكمن حريتها • اذا قلت ان المرأة الان جارية للرجل بشكل مباشر ، فربما خالفت الحقيقة ، ولكن الحق أنها جارية للواجب بشكل مباشر . وكما أن طريق الحرية بالنسبة للرجل كان ولا يزال مملوءا بحطام الواجبات والمثل العليا التى حطمها ووطأها بقدمه ، فكذلك ينبغى أن يكون طريق المرأة الى الحرية • وقد تعمد المرأة الى اخفاء رغبتها الهدامة فى تحطيم الاصنام ، فتحاول كما فعل الرجل ـ فى سبيل أن تتمتع بحياة هادئة مستقرة ، أن تقنع نفسها على الطريقة المنطقية ، بأن تحررها سيدعم ويعزز جميع القيم المثالية التى أهملت او انتهكت ، بدلا من أن يقضى عليها وينسفها نسفا • مثل هذه الحجج والتعلات سهلة جدا بالنسبة للشخص الذى لديه استعداد لفهم الطريقة المنطقية سهولة العزف على البيانو لبادريفسكى (١) ، ولكن لا نصيب له من الصدق او من الحقيقة . فان ملء سلة كاملة من المثل العليا ـ وان كانت أكثرها قداسة ـ سوف تنسف نسفا فى اللحظة التى تتحقق فيها المساواة الكاملة بين النساء والرجال (٢) . اما الذين يشفقون فزعا وهولا ، من الصوت

---

(١) I. Padcrewski ـ ١٩٤١ عازف البيانو البولندى الشهير والمؤلف الموسقى • كان رئيسا للوزراء فى بولندا بعد الحرب العالمية الاولى ولكنه استقال بعد عشرة شهور

(٢) لم تتحقق هذه المساواة الكاملة فى انجلترا سواء فى الحقوق الزوجية أو فى الحقوق السياسية ، الا بعد أربعين عاما تقريبا فى سنة ١٩٢٩

المنبعث من البناء القديم وهو يتصدع وينهار من القواعد، فلهم أن يطمئنوا أنفسهم عندما يدركون ان عملية استبدال الحطام بشيء جديد ، ستتم بسرعة . انها دائما تسير على طريقة : « مات المثل الاعلى ليحيا المثل الاعلى » (١) . أما ميزة التدمير والنسف والهدم ففى أن كل مثل أعلى جديد يحتوى على قدر من الوهم أقل مما كان يحتوى عليه المثل الاعلى السابق الذى احتل مكانه ، بحيث يكون الشخص الهدام ، ناسف المثل العليا ، ومحطم الاصنام، وان استنكره الناس ونظروا اليه شزرا كعدو للمجتمع ، هو فى حقيقة أمره انسان يعمل على كنس الدنيا وتطهيرها من الاكاذيب

---

(١) على وزن « مات الملك ، ليحيا الملك » . شعار الملكيين المحافظين

شو وإبسن - مغزى المسرحيات

تتلخص الفكرة الاساسية فى المسرحيات التى كتبها ابسن فى ان العبودية الحقيقية فى الوقت الحاضر هى العبودية للمثل العليا : العبودية لمعانى الطيبة والصلاح والخير . وربما تعجب القراء الذين تأملوا فى ابسن من خلال عوينات مثالية — من قدرتى على تحريف أقوال شاعر عظيم الى هذا الحد ، والواقع انى أعرف أن الكثيرين ممن سحرهم الشاعر وأذهلهم بما فى المسرحيات من رائع الشعر وبليغ النظم ، سيفسرونها تفسيرا اخر غير الذى قدمه ابسن نفسه بأوضح عبارة على لسان « مسز الفيج (١) » و « رلنج » (٢) والاخرين . فليس هناك كاتب عظيم يستخدم براعته وعبقريته فى اخفاء المغزى الذى يرمى اليه . هناك قصة رواها أحد مشاهير الاسكتلنديين (٣) وهى خليقة بأن تصدر عن ابسن لو كان ابسن هو الذى

(*) الفصل السابع ، من جوهر الابسنية الطبعة الثالثة كونستابل وشركاه لندن ١٩٢٢ وكانت الطبعة الاولى فى سنة ١٨٩٠

(١) بطلة مسرحية « الاشباح »

(٢) الطبيب فى « البطة البرية »

(٣) سير وولتر سكوت والرواية هى The Heart of Medlothian وجين دينز هى بطلة الرواية

وقع عليها أولا : لقد ضحت « جيني دينز » بحياة أختها على عود المشنقة فى سبيل قول الصدق ، وقول الصدق هو أحد المثل العليا . وتلك تضحية أبشع وأفظع من تضحية روز مرز فضلا عن أن الطريقة التى أنهى بها سكوت قصته ليست بالحل الملائم للمشكلة الاخلاقية التى أثارتها بل كانت مجرد تهرب صبياني منه . فعندما بلغت الرواية ذروتها لم يجرؤ على شنق « ايفى » فى سبيل مثل «جينى» العليا (١) . ومع ذلك فاذا كان لى أن أزعم أن سكوت كتب رواية « قلب ميدلوثيان » ليبين أن الناس يساقون سوقا لارتكاب أفعال شريرة وغير طبيعية واجرامية بوحى من مثلهم العليا الدينية والاخلاقية كما يساقون لارتكابها بوحى من أحقادهم ومطامعهم فمن السهل دحض هذا الزعم من سطور الرواية نفسها . ولو حاول أحد أن يزعم أن « الاشباح » هى مجرد جدل يدور لتأييد نظام الزواج الكاثوليكى بواحدة ، الذى لا يمكن فصم عراه ، أو ان «البطة البرية » لم تأت الا للدعاية لقول الحقيقة من أجل الحقيقة نفسها ، فأولى به ثم أولى أن يحرق نص المسرحيتين لو كان لزعمه هذا أساس واحد ينهض عليه . اما الذين

---

(١) حاشية بقلم شو :
كثيرا ما يعرض على المسرح الحل المنطقى للمشكلة الاخلاقية مؤيدا جانب الاخلاق والفضيلة ، غير أنى منذ سنوات عديدة شاهدت عرضا ميلودراما مقتبسة من هذه الرواية نفسها ، وعلى أثر مشهد المحاكمة الاليمة الذى تدين فيه « جيني دينز » أختها وتحكم عليها بالموت بعد أن رفضت أن تقسم على صحة واقعة هى بريئة منها تماما ، جاء مشهد فى السجن ، قال السجان فيه : « لو كنت مكانك لاقسمت حتى على وجود ثقب فى قدر « الحديد » . وأعقب قوله عاصفة من التصفيق تعالت من الصالة والشرفات وتدل على مشاعر ابسنية كاملة عند الجمهور وكانت العبارة مجرد حشو أدخله الممثل على النص من بديهته . فلم أتمكن على أية حال من العثور عليها فى النص المطبوع
(٢) مسرحيات ابسن ، لم تترجم بعد فيما أعلم

ينفرون من « الاشباح » وتتسع صدورهم لرواية«سكوت» فليس ذلك لانها أقل فظاعة وبشـــاعة ، ولكن لان آراء سكوت اراء مألوفة لدى جميع السيدات والسادة من ذوى الرتب العاليةوالاصل العريق ، بينما كانت آراء ابسنفى حينها اراء غريبة عليهم بدرجة لايمكن تصورها . ان ابسن شاعر عظيم • والشخص المثالى يتردى فى ورطة محيرة يعجز فيها عن أن يتصور ان صدر مثل هذا العبقرى يمكن ان ينطوى على أى معنى حقير او اية فكرة ذميمة ، ومع ذلك فهو عاجز بالمثل عن أن يدرك المعنى الحقيقى لافكاره على أى نحو آخر ، الا أنه معنى حقير ذميم •وهكذا يفوته المغزى تماما ، على الرغم من وضوح ابسن واصراره على هذا الوضوح ، ثم يمضى ذلك المثالى ليضع لنفسه مغزى اخر يلائمه هو ، ويتفق مع مثله العليا من الشرف والنبل ••• الخ

ويبدو أن عطف ابسن العميق على شخصياته المثالية فى مسرحياته ، يزيد من حيرة قرائه المثاليين . فمـا دامت المثالية شديدة الولع بنقط الضعففىالشخصيةالانسانية فأن النماذج البشرية للغرور والفشل والانانية والحماقة ـ وهى أحفل النماذج التراجيدية بالفجيعة والحسرة ،ليست فى عينها أشرارا مبتذلين ، بل قد تصلح كأبطال فى أى ميلودراما عادية • « براند » و « روزمر » يســـوقان الى الموت احباءهما ، ويفعلان ذلك بكل ما فى الانســان السوفوكليسى أوالشكسبيرى الطيب المظلوم الذىيضطهده القدر ويغلبه على أمره ، ويفعلان ذلك وهما محاطانبأجواء رائعة جميلة ، « هيلدا فانجل » التى تقتل « البنــاء العظيم » لتتسلى بقتله ، هى أشد الشخصيات النسائية سحرا ، ومن اجدر بطلات الدراما بالعطف والاشفاق . ان

الشخص « المادى » العادى لا يرتكب مثل هذه الفظاعات، فهو يتزوج المرأة التى يولع بها ، ويعيش معها سعيدا على نحو أو اخر ويخلفان صبيان وبنات ، ولكنه لايفعل ذلك لانه أعظم من « براند » أو « روزمر » بل لانه أقل منهما قدرا . أما « المثالى » فهو حيوان أشد خطرا من«المادى»، كالانسان الذى هو حيوان اشد خطرا من النعجة فى القطيع . ومع ان « براند » قتل زوجته عمدا ، فاننى يمكننى أن أتصور عددا عديدا من النساء تزوجن من رجال ماديين لطاف المعشر ، ويعشن معهم فى راحة بال — وهن يقرأن المسرحية ويحسدن زوج الضحية — ذلك ان زوجة « براند » بعد أن قدمت التضحية التى فرضها عليها زوجها تقول انه كان على حق وانها الان سعيدة وانها ترى وجه الله ، ثم تذكره بأن كل من يحتضر يرى وجه الاله « يهوه » رأى العين ، فيضع يده على عينيها بطريقة غريزية واذا به يرتفع فى الحال بهذه الحركة ، الى ما فوق مستوى النقد الذى يسخر من المثالية القادمة من أسفل ، الى أجواء أثيرية علوية صافية لا يمكن الصعود اليها الا من خلال الضباب والغمام

ولو أنى عمدت خلال روايتى للمسرحيات — (١) الى اصدار أحكام مفتعلة على اخطاء الشخصيات المثالية على أساس معايير الحياة المثالية التى تساموا اليها ، بدلا من معايير الحياة الواقعية التى تقاصروا دونها لفشلت حتما فى ايضاح موقفى مع الاحتفاظ بقدر معقول من الاحترام لعقلية القارىء . ان المعايير الدقيقة للاخلاق الواقعية وان لم يتضمنها الكتاب المقدس.. قد تخلفت عن العصر ونسيها الناس،ولولاأن ابسن أرغمنى، لما كنت مكرها على استخدام

(١) شغلت رواية شو للمسرحيات عدة فصول فى « جوهر الابسنية»

هذه المعايير ، بل لاستخدمت معايير أخرى لكى أتحاشى تعارضها مع المعايير السائدة الدارجة

وهذا على اية حال ـ شيء غير ذى بال ، اذا قورن بالصعوبة البالغة التى تنشأ من عادتنا المتأصلة ـ عادة تقييم وتصنيف الناس فى خانات ثابتة وتسميتهم أسماء مجردة على حسب صفاتهم الشخصية دون أى رجوع الى آرادتهم التى تقف وراء هذه الصفات وتتحكم فيها . ففى أحد الاحتفالات السنوية التى كانت تقام فى ذكرى كوميون باريس (١) صدمنى من خطباء الحفل ، ان أحدا منهم لم يذكر الفيدراليين فى خطبته بكلمة رثاء واحدة وهو تصرف غير لائق بالنسبة لفلاحى الفنديه الذين حاربوا فى صف ظالميهم ضد الثوريين الفرنسيين وماتوا ، كما لم يذكر أحد كلمة رثاء فى الايرلنديين وأهالى الجبال الذين حاربوا فى سبيل آل ستيوارت وخاضوا معارك بوين أو كالودين (٢) . وكل ما قيل من عبارات الرثاء فى الضحايا

---

(١) Commune of Paris سنة ١٨٧١ اول حكومة ثورية اشتراكية منتخبة من العمال ، استولت على مقاليد الامور فى باريس بعد انسحاب جيوش الحكومة البورجوازية منها على أثر هزيمتها التامة امام الجيوش البروسية التى غزت فرنسا واحتلت مشارف باريس فى حرب السبعين . ولم يستمر الكوميون أكثر منشهرين ثم سحق بوحشية بالغة على أيدى جيش جديد شكله « تيير » رئس الحكومة الفرنسية البورجوازية من فلاحى فرنسا والفنديه ومن أسرى الحرب الفرنسيين الذين أطلق الالمان سراحهم خصيصا لقمع ثورة باريس الاشتراكية

وكان من بين رجال الكوميون Communards شيوعيون دوليون ويعاقبة وأنصار بلانكي وفيدراليون فوضويون كانوا يسعون لاقامة حكومات فيدرالية فى جميع انحاءفرنسا على غرارالكوميونولكن مساعى الجميع حبطت بسقوط الكوميون . ويحتفل الاشتراكيون على اختلافهم فى جميع أنحاء العالم بذكرىسقوط الكوميون كل عام

(٢) Culloden and Boyne أسماء مواقع فى اسكتلندا ، كانت مسرحا لمعارك دامية بين بيت آل ستيوارت الملكى والاسكتلنديين وانهزم فيها الاسكتلنديون فى سنة ١٧٤٦

من أعضاء الكوميون أنهم أبطال ماتوا فى سبيل مثل اعلى نبيل • وهذه العبارات لن تفيد كثيرا فى تنوير المستمع الاجنبى الخالى الذهن عن الموضوع ، بل كانت على العكس جديرة بتضليله وتركه فى الظلام كما فعلت به بالضبط عبارات الهجاء التى كان من المألوف أن تظهر على صفحات جرائدنا ، وتصف ضحايا الكوميون بأنهم سفاكون سفاحون هدامون الى آخر هذه النعوت والاوصاف • ومرثياتنا وأهاجينا ، على العموم ، هى نماذج للغموض والتضليل . وعندما نوقشت قضية الابسنية لاول مرة فى انجلترا لم تكن هناك شخصية أكثر حظا من الشعبية واثارةالاهتمام من تشارلز برادلو (١) الخطيب المفوه والملحد الزنديق الذى توفى أخيرا بفضل ما كان يتمتع به من مزايا وسجايا واضحة • فلم يكن له شبيه ولا مثيل بين الاعضاءالبارزين فى مجلس العموم — ومع ذلك فقد ظهرت بعد وفاته نفس السلسلة المألوفة من المراثى التىتصفه بالفصاحة وبالحزم والعزم والاستقلال الفكرى والحكمة والمنطق القوى وما الى ذلك • ولو حذفت من هذه المراثى الاسماء وبعض الحواشى والتفاصيل ، لما استطاع قارئها أن يحدد موضوعها : أهى فى رثاء «جلادستون»أم لورد«مورلى» (٢) أم « وليم ستيد » أو اى شخص اخر لا يشبه برادلو ن

---

(١) Charles Bradlaugh ١٨٣٣ — ١٨٩١ السياسىالبريطانى التقدمى وعضو مجلس العموم اشتهر بالحاده ورفضه القسم على الكتاب المقدس أمام المجلس وقد سجن بسبب دعوته الى تحديد النسل وكان يسمى نفسه « محطم الاصنام » وله كتاب بعنوان « ثمار الفلسفة »

(٢) Lord J. Morley ١٨٣٨ — ١٩٢٣ السياسى اللبرالى والكاتب الصحفى ومترجم حياة جلادستون

شيء أكثر مما يشبه «غاريبالدى » (١) أوالكاردينال نيومان المتوفي أخيرا والذى كانت مرثيته خليقة بأن يعاد طبعهافى مناسبة وفاة برادلو دون أن يلاحظ أحدتناقضا كبيرا أو خروجا شديدا عن الموضوع • ولقد كان برادلو فى أيام شهرته موضوعا يوميا لمختلف المقـــالات والتعليقـــات الصحفية . فمنذ ثلاثين سنة مضت عندما حسبت الطبقات الوسطى أنه شخص ثورى أحاطت الصحافة عنقه بسلسلة من الاوصاف الشريرة وركزت تركيزا شديدا على الحاده وزندقته ، وأكدت ان السماح بدخوله البرلمان اهانةموجهة الى الله سبحانه • فلما اتضح للبـــورجوازية أن برادلو قوة معادية للاشتراكية فى المجال السياسي ، استبدلت الصحف فى الحال بسلسلة الشتائم البذيئة التى أحاطت بها عنقه ، عقدا نضيدا من الاوصاف الحسنة والنعـوت الطيبة مع أن الرجل لم يتزحزح عن الحاده وزندقته قيد أنملة • وأى شخص خالى الذهن ، لن يجد فى ســـلسلة الشتائم او فى عقد المدائح الدليل الذى يهديه لمعرفة أى رجل من الرجال كان برادلو: أهومن طرازأوليفر كرومويل(٢) أم « وات تايلر » (٣) أم « جاك كيد» (٤) أم «بن»(٥) أم

---

(١) G. Garibal'di ١٨٠٧ ـ ١٨٨٢ الزعيم الوطنى الايطالى المعروف وأحد دعاة وحدة ايطاليا وبطل كثير من معارك تحرير شـعوب أمريكا اللاتينية • كان يعد فى نظر اوروبا فى القرن الماضى رمزا للبطولة ومثلا أعلى للزعيم الوطنى الروماسى

(٢) Oliver Cromwell ١٥٩٩ ـ ١٦٥٨ حاكم بريطانيـــا المطلق بعد أن قاد ثورة البورتانيين وقطع رأس الملك شارل • وهوالذى وطد دعائم البورجوازية الانجليزية وخرج بها من عصر الاقطاع

(٣) Wat Tayler قائد ثورة الفلاحين الانجليز أيام وباء الطاعون الاسود وقد قتله الملك ريتشارد الثانى فى حضرته

(٤) Jack Cade ثائر ايرلندى ضد فساد القصر وظلمه. شنق فى سنة ١٤٥٠

(٥) W. Penn ١٦٤٤ ـ ١٧٦٨ مؤسس ولاية بنسلفانيا فى الولايات المتحدة وأحد زعماء الكويكرز

« ولبرفورس » (١) أم « ولنجتون » (٢) أو المرحوم مستر « هامبدن » الشهير بتعصبه الشديد لفـــكرة أن الارض ليست كروية بل مسطحة ـ أم برودون أم كبير أســاقفة كنتربرى ـ على حسب هذه المزايا أو المعايب التى خلعهـا عليه الكتاب على نحو أو اخر ؟ ان كافة الصفات والنعوت التجريدية تافهة تافهة ، وتفاهتها امر ملموس كل يوم فى الواقع العملى . تعال أمام جمهور من الناس واتهم أحــد الغرباء عن بلدهم بأنه لص وجبان وكذاب فستجــد ان الجمهور سيرجىء حكمه عليه الى ما بعد أن تجيب أنت على هذا السؤال : ماذا فعل الرجل ؟ فاذا حــــاولت أن تصفه بصفات طيبة كأن تقول عنه انه شجاع مستقيــــم صاحب مبادىء عالية ، جاءك منهم نفس السؤال قبل أن تمتد يد واحدة ببنس واحد تضعه فى القبعة التى تدور بها عليهم ..

وعلى هذا ، ينبغى للقارىء أن يسقط من حسابه تلك الاحكام المتحيزة التى سمحت لنفسى باصـــدارها وتلك المعايير التى اتبعتها او اعربت عنها فى روايتى للمسرحيات انها تبعد بنا عن حقيقة القصد منها ، فلو جاء ناقد فوصف « هيدا جابلر » بأنها « لوكريشيا »(٣) العصرية فضلت الموت على العار ، ووصف « تيا الفستد » بأنها بغى منبـــــوذة

---

(١) W. Wilberforce ١٧٥٩–١٨٣٣ داعية تحرير الرقيق فى انجلترا بعد أن ظلت حكومات بريطانيا وملوكها وملكاتها يتاجرون فى الرقيق طوال أربعة قرون كاملة فى مستعمراتهم التى لا تغرب عنها الشمس ، صدر قانون تحريم تجارة الرقيق سنة ١٨٣٣

(٢) Duke of Wellington ١٧٦٩– ١٨٥٢ القائد البريطانى الذى هزم نابليون فى ووترلو ولقب بالدوق الحديدى وتولى رياسة الوزارة وكان بطلا معبودا فى انجلترا فى أوائل العصر الفيكتورى

(٣) Lucritia السيدة الرومانية المشـــهورة فى الاساطير بالطهارة والعفة، اغتصبها سكتسوس وطعنت نفسها حتى الموت اتخذها شكسبير موضوعا لقصيدته اغتصاب لوكريشيا

خائنة للعهد هجرت الرجـــل الذى أقسمت على حبـــه واحترامه وطاعته حتى المـــوت فان فى المسرحية من الشواهد والادلة ما يثبت صحة الوصـــفين • فاذا مضى الناقد وقال ان ابسن يقصد بوضـــــوح أن يوحى بأنه يفضل سلوك « تيا » على سلوك « هيلدا » لانه جعل نهاية تيا اسعد من نهاية هيلدا ، فان المغزى من المسرحيـــة يصبح مغزى شريرا ، وهو شيء محال ومناقض للواقع • فاذا جاء ناقد آخر يدافع عن مسرحية الاشباح كما فعـل ناقد بيكاديللى الدرامى ، لانهـــــا اضفت على شخصية القسيس « ماندرز » النقى الورع صفاء قدسيا وسلاما ربانيا فان مثل هذا التقريظ يكون بمثابة المصيبة المهلكة والبلاء النازل الذى لا يمكن اتقاؤه • واذا سميت « مسز الفنج » بالمرأة المتحررة أو بأنها امرأة بلا مبـــدأ ووصف « الفنج » بأنه خليع فاسق أو بأنه ضحية من ضـــحايا المجتمع ، واذا وصفت « نورا » بأنها امرأة شـــجاعة لا تهاب وان لها قلبا نبيلا أو انها كذابة تافهـــة وتصدمك بكذبها وبتفاهتها وانها أم غير طبيعيـــة ، واذا وصفت « هيلمر » بأنه كلب أنانى حقـــير أو بأنه زوج نموذجى بحسب تحاملك عليهم او تحيزك لهم ، فانت فى الواقع تقول شيئاً هو فى نفس الوقت صحيح وزائف معا • ولكنه على الحالين قول سمج وعقيم ولا غناء فيـــه على الاطلاق ••

ان القول بان اتجاه مسرحيات ابسن اتجاه لا أخلاقى بمعنى أنه منـــاف للفضيلة قول صـــائب تمـــاما • والاتجاه اللا أخلاقى لا يعنى بالضرورة السـلوك الشرير المرذول بل قد ينطوى على سلوك شرير او على سلوك غير شرير ، ولكنه فى كلتا الحالين اتجاه لا يتفق مع المثـــل

العليا السائدة . ان جميع الاديان تبدأ دائما بالثورة على الاخلاقيات الجاهزة المعدة سلفا . وجميع الاديان تفنى وتتلاشى فى اللحظة التى تتغلب عليها فيها الاخلاقيات الجاهزة المعدة سلفا ، فتذهب بكلمات الخير والخطيئة لتأتى بكلمات الاخلاق واللا أخلاق . وعندما يخطط «بانيان» مدينة للاخلاق بما فيها من مواطنين قياديين كالمستر قانون « ليجاليتى » والمستر « تمدن سيفيليتى » يحرص على أن يجعل موقعها قريبا من مدينة الخراب . ولو فعل بانيان فعلته هذه فى الولايات المتحدة اليوم لوضع فى السجن عقابا له . أما أنا فقد ولدت فى ايرلندا فى منتصف القرن التاسع عشر ولكن كانت تسودها روح القرن السابع عشر ، وفى وسعى أن أذكر كيف كان الناس يشتبهون فى الاشخاص الذين يتكلمون كثيرا عن الاخلاق ويتهمونهم بقراءة مؤلفات « توم بين » (١) هذا اذ لم يتهموهم بالالحاد والولوغ فيه حتى الاذقان .. ان هجوم ابسن على الاخلاق ظاهرة من ظواهر احياء الدين لا من ظواهر القضاء عليه . ويجلس ابسن بلا شك مع الانبياء جنبا الى جنب عندما كرس نفسه وحياته لايضاح حقيقة ان روح الانسان فى حالة نمو دائم بحيث تعلو دائما وبصفة مستمرة فوق المثل العليا ، وعلى هذا فأن اى انسجام تلقائى مع المثل العليا السائدة بلا وعى وبلا تفكير ، يتسبب دائما فى حدوث فواجع وفظائع لا تقل بشاعة عن الفواجع والفظائع التى تحدث من انتهاك حرمة هذه المثل العليا انتهاكا تلقائيا بلا وعى وبلا تفكير

---

(١) Thomas Paine ١٧٣٧ ـ ١٨٠٩ المفكر الثورى والسياسى الامريكى الذى تجنس بالجنسية الفرنسية عند قيام الثورة الفرنسية ، مؤلف كتب Common Sense وعصر العقل Eye of Reason وحقوق الانسان Rights of Man « ترجم » « ترجم »

•• ان الاساس الذى تنهض عليه مسرحيات ابسن اذن ، انها تضع أمام أنظار الجمهور فى كل وقت أمـــــرا بالغ الاهمية : ان يكون الانسان على الدوام ، متأهبـــــا لان يتصرف تصرفات لا أخلاقية ، ان يكون على استعداد دائم وفى كل وقت لان يتناقض مع الاخلاق السائدة الجاهزة• ويذكر ابسن الناس ان عليهم أن يقولوا الصـــدق وأن يستسلموا للحقيقة كما يستسلمون لدواعى الحشـــمة وأصول اللياقةفيمسكون ألسنتهمعنقول الصدق ،ويحذر النســـاء اللواتى لا يستطعن أو لا يرغبن الزواج من أن المبررات التى يقدمها لهن المجتمع للاحتفاظ بعـــــذريتهن وحصانتهن ، يمكن أن تكون من قبيـــل الاغـراءات التى تغريهن بالتفريط فى عذريتهن وبانجاب اطفال غـــير شرعيين ، وكل ذلك هو مما يوحى به اليهن الاخــــرون ، أو توحى به اليهن نوازعهن الشخصية : ان القرار العملى الحاسم الذى ينبغى عليهن اتخاذه يتوقف على الظروف تماما كما يتوقف عليها القرار العملى الحاسم فى الاختيار بين المشى على الاقدام او استدعاء تاكسى مهما بدا القرار تافها أو بدت الظروف المحيطة به أهون من ذلك شأنا • ويحتج ابسن على الاعتقاد المألوف بأن هنـــــاك قواعد أخلاقية معينة تبرر جميع الوسائل المستخدمة للمحافظة عليها والحرص على اتباعها بدقة ، ويصر على أن الهدف الاسمى هو الهدف الملهم الخالد الذى هو فى حالة نمو أبدية لا ذلك الهدف الخارجى المصطنع الجامد الذى لا يتغير ولا يتطور ولا ينمو ، العبرة ليست فى الشكليات بل فى الجوهر والروح ، العبرة ليست فى نصوص العقد وشروطه وبنوده ، بل فى الغرض المقصود من العقـــد ، العبرة ليست فى شكل القانون بل فى موضوعه وروحه بل العبرة ليست فى القانون المجرد بلفى ارادة الانسان

الحية . وما دامت ارادة التغيير - تغيير عاداتنا - اى الارادة التى تتحدى الاخلاق الجاهزة تنشأ دائما قبل أن يتمكن العقل البشرى من أن يتبين من وراء ذلك التغيير هدفا نافعا للجنس البشرى ، فستظل هناك فترة من الزمن يستطيع الفرد الحر ذو الارادة الحية ان يمسك فيها عن القول او الشرح أو التفسير ، أو لا يقول اكثر من انه يريد أن يتصرف تصرفا لا أخلاقيا أو مناقضا للاخلاق الجاهزة لا لشىء الا لانه يحب ذلك ويرغب فيه ويشعر بانه سيكون تعسا وبائسا بل اشقى الناس اذا تصرف على نحو اخر . ولهذا السبب فمن اشد الامور اهمية وخطورة ، أن يهتم كل منا بشئونه الخاصة . أو بالمعنى الدارج ان نكون فى حالنا وان ندع الاخرين يفعلون كما يحلو لهم ما لم نتمكن من أثبات وقوع ضرر فعلى - ضرر يزيد عن مجرد الصدمة التى تثير مشاعرنا الشخصية واحقادنا المتحاملة . ومن السهل ان نقدم أمثلة ثورية على تلك الأفعال والتصرفات - ولكن من الصعب أن نضع خطا فاصلا لها ، وان نقول انها لن تحسم فى الواقع بالقوة البدنية المجردة فى كل حالة تقريبا ، غير أن التمييز بين الضار والنافع بما يحقق الاغراض المألوفة للحكومة والمجتمع هو شىء عملى ومعقول جدا . والحقيقة الواضحة كل الوضوح ، هى أن الناس والمجتمع لن يضاروا بشىء اذ ما اصيبوا من آن لآخر بصدمة فى مشاعرهم الشخصية وفى احقادهم المتحاملة ، بل ان أمثال هذه الصدمات ضرورية ، ضرورة مطلقة لتقدم المجتمع ، وينبغى أن يصاب بها كثيرا وغالبا . حقا انه ليس من صالح الناس والمجتمع أن يقتل بعض الافراد خنقا ، فى فراشهم أو فى اى مكان من وقت لاخر او فى أى وقت أبدا ، ولكن العيب كل العيب والخطأ كل الخطأ

ان يعامل الملحد او الزنديق كما يعامل القاتل الذى يخنق الناس ويقتلهم ، وأن يوضع الذوق الردىء او التصرف السمج الممجوج على قدم المساواة مع السرقة والجريمة . ان حاجة المجتمع الى التطور الحر الطليق ، هى الاساس الوحيد للتسامح ، هى الحجة الوحيدة السليمة ضد محاكم التفتيش ومجالس الرقابة ، هى السبب الوحيد الذى يمنع احراق الملحدين وارسال كل منحرف عن الصراط المستقيم ، الى مستشفى المجانين

وبالاختصار ، لقد اصبحت مثلنا العليا كآلهة اجدادنا القدماء تطالب وتطالب دائما بضحايا بشرية . ويقول ابسن : دعونا لانسمح بوضع اى من هذه المثل العليا فى مكان أعلى من مكان المسئولية - مسئوليتها هى والتزامها هى بأن تثبت لنا فى كل وقت انها تستحق التضحيات التى تطالب بها - دعونا نمنح لاى شخص ولكل شخص الحق فى أن يمتنع - بوازع دينى فى نفسه - عن أن يضحى بنفسه او بالاخرين فى سبيل أى مثل أعلى من اللحظة التى يفقد فيها ايمانه بهذا المثل الاعلى اوبصوابه. وسوف يقال فى هذا الصدد بالطبع ، ان هذا أبعد ما يكون عن الخروج على قواعد الاخلاق بل على العكس هو من أسمى الاخلاقيات . سيقول هذا قراء ثرثارون تافهون لا يعرفون معنى ما يقولون ، ولا رجاء فى تقويمهم .. والحق انى لن أبدد مزيدا من الكلمات على الذين لا يعنون بالكلمة هذا الامر او غيره ، ولا يسمحون لى بان اعنى ما اقول . وحسبى من القراء اولئك الذين افلتوا من سلطان المثل العليا السائدة ، فهؤلاء لن تنشأ بينهم يوما ما مشكلة بشأن سلامة مسرحيات ابسن من الناحية الاخلاقية . اما الخاضعون لسلطان المثل العليا السائدة،

فسوف يستنكرون مسرحياته ويرمونها بتهمة اللاأخلاقية أو المنافية للفضيلة ، ولا يمكن الدفاع عنها ضد هـــذا الاتهام ٠٠

ولست أرى محلا للتساؤل عن الاثر الذى يحتمل ان يترك فى نفس الشخص عندما يتحول من حالة التسليم التقليدى بصحة المثل العليا الســـــائدة وتقبله لمعايير مضمونة للسلوك ، الى حالة التفتح الذهنى لابسن وأفكار ابسن ٠ فلابد أن يكون أول انطباع فى نفسه هو تعميــق أحساسه بالمسؤولية الاخلاقية وبالالتزام الاخــــلاقى الى حد كبير . وقبل حدوث هذا التحول ، لا يجد المرء أسوأ من لحظة وقوف ضميره موقف الامتحان فيسأل : هــل اتبعت الوصايا العشر ؟ هل أطعت القانون ؟ هل واظبت على الذهاب الى الكنيســـة ؟ هل دفعت ضرائبك للقيصر ؟ هل ساهمت مساهمة معقولة فى الجمعيات الخيرية ؟ قد يكون من الصعب أداء كل هذه الفرائض ؛ ولكن عدم أدائها أصعب من ادائها

ويعرف ذلك حق المعرفة الاخلاقيون الجبناء وعددهم تسعة وتسعون من كل مائة فان فى وسع الوغد أن يؤديها جميعا ويحيا مع ذلك حياة أسوأ من حياة المهرب او البغى التى ينبغى عليها أن تجيب « بلا » على جمـيع الاسئلة الدينية (١) استبدل بمثل هذا الاختبار التكنيكى اختبارا اخر مختصرا ، ليس فيه غير سؤال واحـــد يجاب عليه ٠ مذنب أم غير مذنب ؟ سؤال لا يضفى على الطهارة احتراما اكثر مما يضفيه على الاباحية ، ولا على الذل أكثر ممـــا يضفيه على الشمم والاباء ولا على أتباع القانون اكثر مما يضفيه على خرق القانون ولا على الورع والتقوى أكثر مما

(١) Catechism الطقوس المسيحية الخاصة بتعليم أصول الدين عن طريق الاسئلة والاجوبة

يضفيه على المروق والالحاد . وبالاختصار سؤال لا يضفي على الفضائل السائدة احتراما أكثر مما يضفيه على الرذائل السائدة ـ فى هذه الحالة ستجد ان المستوى الاخلاقي لا ينخفض نتيجة للتساهل فى اختبارات الاستحقاق والجدارة ، بل يرتفع نتيجة للتشدد فى تلك الاختبارات لدرجة لا تسمح باجتيازها لاى جبن اخلاقى او حتى لمجرد الانتهازية والنفاق .

وهذا بطبيعة الحال لا يرضى الانتهازى المنافق . فالسيدة « المحترمة » التى تبنى مكانتها المحترمة بين الناس وفقا لادق المبادىء والتعاليم الكنسية وتربى أولادها على سنن أخلاقياتها المثالية بغير لين او هوادة ، يعمد اولادها عندما يبلغون سن الاستقلال واذا مابقيت فيهم بقية من روح حرة ، يعمدون الى استخدام حريتهم للاندفاع مباشرة الى أحضان الشيطان بجنون مذهل : ان هذه المرأة المحترمة ، طاهرة الذيل ، التى لا غبار عليها ، قد شعرت وكانت تشعر طوال عمرها بأن احترام الناس لها ـ وهوما اكتسبته بعناء شديد ـ هو احترام زائف مصحوب بالاحتقار العميق . وانها لتشعر آنذاك بشعور المظلوم الذى بخس حقه بخسا ، كلما رأت اخر سلالات « نل جوين » (1) الروحيين ممن لا يجرؤ انسان محترم على الانحناء لهن فى الطريق ، ذائعات الصيت محبوبات بل معبودات للجماهير . والسبب الذى لا تعرفه السيدة المثالية لهذا الظلم والغبن ، هو أن « نل جوين » أفضل منها فى ميزان النساء ، فلو الغينا الاختبار التالى الذى

---

(1) Nyll Gwynn ١٦٥٠ ـ ١٦٨٧ الممثلة الانجليزية الشهيرة وعشيقة الملك تشارلز الثانى . اتخذت مثلا للعاهرة التى تبيع جسدها لكل انسان

تخرج منه « نل » امرأة سيئة السمعة والمكانة ،واستبدلنا به اختبارا واقعيا فسوف يكشف عن حقيقة الفارق بينهما، وسيكون خطوة الى الامام فى مجال الاخلاق العامة وخطوة مرغوبا فيها الى أقصى حد خـــاصة وان الاختبار سيضع الجانب الطيب فى الانتهازى المنافق امام الجانب السىء فى البوهيمى ، بنفس الشدة والدقة التى يضع لهما الجانب الطيب فى البوهيمى امام الجانب السىء فى الانتهازى : ذلك انه مادام التقليد يتعارض مع الواقع فى هذه الامور، فسوف يساق الناس الى الوقوع فى غلطة هيدا جابلر .. أى الى ان يجعلوا من الرذيلة مثلا أعلى فاذا حافظنـــا على التقليد الذى يقضى بأن الفـارق بين « كاترين » قيصرة روسيا و « فيكتوريا » ملكة بريطانيـا وبين « نل جوين » « ومسز برودى » هو فارق بين المرأة الشريرة والمـــرأة الفاضلة فلا شىء يدعونا للدهشة عندما يرى المتعاطفـون مع كاترين ونل ان من الخير للفتاة أن تكون امرأة منحلة من أن تكون متشددة متزمتة ثم يندفعـــون من ذلك بلا تحرز فيتعصبون ضد الامتناع عن شرب الخمر والاكتفاء بزوجة واحدة ليتسلط عليهم هياج المخمورين وشـــبق الاباحيين . ان إبسن نفسه أكثر تعاطفا مع الرجـل الذى يمضى فى طريقه لا يلوى على شىء فيكون خليعا وسكيرا ، منه مع ذلك الرجل المحتـرم الذى لا يجسر أن يكون الا رجلا محترما . ونحن نعلم ان الصبى الصغير كلما كان أكثر صراحة مع نفسه ، وأصح نفسا وبدنا ، أيقنـــا انه سيفضل القراصنة وقطاع الطرق او فرسان ديماس الثلاثة على « أعمدة المجتمع » ويجعلهم ابطالا رومانسيين له . وقد رأينا بالفعل أنصارا لابسن وخصوما له يظنون ان المغزى من شخصيات « نورا » «ومسز الفستد » هو وضـــع

قاعدة ذهبية للنساء الراغبات فى « التحرر » : وتتلخص هذه القاعدة الذهبية المزعومة فى عبارة « اهربى من زوجك» غير ان رأى ابسن فى الحياة ، هو ادانة هذه القاعدة كما أدينت القاعدة الاكليريكية السماوية التى تقول للمرأة . « ارتبطى بزوجك حتى يفرق الموت بينكما » . وأكثر الناس يعرفون حالة او حالتين يكون من الحكمة والصواب فيهما ، ان تحذو المرأة حذو « نورا » أو حتى حذو «مسز الفستد » . ولكن عليهم أن يعرفوا أيضا ان هناك حالات أخرى اذا مافعلت فعلهما ، انتهت نهاية « تراجيكوميك » كما انتهت محاولات « جريجرزويرل » فى البطة البرية لان يفعل بآل « اكدال » مافعلته « لوناهيسل » بآل« برنك »

ان الشىء الذى يصر ابسن عليه اصرارا ويؤكده تأكيدا هو أنه ليس هناك قاعدة ذهبية ، وأن السلوك — كل السلوك — يجب أن يبرر نفسه بالاثر الذى يتركه على صفحة الحياة ، لا بانسجامه مع أية قاعدة أو مع أى مثل أعلى . وما دامت الحياة هى تحقيق ارادة ، والارادة هى شىء نام متطور على الدوام ، وانها لايمكن ان تتحقق اليوم فى الظروف التى تحققت فيها بالامس ، فان ابسن يطالب ويطالب من جديد بالحق البروتستانتى القديم : حق المرء فى أن يحتكم الى نفسه أى حق الاجتهاد الشخصى فى مسائل السلوك ، وان يحصن هذا الحق ضد جميع النظم والمنظمات والمؤسسات بما فى ذلك الكنائس البروتستانية نفسها

هنا يجب أن أترك المسألة ولا اضيف شيئا ، الا أن ينبه الذين قد يحسبون أنى فى نهاية مطافى نسيت أن أصوغ لهم « الابسنية » أو المذهب الإبسنى فى صيغة مقننة او فى بنود مبندة مذكرا اياهم أن جوهر الابسنية هو انه لا صيغ ولا بنود ولا قوانين . القاعدة الابسنية هى الا يكون هناك قاعـــدة ..

فهـرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس – ص٠ب ٤٩٣

البحــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد – ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo. BRAZIL

ســنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هـذا الـكتاب

اجاب برناردشو « ١٨٥٦ - ١٩٥٠ » على سؤال بسيط من احدى السيدات هو : ماهى الاشتراكية ، بمجلد ضخم يزيد على ربع مليون كلمة : وسأله سائل عن الرأسمالية فأشار الى صلعته والى لحيته وقال بايجاز شديد : « غزارة فى الانتاج وسوء فى التوزيع » . بمثل هذه القدرة العبقرية على الافاضة وعلى التركيز مع الوضوح التام فى الحالين ، كتب شو فى السياسة والاقتصاد والنقد والموسيقى والدين والعلم ، وفى كل ضروب المعرفة البشرية تقريبا ، فضلا عن مدرسته الخاصة فى المسرح العالمى التى مازالت - الى اليوم - راسخة القدم ..

ومنذ وقف شو وقفته المشهودة فى الدفاع عن شهداء دنشواى سنة ١٩٠٦ نشط الكتاب والمترجمون العرب فى دراسة ونقل بعض مؤلفاته الى العربية فضلا عن عدد من مسرحياته التى أذيعت أو مثلت بالعربية . ولكن لايزال أكثر مؤلفات شو « وتبلغ ٣٤ مجلدا منها ١٩ مجلدا مسرحيات عدا الرسائل » لم ينقل بعد الى لغتنا العربية . فكانت فكرة هذه « المختارات » التى احتوت - على صغرها - مواد لم يسبق نشرها بالعربية ، وعلى أن تكون فى نفس الوقت مطابقة لمقتضى الحال أى متمشية مع روح المرحلة النضالية الراهنة التى يمر بها مجتمعنا العربى ، مرحلة بناء الاشتراكية وبناء الانسان العربى الجديد ..